
أحمد صبري أبوالفتوح
بِرِسْكَال
رواية
مدونة أبو عبدو
ميريت

بِرسنگال

رواية

أحمد صبرى أبو الفتوح

(c) دار ميريت
32 شارع صبري أبوعلم، القاهرة
تليفون / فاكس: 5797710 (202)
www.darmerit.org
merit56@hotmail.com
الغلاف: **أحمد اللباد**
المدير العام: **محمد هاشم**
رقم الإيداع: 2017/26894
الترقيم الدولي: **978-977-356-546-6**

أحمد صبرى أبو الفتوح

بِرِسْــــــــكَال

ميريت

القاهرة 2018

إلى مايا وياسين، وباقى الأحفاد طبعا.

* * *

لا مفر . . .

لا بد أن تنهض، فنداء حبق البحر يصدح من قبل الفجر فى قلبها، وبرغم أنها صارت صماء منذ سنوات إلا أن قلبها العنيد لا يزال يسمع كل شىء.

كشفت الغطاء عن نفسها، ثم رفعت يديها وألقت على أبيها تحية الصباح، وسمع قلبها صوته القديم، آه من صوتك يا أبى! كأنه الشهادة، عليها نحيا وعليها نموت، فقط لو أنه تركها تلحق بشىء من النوم، لكنه ظل يسمر مع زائريه حتى الفجر، يحررون أذرعهم من الأكفان ويسمرون.

شقت الباب فرفعت أفراخ حبق البحر رؤوسها الصغيرة، وعلا صداحها، ولما صبت الماء فوق رؤوسها انتشت وتمايلت، لا شىء يبهج أكثر من صداح حبق البحر وهو ينتشى بالماء، حتى عبيره الهادئ لم يفلت من أسر النشوة فسرى فى فضاء الجبانة، كل شىء فى هذا الصباح رائع ومبتهج، حتى شواهد القبور، وقفت أمام النوافذ لترفع عن أرضيتها بقايا الشموع الذائبة، ثم كنست الأرضية ببعض من أعواد الحبق فتضوع العطر فى أرجاء المقام، وبخرقة بللها الندى مسحت قوائم المقصورة ولمعت الصولجان، وأزالت الغبار عن الكرباج واللجام، وأعادت إلى العمامة الخالدة رونقها القديم، وقبل أن تخرج التفتت إلى أبيها:

- نم قليلا قبل أن يهجم الناس، لا أريد أن يروك مسهدا

منذ صعدت إلى الربوة وسكنت مقام أبيها انقطع صخب الحياة، حتى صيحات الموتى حديثى العهد بالجبانة وهم ينادون أهليهم فى جوف الليل ليأتوا ويعيدوهم إلى الحياة لم تعد تصيبها باللوعة، صاروا عندما يدخل الليل ويرون الشموع مضاءة فى نوافذ المقام يهدأون ويأنسون، حتى إذا ما أوشكت الشموع على الذوبان ينبلج

الصبح وتطلع الشمس، تطلع أول ما تطلع فوق قبة المقام، ثم ترتفع لتنشر حنينها فوق الربوة قبل أن تغمر الجبانة كلها، وعندما تغيب خلف البيوت ويهبط الليل تعود الصيحات يزكيها فى كل مرة وافد جديد.

إذا لم يأت أحد قبل الشروق سيحظى أبوها بقليل من النوم، وأصاخ قلبها السمع فلم تشعر بدبيب أقدام قادمة، سيجيئون إذن بعد العصر، انسحبت خارجة فى هدوء ثم أغلقت الباب، ووضعت سبابتها فوق شفتيها لتكف أفراخ الحبق عن الثرثرة، ومضت بخطوات وئيدة وهى تجس بطرف عصاها الطريق، وعندما وصلت إلى موضع معلوم جلست عند مطلع الشمس ورنت إلى الأفق.

طالت جلستها، فأبوها يستيقظ أولا فى قلبها ثم يستيقظ تحت المقصورة، وعندما تشرق الشمس فوق قبة المقام ستتسرب من خلال النافذة، ستضىء المقصورة وتُذَهِّبَ كسوة الضريح لتوقظه، لحظتها ستكون إلى جواره، على طول السنين لم تكن بعيدة عنه وهو يستيقظ، إلا مرة واحدة، وقضى اليوم كله غاضبا، لا يسمع منها ولا يحدثها، كانوا قد بكروا بتشييع وافد جديد، وكان الرجل يبكى فى النعش خوفا من دخول القبر، وأرادت أن تكون قريبة منه، وأخذها الوقت فطلعت الشمس واستيقظ أبوها ولم يجدها، ظلت تسترضيه طوال اليوم، وعندما جن الليل وضعت رأسها فوق عارضة المقصورة وبكت، وبعد أن بللت بالدموع كسوته السندسية سمعته يقول:

- هذه المرة سأسامحك، لكن لا تفعليها ثانية

مَن مِن الناس كان هناك قبل أن تصعد إلى الربوة وتسكن المقام؟، إنها منذ وضعت أباها فى دار خلوده لم تعد تمد عينيها إلى ما هو آت، فقط لا ترى إلا الدنيا التى جمعتهما معا، هى حتى لا تعرف عدد السنين التى قضتها بعد رحيله مع أناس لم تعد تعرفهم، من هم

أولئك الناس؟ وكيف عاشت بينهم كل تلك السنين؟ الطعام والشراب لم تعد تتذكره، حتى أضغاث الأحلام لم تعد تشغلها، ربما كانت تشغلها فى زمن ما، لكنها الآن لا ترى فيها إلا صدى حزين لحياة قديمة.

اندلعت شرارة الشمس عند الأفق فقامت لتلحق به قبل أن يستيقظ "يا صاحب الولاية العنيد كم أجهدتنى"، وأطلت الشمس على القبة فسمعته يتمطى تحت المقصورة ويسأل:

- هل سقيت الكتاكيت؟

فتحت الباب على مصراعيه وأجابت:

- لم يهدأ صداحها إلا عندما صببت الماء فوق رؤوسها، ألا تسمعها تغنى؟

وغمرت الشمس الربوة فأطفأت ما تبقى من الشموع وقالت:

- قم وانشط قبل أن يجيئوا، أمامنا يوم طويل

اهتزت المقصورة وتماوجت الكسوة وهو يتمطى:

- الحزانى كثيرون يا ابنتى، لم أعد أقدر على دموعهم

ابتسمت فى أسى رفيق وقالت:

- أتردهم خائبين؟

اضطربت المقصورة بنبرة غضب:

- ما الذى يفعلونه هناك ليذرفوا كل هذه الدموع؟

نظرت إليه فى حب:

- كأنك لا تعرف

انقضى النهار فانحدر آخر فوج من الباكين فوق الدروب الهابطة، رجال ونساء، حتى الأطفال جاءوا هم أيضا وذرفوا الدموع، ومن عزم ما ذرفوا طأطأت أفراخ حبق البحر رؤوسها الصغيرة، وشيعتهم بعبيرها الطيب، ولما هبط الليل رفعت رؤوسها من جديد

وراحت تثرثر، ونهرتها لكنها لم تكف، ظلت تثرثر وهى تتدراس ما مر طوال اليوم حتى دقت طبول زوار الليل.

انسحبت إلى مكانها المعهود فوق حافة الربوة، ورأتهم يصعدون وفي أيديهم عصيهم، ورأت أذرعهم الميتة والأكفان تنحسر عنها، ورأت أباها واقفا عند باب المقام، بهيكله الضخم وكفنه المضىء وعمامته التى اجتهدت لتحافظ عليها كل هذه السنين، وسمعتهم ينادونه ويحيونه:

- القابض على اللجام أسعدت مساء

- الضارب بالكرباج لا أوحش الله منك

ثم تعانقوا، وتجمعوا حول نار صغيرة وراحوا يسمرون، وتداخلت رؤوس أفراخ الحبق وهى تصيخ السمع للأسمار العجيبة.

ظلت جالسة فوق الحافة إلى أن اقترب الفجر، وسمعته وهو يودعهم، ولما اطمأنت إلى أنهم غادروا أحكمت قبضتها العجوز على عصاتها ودبت فوق الربوة حتى وصلت إلى المقام، وجدته لا يزال واقفا يلوح للمغادرين بكفيه العريضين، ورأت رؤوس أفراخ الحبق وهى تتمايل من النشوة، فلقد سمعت فى ليلتها ما لم يسمعه بشر، ولما همت بدخول المقام سبقها، خلع عمامته القديمة ووضعها هى واللجام والكرباج فى أماكنها المعتادة، ثم أعاد ذراعيه إلى حضن الكفن واختفى داخل المقصورة.

- الليلة يا أبى حدث شىء عجيب

قالت وهى تهيئ الفراش لتنام إلى جواره:

- وأنا أسرح بنظرى عند حافة الربوة الليلة رأيت رجلا كأنه أنت، وطفلة كأنها أنا، كانا ضائعين فى طريق مظلم قديم، فى إحدى يديه لجام مثل اللجام الذى تقبض عليه، وفى الأخرى كرباج كرباجك، يقود مهرتين شابتين حمراوين تجران عربة ذات أربع عجلات، فوق جبهتيهما تتدلى كف تخرج من أصابعها قرون شطة صغيرة،

حمراء، وفى وسط الكف خرزة ليس فى مثل نقاء زرقتها خرزة، وطنت حمحمة المهرتين فى أذنى كأننى الطفلة التى كانت تنام فوق الطبلية، وصرت لا أسمع غيرها، حتى صخب سمارك لم أكن أسمعه، ولا محاورات سكان الجبانة وهم يتبادلون الندم

ثم فردت طولها فوق الفرشة وسألته:

- كانت رحلتنا الأولى، كانت بداية الخلق، أتذكر؟

لكنه كان قد استغرق فى النوم، وسمعت. شخيره يعلو أسفل المقصورة، ورأت طيور الليل تحط فوق الضريح وتلتقط اللآلئ التى خلفتها دموع اليوم كله، انقلبت على جانبها الأيمن وراحت تتأملها، وتسمع هديلها، وقبل أن تروح فى النوم غرقت فى الخضم، وانفسح الخيال عن المشاهد القديمة.

* * *

كل القرى نائمة، قرية تسلم لقرية ونباح يسلم لنباح، وعواء بعيد لا يكاد يغفو حتى يهب مستيقظا، وطريق طويل، وظلام وضباب، ثم أوشك الفجر، فجأة ضاع الطريق، وتوقفوا، السكون لا يقطعه إلا أنفاس المهرتين وهما تزفران من خرطوميهما تعب الطريق، ونقيق الضفادع المتحمسة، وصرير جنادب الليل، وعواء الذئب البعيد، نظر إلى طفلته الجالسة إلى جواره فوجدها تحد عينيها فى الظلام، ولما أدركت حيرته قالت:

- إن كانت هذه هى مفارق البشنين فكما قال الرجل سنتجه إلى اليمين، ثم نعبر كوبرى على اليسار ونأخذ الطريق إليها، هى أول ما سيقابلنا

سرى فى قلب السكون صوت مؤذن قادم من بعيد فقال إنها على الأرجح المفارق المقصودة، وحزم أمره فجذب لجام المهرتين، وتقدموا فى حذر، ولما عادت ملامح الطريق للظهور جدوا فى السير، ثم فاجأهم الكوبرى فعبروه، ومضوا فى طريقهم حتى لاحت بالظن بوادر قرية قريبة فقال لطفلته:

- أظنها هى

أجابت الطفلة بثقة:

- بل هى

طالعتهما الدور النائمة، وتجمعت الكلاب عند أفواه الأزقة، تنفض عن نفسها آثار النوم وتنبح فى غضب، تصلبت آذان المهرتين ودارت أعينهما فى محاجرها، وفقدت أقدامهما وقعها المعتاد ففرقع بالكرباج فوق ظهريهما، وانتظمت الخطوات من جديد، الآن كل شىء صار معروفا، شقوا القرية من طرفها إلى طرفها، ثم تركوها من ورائهم ودخلوا فى ضباب جديد، هذه المرة كان رماديا، تسللت إليه خيوط الفجر، وعندما ظهرت بوادر الشونة أبطأت المهرتان

الخطو، وراحتا تستطلعان المكان وآذانهما تدور فوق قواعدها، أمام بوابة مصنوعة من عروق الخشب والأسلاك الشائكة توقفوا، قبل أن ينزل قفزت الطفلة إلى الأرض، ومدت يديها النحيلتين لتحتضن مخلاة التبن، ثم وضعتها أمام المهرتين، لكنهما لم تُقْبِلا عليها، وأدركت أنهما عطشانتين فالتفتت إليه تنبهه، ومن قلب الشونة الغارق فى الظلام انطلقت صيحة قوية تسأل عمن هناك، ارتعدت والتصقت به فضمها إليه وربت على كتفيها، وهمس يطمئنها بأنه خفير الشونة، ثم أجاب معلنا عن نفسه:

- أنا الأسطى عبد العاطى ملش

قريبه قال إنهم يبدأون العمل بعد الفجر، وها هم وصلوا فى الموعد ولكن لا أحد هناك، بحث فى الضباب عن مجرى ماء ثم اهتدى إلى نقرة ملأ منها دلوين، وكانت الطفلة قد حررت المهرتين فرفعتا خرطوميهما وحمحمتا تتلهفان للشرب، وضع الدلوين أمامهما فدستا خرطوميهما فيهما، وراحتا تعبان الماء وتنفخان فيه، وبعد أن أتيتا على الدلوين دستا خرطوميهما فى مخلاة التبن، ولما انتظمت أنفاسهما وهدأت بطناهما أخرج صندوق الدخان من جيب صديريته ولف سيجارة، ثم أشعلها، ومدت المهرتان رأسيهما فراح ينفث الدخان فى أنفيهما، ثم جلس مسندا ظهره إلى العربة، وأجلس الطفلة إلى جواره وأحاطها بذراعه، أسندت رأسها إلى صدره واستكانت، ثم داعبها الوسن فمالت فوق رجليه وراحت فى النوم.

نبهته سعلة قادمة فحد عينيه ليستطلع القادم، ورفعت المهرتان رأسيهما وأرهفتا آذانهما، انبثق من قلب الضباب رجل يرتدى بدلة صيفية، قال لنفسه إنه هو، كور جلبابه الذى كان يفكر منذ لحظات فى ارتدائه ثم رفع رأس الطفلة من فوق رجليه برفق وأراحها عليه، ووقف بهيكله الضخم وعمامته العالية ملقيا على القادم تحية الصباح، وبادله الرجل التحية وهو يعالج قفل البواب، كان الصباح

قد أطل ببعض نوره فرآه يتجه إلى حجرة خشبية على اليسار تصعد إليها سلمات قليلة، وبعد برهة رآه يفتح نافذتها.

اطمأن إلى استرسال طفلته فى النوم ثم خطا بقدميه الكبيرتين فى اتجاه النافذة، وعندما وصل مد رأسه فرأى الرجل يعطيه ظهره ويرتب أوراقا فوق مكتب صغير، وجلس الرجل إلى المكتب، ونظر فى اتجاه النافذة فرآه واقفا أمامه، جفل واستعاذ بأم الرب فتكلف عبد العاطى الابتسام وهو ممسك بإفريز النافذة وسأل:

- الأستاذ ميشيل غبروس؟

أجابه الرجل بإيماءة فعرفه بنفسه:

- أنا الأسطى عبد العاطى، حدثك بشأنى قريبى الأستاذ فتح الله ملش

انفرجت أسارير الأستاذ ميشيل وقال مرحبا:

- أهلا يا أسطى، العذراء تسامحك، أوقعت قلبى فى قدمى

ونظر حوله وقال:

- أراك بكرت فى الحضور، إنهم لا يأتون إلا بعد طلوع الشمس

قام من أمام المكتب ونظر من النافذة، ورأى العربة واقفة والمهرتين تحدقان فيهما فقال:

- تمام، إعطنى إسمك بالكامل وتعال لتوقع هنا

عبر عبد العاطى البوابة وصعد السلمات القليلة فوجد نفسه فى قلب الحجرة، وكشف عن ذراعه اليمنى فنظر الأستاذ ميشيل إلى الوشم الموسوم عليها وشرع يكتب فى دفتر كبير أمامه:

- عبد العاطى السيد عبد العاطى ملش الريدانية مركز المنصورة

فرغ من كتابة البيانات الموشومة فوق ذراعه فأخرج عبد العاطى خاتمه الحديدى المربوط بخيط الدوبارة إلى إحدى عروات صديريته وقدمه له، تناوله الرجل وقربه من فمه، نفث فيه بخار الصباح ثم ضغطه فى ختامة أمامه، ثم عاد لينفث فيه قبل أن يبصم به فى

الدفتر، وتناول كف عبد العاطى وغمس إبهامه الضخم فى الختامة، وبصم به أيضا، وقبل أن يعيد عبد العاطى الخاتم إلى جيب صديريته رسم على وجهه ابتسامة مؤثرة ودس فى يد الأستاذ ميشيل لفافة صغيرة:

- صباحنا ناد إن شاء الله

تناول الأستاذ ميشيل اللفافة وتأملها، ثم رفعها إلى أنفه وهو يقول:

- بحق الرب أرجو ألا تكون مغشوشة، فما أكثر غش الأفيون فى هذه الأيام

قال عبد العاطى وهو محتفظ بابتسامته:

- لا يجرؤ أحد على بيع المغشوش لعبد العاطى يا سيدى

وبعد أن وضع الأستاذ اللفافة فى جيب بنطاله السحرى سأل:

- ومن هذه الطفلة؟

أجابه:

- إنها برسكال، إبنتى

ظل جالسا إلى تحت العربة حتى طلعت الشمس، واستيقظت الطفلة، ورأى أرتالا من الجمال قادمة من بعيد والجمالون يتطوحون فوق أسنمتها، تأهب كأنه يستعد لمنازلة وقال:

- ها هم جاءوا يا برسكال، ربنا يستر

اضطربت وسألته:

- هل سيطردوننا؟

ضمها إليه وهو يجيب:

- سنرى

اقتربت الجمال فرفع كفيه فوق رأسه يحيى أصحابها، رمقوه بأعين غاضبة وتجاهلوا تحيته، تفحصوا من فوق أسنمة الجمال العربة ذات الأربع عجلات والمهرتين وقال أحدهم:

- اليوم بَيِّن من أوله

تجاهل ما قال الجمال ثم تظاهر بالانشغال فى لف سيجارة، وبعد قليل أطل الأستاذ ميشيل من النافذة ونادى بصوت جهير:

- الأسطى عبد العاطى ملش

انتفض واقفا وهو يسحب آخر نفس من السيجارة، كانت برسكال قد ثبتت الزندين فى رقبتى المهرتين فأشار إليه الأستاذ ميشيل ليدخل بعربته، وما أن سمع الجمالون النداء حتى تجمعوا وأحدثوا لغطا كبيرا، وهدرت الجمال فى غضب، وقال الأستاذ ميشيل عابسا:

- الدور لا تلاعب فيه، والعبرة بأسبقية الحضور كما اتفقنا

وحتى يتجنب المزيد من اعتراضاتهم أشار إلى الرصات التى تملأ أرجاء الشونة:

- خير ربنا كثير، يكفى الجميع وزيادة

الشونة صارت كخلية نحل كبيرة، وأراد عبد العاطى أن يبادر بتقديم حسن النية فطلب من الأستاذ ميشيل أن يبدأ بتحميل الجمال، وقبل أن يستجيب الرجل لطلبه مدت الجمال أعناقها وهدرت وهى تتزاحم للدخول، وما أن عبرت البوابة حتى انطلقت إلى مواضع التحميل فأناخوها وفردوا شباكها، ثم راحوا يرصون فوقها الأجولة، وبعد أن أحكموا أربطة الحمولات امتلأت الشونة بجرجرات الجمال وهى تفرد قوائمها لتستوى واقفة.

على وقع فرقعات الكرباج فوق ظهر المهرتين نظر إلى رصات الأجولة التى يحملها فوق العربة، لا يصدق أنه منذ الصباح كان يعمل بلا توقف، لكنه عاد إلى حذره، فالدنيا التى أغلقت كل الأبواب فى وجهه لا أمان لها، وسمع صوتا قادما من داخله: "يا طالع من بلدك حزين هاتفرح فين؟"، هذا بالضبط هو ما قاله لقريبه الأستاذ فتح الله ملش عندما نصحه بالتوجه إلى طنبارة للعمل فى الشونة التى افتتحتها الحكومة هناك، فالريدانية التى لم يعد أحد من أهلها يستعين بخدماته أصابت بعدواها كل القرى الأخرى، وحتى عندما

ذهب ليلتقط الرزق فى سوق الجملة فى المنصورة تعارك معه العربجية، وهاجمه رجال الحجر البيطرى فأخذوا المهرتين بحجة أنهما مريضتان، ولم يستردهما إلا بعد التعهد بعدم العودة إلى السوق، حتى وقريبه يطمئنه ويقول إن أمين الشونة صديقه وإنه حدثه بشأنه كان متشائما، وقتها اضطر قريبه لأن يمازحه:

- هو أفيونجى قرارى مثلك

وعلق عبد العاطى بلازمته المعروفة:

- بركاتك يا عم جبريل

لكنه بعد يومين من الصمت شرع يجدد العربة، استبدل ما بلى من ألواح الطبلية ودعم الزندين بشنابر جديدة، بدلا من التى أكلها الصدأ، ثم أعاد طلاء العربة واستبدل الإطارات والعدة، حتى مخلاة التبن والدلوين، وقلم حوافر المهرتين وزودهما بحدوات جديدة، وبعد أن صار كل شىء جاهزا صحب ابنته وجاء إلى طنبارة.

طوال اليوم كان يستفسر من الأستاذ ميشيل عن مواقع القرى والعزب التى سيقصدها، ويقابل الجمالين فى الطريق فيلقى عليهم التحية ولا يردون، وقرب العصر رفع أحدهم يده ردا على تحيته، وقبل انتهاء اليوم رأى علامات انسحاب الغضب من ملامحهم فتحدث إليهم ومازح بعضهم، منهم من استجاب لمزاحه ومنهم من لم يستجب، وفى آخر النهار ألقى عليهم وعلى الأستاذ ميشيل السلام وأخذ طريق العودة إلى قريته البعيدة.

الشمس البرتقالية كانت تتأهب للسقوط خلف الأفق عندما انتظموا فوق الطريق، والتفت إلى برسكال فرآها تؤرجح رجليها فى الهواء، إبتسمت عيناه الزرقاوان الضيقتان، فلأول مرة منذ رحلت أمها يراها مبتهجة، وربت على ظهرها بكفه الكبيرة وهو يسألها:

- تعبتِ؟

أجابته:

- قليلا
ولما ركن إلى الصمت سألته:
- هل سنذهب إلى هناك كل يوم؟
أجابها وهو يرنو إلى بعيد:
- أظننا سنفعل، حصلنا اليوم على أجرة تساوى عمل شهر فى الريدانية
صمتت قليلا ثم سألته من جديد:
- هل ستعطينى قروشى؟
تعجب:
- أية قروش؟
- الرجل بعد أن أعطاك أجرتك قال إن الباقى لى
لاطفها:
- وما حاجتك لها الآن؟، ألست أشترى لك كل ما تريدين؟
كان فى أمس الحاجة إلى أن يخلو إلى نفسه، وينظر من بعيد إلى سره الذى لم يبح به لأحد، فمنذ رحلت غاية المنى وهو يطبق على روحه ويرهقها، وينظر إلى الريدانية، وإلى أبيه الذى قضى أربعين عاما يبحث عن ملامحه ولا يجدها، وإلى أمه التى رحلت وهى تخفى وجهها بكفيها لأنها لم تستطع أن تضع عينيها فى عينيه، وحدق فى الأفق الغارب ثم أغمض عينيه، فهناك خلف لمعته القانية تتحقق ملامح يعرفها، كانت مرعوبة كما فى كل مرة، وفتح عينيه على حدود الأفق وهز رأسه فى يأس، كانت برسكال لا تزال تؤرجح رجليها مع وقع خطوات المهرتين فنظر إلى الغيطان وهى تودع أصحابها، وعندما ظهرت أول نجمة فى السماء أطلق عقيرته بالغناء:

- ما كان فى عشمى ولا فكرى ولا ظنى
إن الرفاقة العزاز يتباعدوا عنى

يا دمع عينى عليهم بالبكا حنى
على رفاقة عزاز طول العمر ما عابوشى
فارقتهم غصب ما كانش الرضا منى
كانت برسكال مستلقية على طبلية العربة فراحت تنظر إليه فى حزن، كان كأنه يبكى، منذ رحلت أمها لم تر إلا عبوسه، واليوم، اليوم فقط فارق العبوس وجهه، وها هو يعود إلى غنائه الحزين، قربت حبق البحر الذى لم تكف عن جمعه طوال اليوم ودست وجهها فيه، وتنسمت عبيره الجميل، لو سألها أبوها عن طنبارة ستقول إن حبق البحر ينمو بكثرة فوق شطآنها، والهواء لا يكف طوال الوقت عن التطويح بعبيره.

هى الأخرى مستبشرة، فمنذ رحلت أمها وهى لا ترى أى شىء إلا فوق ملامحها المحتضرة، وفوق وجه عزيزة زوجة أبيها، عندما تتفل فى عبها مستعيذة من الشيطان كلما رأتها، ووجوه أبنائها الذين ينظرون إليها كما تنظر أمهم، كأنها ليست أختهم، حتى أحلامها المختلطة بالذكريات، كلها كانت تجرى فوق ملامح الاحتضار والعبوس الحزين، لكن عزاءها أن أباها أدرك كل هذا فضمها إليه، وها هما لم يكفا عن العمل طوال اليوم فنسيت كل شىء واستبشرت، سرحت فى النجوم البعيدة وتمنت لو ترى أمها مرة واحدة، واضطرمت رغبتها فى البكاء، وعلى وقع الغناء الباكى وصوت أمها القادم من بعيد تمايل رأسها، وعبثت أصابعها بالحجاب المعلق فى رقبتها، كان الألم يتكثف فى قلبها ويعتصره، ولما عادت لتتأمل ملامح أمها لم تجدها، وهمت بالبكاء فباح حبق البحر بسره، أخذته فى حضنها وتنهدت، وعلى وقع حوافر المهرتين وغناء أبيها غرقت فى بحيرة النوم.

نظر عبد العاطى إليها فى حب، وتذكر أنه بعد قليل سيعود إلى البلد التى أنكرته، وإلى عزيزة التى وقفت أمام الباب وهى تودعهم،

لم تفتح فمها بكلمة، لكن عينيها قالتا كل شيء، يعرف أنها بعد أن غابوا في الظلام بكت، فهو يعرف مواعيد بكائها، ويعرف مذاق دموعها الساخنة الحزينة، وهو يحبها، برغم كل ما فعلته ببرسكال، فليس في الدنيا الواسعة كلها موضع يدفن فيه ألمه سوى حضنها الغني.

لكم أشقاها، حتى وهي تتظاهر بالشراسة كأمها كانت تعيش في شقاء، ومنذ تزوج عليها غاية المنى كانت كلما خرج من الدار تخاف ألا يعود، وفي هذا اليوم بالذات ظلت طوال الوقت تفكر فيه وقلبها لا يرى في رحيله في قلب الليل إلا نذير الشؤم، ، من أول ليلة تزوجته وهي تدرك أنه يخفي عن الجميع سرا خطيرا، من كثرة ما أخفاه عنها استسلمت لليأس، وعندما اصفرت الشمس جلست في صالة الدار تنتظر، ودخل الليل فاستكانت إلى الصمت والظلام، وحتى عندما عاد أبناؤها وضعت لهم الطعام ثم انصرفوا إلى نومهم دون أن تبادلهم كلمة واحدة، وعادت إلى الظلمة تنتظر في دياجيرها ما عسى أن يكون.

دخلوا الريدانية بعد العشاء، وانقبض صدر عبد العاطي لما رأى الدار مظلمة، لكن عزيزة التي سمعت جلبة حضورهم أسرعت لتضيء مصباح الكيروسين، ولما خرج الضوء من بابها زال انقباضه، ترك برسكال لتحرر المهرتين وتربطهما إلى المزود ودخل إلى الدار متظاهرا بالنشوة، كان العشاء على الطبلية فجلس منتظرا ابنته، ولما جاءت أخذها تحت جناحه، وقبل أن يكملا عشاءهما دس يده في جيب صديريته وأخرج جنيهين أعطاهما لعزيزة وهو يقول:

- إشتري جريشا للمهرتين واحتفظي بالباقي بين قبك وحزامك

كفت برسكال عن الطعام ورفعت رأسها، ورأت الفرحة على وجه عزيزة فاقتربت من أبيها وهمست:

- ألم تقل إنك ستحتفظ لى بقروشى؟

نظر إليها بطرف عينه ولم يجب، وشغلتها النظرة ثلاثة أيام، فلا هى أجابت على سؤالها ولا سمحت لها بالعودة إلى الحديث عن قروشها، وفى اليوم الرابع صار لها فى ذمته عشرة قروش، ولما أدركت أن قروشها تذهب إلى جيب عزيزة كل يوم تراكم غضبها، وقررت أن تخاصمه.

وحان وقت العودة إلى الريدانية عصر الخميس فقال له الأستاذ ميشيل:

- بحق العذراء متى تنام يا رجل ومتى تصحو؟ وهذه البنت المسكينة؟ وهاتين المهرتين البائستين؟

وفى طريق العودة تحدث إليها:

- قروشك أدخرها لك، وعندما تكبرين سأشترى لك بها أشياء كثيرة

أنطقها الغضب:

- لكنك تعطيها لعزيزة

ضحك:

- عزيزة مجرد حصالة

ثم أردف:

- أخوتك يعطونها أجر عملهم أيضا

فعادت لتعلن غضبها:

- هى أمهم وليست أمى

صمت برهة ثم قال بنبرة غاضبة:

- ألف مرة قلت لك لا تتحدثى عنها هكذا

ولما لاذت بالصمت اعتدل فوق العريش والتفت إليها:

- دعيك من هذا واسمعيني، ما رأيك لو استأجرنا حجرة في طنبارة؟ نقيم فيها بدلا من المجيء والمرواح كل يوم، لا نعود إلا في الخميس والجمعة

انزاح الغضب فأجابته بسؤال:

- أنا وأنت فقط؟

ابتسم وهز رأسه:

- نعم، أنا وأنت

قبل أن تجيبه قال:

- لا يشغلني إلا أنك لن تستطيعي الاعتناء بنفسك

استدارت عيناها الزرقاوان الضيقتان كعينيه وقالت:

- بل أستطيع

ثم أردفت:

- وأعتني بك أيضا

مدت يدها وأمسكت بحزمة من حبق البحر ثم قالت:

- سأكنسها بحبق البحر، وأملأ الزير بالماء، وأعلف المهرتين وأسقيهما، وأضع قروشي بنفسي في الحصالة

ضحك من جديد، فها هي تعود إلى حديث قروشها، وحتى يخرج من الحصار سألها:

- ما كل هذا الحبق؟ ألا تعرفين أن عزيزة لا تحبه؟

فأجابته عابسة:

- أمي كانت تحبه، قالت إنه نبات الجنة

تنهد في حسرة:

- وأين هي أمك؟ راحت وراحت أيامها

أوجعها قوله فغمرها الحزن، واستلقت فوق الطبلية ودست رأسها في حبق البحر تاركة الطريق لعينيه الغارقتين في الذكريات.

* * *

فوق صفحة الليل رأى النجوم كأطفال يلهون فى الفضاء البعيد، ورأى دارهم القديمة مزدحمة بالناس وأبوه ليس منهم، أمه قالت إنه مات وهو لا يزال فى بطنها، زوجات أعمامه كن يعاملنها بقسوة، ولم يكن كبيرا بما يكفى ليعرف سر عدائهن، ورآها وهو فى الخامسة تأخذه من يده وتمضى إلى دار أخوتها، وعاشت بينهم شهورا ثم تركته وتزوجت، وفى أول ليلة نظر بعينيه الزرقاوين الضيقتين فى أرجاء الدار ولم يجدها، وظل يبكى حتى طلع الصبح، وقبل أن ينصرم النهار جاء عمه الأكبر فجمعوا أشياءه فى صرة صغيرة وأخذه إلى دارهم.

بات أول ليلة تحت أرجل الأولاد، وفى الصباح شكوا لأمهاتهم من رفساته وكشفه الغطاء عنهم فأخذوه إلى حجرة التبن الملحقة بالزرائب لينام مع الكلاف جبريل، وبات الليل كله يسعل من الرائحة الخانقة، وقبل أن تشرق الشمس أيقظه جبريل وصحبه معه إلى الغيط، ومن ساعتها بدأت رحلته الطويلة مع الزرائب.

عشر سنوات قضاها فى زرائب أعمامه، رآها فوق سطح الليل ونجومه البعيدة، بعضها مع جبريل وبعضها وحده، مصطحبا البهائم إلى الغيط، ويظل هناك طوال النهار، وعندما تحط الشمس عند حدود الأفق يعودان بها، وبعد أن يحكما ربطها إلى المزاود يلجآ إلى مستقرهما الليلى فى حجرة التبن، لا يرى أمه إلامرة كل أسبوع فى دار أخواله، ويظل صامتا ومطرقا إلى الأرض وهى تحاصره بأسئلتها وتبكى، وعندما تحممه تنظر فى جسده الصغير وتسأله عن الندوب فى رأسه ويديه ورجليه فيظل محافظا على صمته، فما أدراها بحياته هناك؟ وما الذى يمكن أن تفعله فى الساعة أو الساعتين اللتين تلتقيه فيهما؟

فى تلك السن الصغيرة تعلم كل شىء، وفى فضاء الغيطان وليالى حجرة التبن الخانقة كان جبريل يلقى عليه حكاياته الساحرة، عن طفل ولدته أمه فى حجم الفأر، واختفى ذات يوم فحطمت كل شىء بحثا عنه، ثم عثرت عليه مطمورا فى روث الماشية، وعن ست الحسن والجمال والشاطر حسن، وعن أمنا الغولة ومظاهرها الخادعة، وعندما حكى له عن الأمير "أبو" زيد طاش صوابه، ووقع فى حب البطل الذى ولدته أمه أسودا فأنكره أبوه وأعمامه، واتهموا أمه بعشق أحد عبيدهم، كان وجبريل يحكى يرى نفسه ذلك الطفل القديم، ويرى أمه الخضرة الشريفة، ويرى نفسه كبيرا وأعمامه يستنجدون به فيهب لنصرتهم دون عتاب.

عندما يبيع أعمامه القطن يأخذه أحدهم إلى الخياط ليصنع له جلبابا من قماش أغبش يرتديه فى أول أيام العيد، ويظل يرتديه إلى موعد حلول العيد التالى فتأخذه إحدى زوجات أعمامه وتغسله ليُعَيِّدَ فيه، لا يشترون له حذاء كما يفعلون مع أبنائهم، يدفعون إليه بأحذية أعمامه القديمة فلا يضعها فى قدميه إلا فى صباح العيد، وعندما تعلو الشمس يحرر قدميه النافرتين من أسرها، عيناه الزرقاوان الضيقتان هما عينا أمه، وجسده الفارع الذى يتيه على أجساد أبنائهم الناحلة جسد أبيه.

ذكره نجم بعيد بألعابه القديمة، زمارات صغيرة من سيقان البرسيم، أحصنة أعواد التيل الخضراء يركبها ويجرى فوق الجسور والسكك، مقاليع صغيرة من الخيطان ونوى البلح وأعواد القطن الخضراء، جمال وأحصنة وعربات من الطين، ذات مرة صنع قطارا كالذى رآه يجرى فوق السكة الحديد عند حدود الأفق، كان القطار مفجر المشاجرة الأولى والأخيرة بينه وبين أبناء أعمامه، لم يكونوا يسمحون له باللعب فكان يمر بأترابه وهم يلعبون ويتلكأ عندهم، وإذا ضُبِطَ أو رآه أحد يُعَاقَبُ بالضرب على جنبيه الطريين.

لن ينسى أبدا اليوم الذى سطا فيه أبناء أعمامه على لعباته التى يخفيها فى عرائش الغيطان، ودمر أحدهم قطاره الطينى، ولما رآهم انفجرت فيه كل طاقات الغضب، كان يفوقهم طولا وعرضا، ويتحداهم فيحمل ثلاثة منهم أو أربعة فوق كتفيه، أعمل فيهم يديه وقدميه وأسنانه ففروا كفئران مذعورة، وفى المساء أجلسه عمه الأكبر على مقعدته وربط قدميه ورفعهما، وضربه على باطن كفتيهما بعود من الخيزران كان يشق قلبه قبل أن يصل إليه، وظل يضربه حتى تورمت قدماه، ثم حبسوه فى غرفة التبن ومنعوا عنه الطعام،وظل ثلاثة أيام بلياليها لا يأكل ولا يشرب، حتى الطعام الذى أمده به جبريل لم يقربه، كان يريد المقاومة حتى النهاية.

كاد يبكى وهو يرى فى عمق الليل قدميه وهما تتباطأتان فى اتجاه أمه، ليس لأنه صار يكرهها، ولكن لأن بكاءها كلما قابلته كان يؤلمه، ورآه يحمم نفسه بدونها، يخلع جلبابه ويطبش فى الترعة، وقد يرب الجلباب فى الماء ثم يختفى فى العريشة إلى أن يجف، ذهب جبريل، لم يعرف أبدا من أين جاء ولا إلى أين مضى، كل ما يعرفه حجرة التبن التى صارت له وحده، فى لياليها الخانقة يرى الدنيا أرضا واسعة بلا نهاية، ويرى نفسه وحيدا فى متاهاتها، وتغمره فورة تتغلغل فى أرجاء صدره وتندفع كبصبوص النار، وفى طريقها إلى قلبه تحدث ألما يعجز عن تحمله، ويظل الألم حيا حتى بعد أن تنطفئ جذوتها.

كان يبحث فى متاهات الليل عن ملامح أبيه، وحتى بعد أن صار مطاردا بلعنته لا يزال يتمنى لو عثر عليها، وأغمض عينيه وهو يسأل عن حاجته الليلة بالذات للبحث عنها، وعن جدوى أن يفكر فيها من الأصل، أو حتى فى بطله الذى أنكره أبوه وأعمامه، فى النهاية أبو زيد لم يكن وحيدا، كانت معه أمه، أما هو فلم يكن معه

أحد، حتى جبريل لم يبق، والآن ليس معه أحد سوى برسكال، التى تنام فوق ظهر العربة فى حضن نباتها الجميل.

فى تلك الأيام البعيدة كان ينمو بصورة مدهشة، ولا يكفيه الطعام الذى يقدمونه له، فكان فى النهار عندما ينفتح باب شهيته على مصراعيه يأكل أى شيء يقابله، يسطو على حجرة المعاش ويسرق الأرغفة وقطع الجبن ويدسها فى مرشحة المطية، وفى فضاء الغيطان يأكلها مع أعواد السريس والثوم وفحول البصل والفول الأخضر، أو أزرار المقات والخيار وقرون البامية والفلفل، وقد يجد الوقت لصيد الأسماك الصغيرة على طريقة معلمه جبريل، وكلما يصطاد واحدة يرفع صوته بالنداء: "بركاتك يا عم جبريل"، وبعد أن يفرغ يأخذ السمكات إلى العريشة ويوقد النار ويشويها، ويلتهمها بعظامها وأشواكها الصغيرة.

لما نما جسده زودوا الزرائب ببهائم جديدة، وأمروه بنقل الأتربة من جسور المصارف والقنوات لتتريب الحظائر تحت أقدامها، ثم كلفوه بقطع الزرائب وإخراج السباخ على ظهور المطايا إلى ركن الغيط ليستخدم فى التسميد، صاريقوم بكل ما كان يفعله جبريل، فمنذ اختفى الرجل لم يجلبوا كلافا جديدا.

إن كانوا يعرفون لحوم الدجاج والبط والأوز فهو أيضا يعرفها، حتى لو كان ما يدفعون إليه منها أجنحة وهياكل عجزت أسنانهم عن التقاط نتف اللحم من بين عظامها أو فى ثنايا كهوفها الصغيرة، لكنهم أبدا لا يعرفون طعم لحوم أفراخ الماء التى يصطادها من دِغَال الغاب فوق شاطئى مصرف الشوبك القريب، ولا لحم أبى قردان الذى يقتنصه بشص موصول بخيط طويل يضع فيه ضفدعة صغيرة أو جرادة، وعندما يلتهمها الطائر يكتشف الخدعة فيزعق ويصفق بجناحيه محاولا تخليص نفسه، ومهما بالغوا لا يمكنهم الإدعاء بمعرفة لحم العَنَز، طيور الإِوَزِّ العراقى التى تحلق فى

السماء وتحط فوق أعالى الأشجار لتلتقط أنفاسها، ثم تواصل رحلة العودة إلى مواطنها البعيدة.

عندما بلغهم أنه اصطاد واحدة منها عاقبوه، بحجة أنه ترك البهائم وهام فى الغيطان ليراقب الأوزة التى تركت السرب وضلت طريقها، لكنه لم يأبه لعقابهم، ففى النهاية هو يحتفظ بعظامها الضخمة شاهدا على النجاح فيما فشلت فيه أجيال وأجيال من أبناء القرية الكبيرة، فإلى جانب روح المغامرة كانَ هيكله الضخم فى حاجة إلى الطعام، ووجد ضالته فى اصطياد كل ما يقدر عليه من طيور الغيطان وأسماكها، وحتى حيواناتها.

اصطاد مرة ثعلبا، أراد أن يعرف طعم لحمه فشواه فوق راكية نار كبيرة، ولم يجد لحمه غريبا، كان كلحم الضأن أو الغنم، باستثناء الغصة التى هاجمته عندما تذكر وهو يأكل أنه لحم ثعلب، شق جلده وفرغه وملأه بالملح، وتركه معلقا فى سقف العريشة إلى أن جف وانقطعت رائحته فملأه بالقش وخاط الجلد من حوله، وحمله إلى غرفة التبن سرا، وكذلك فعل مع التُّفَّاتِ التى برع فى اصطياها، وكان لحمها أكثر دسما وفيه مرارة، عرف التدخين فباع تُفَّة محشوة بالقش لأحد أترابه ببضعة قروش، وفى ظلام الليل كان يخرج صندوق الدخان ويلف سيجارة فى الظلام كما كان جبريل يفعل، ثم يشعلها ويأخذ أول نفس فتدور رأسه ويتوه فى سماء بلا نجوم.

أول مرة جرب فيها العبث بنفسه كانت فى عريشة الغيط، وشعر بلذة مرعبة أعقبتها رجفة جبارة صحبتها دفقات من سائل عكر، ثم عرفت قدماه التسلل إلى الحمارة فى الزريبة، وكان قد بلغ الرابعة عشرة فطلب من الخياط أن يخيط له سروالا، فلم يكن قد ارتدى سروالا حتى ذلك الوقت، وذات مرة طلبت منه إحدى زوجات أعمامه نقل شىء من حجرتها فوقف أمام المرآة لأول مرة، ورأى

أمام عينيه شابا لم تذهب الشمس عن وجهه النضارة، ولا عكرت صفو زرقة عينيه.

في وجود جبريل لم يكن يحلم، حكاياته كانت أحلامه، وبعد اختفائه صار الليل بطوله له، بعد أن يعبث بنفسه أو يأت من مشوار الزريبة وبينما يعلو صدره ويهبط يكون الوسن قد أغلق عينيه عن فراغ التبن الخانق وفتح أمامه كل الأحلام، أطفال يلعبون وفتيات، ورجال يفرون أمامه وسيف "أبو" زيد في يده، ورجل بلا ملامح يتمايل طربا مما يرى، حتى أمه كان يراها تبكي من شدة الفرح، ويرى جبريل وهو يلتفت ناظرا ما يفعل ثم يمضي في البعد.

علمه ظلام غرفة التبن طرقا لا تحصى للتخفي، وعندما شكت نساء أعمامه من قلة إدرار البهائم للبن جاء البيطار وفحصها، وقال ليس فيها شيء، لكنها لا تحصل على كفايتها من الطعام، وأعطاها من باب الإحتياط خليطا من اللبن والخل والعسل الأسود، وشربة ملح طاردة للديدان، ورأى أعمامه يصوبون إليه أنظارهم، بفطنته أدرك أنهم يفكرون في التلصص عليه، وإذا هو أشعرهم بمعرفته بما ينتوون لن يمكنه الإفلات منهم، سيأخذونه على غرة، وتظاهر بعدم الانتباه.

صدى وجود أمه وأخواله لم يعد يتردد في دنياه التي صنعها لنفسه، ففي بعدهم هذا ما الذي يمكن أن يفعلوه من أجله؟ وجبريل علمه كيف يختلس من خنقة السجن أوقاتا يكون فيها نفسه، وليس الكلاف اليتيم الذي يعاني الوحدة والحصار، وحتى يضلل أعمامه كف عن التبول فوق البرسيم، إذ كان بعد أن يضع أمام البهائم ما يكفيها من البرسيم يبول فوقه فتعاف الأكل، ويظل البرسيم أمامها طوال اليوم، وكلما يمر أحدهم ويرى العلف أمامها أكواما يقول إنه يقوم على عمله بالجد المطلوب.

رآهم يزحفون على بطونهم فى المصارف الجافة ليراقبوه، وحافظ على الظهور بمظهر اللاهى عما يفعلون، يحش البرسيم ويحمله فوق كتفيه ويلقيه أمام البهائم، حتى إذا ما وضع ما يكفيها يجلس في العريشة وينعم ببعض الراحة، وبين الحين والحين يقصد إليها ويُقَلِّب البرسيم ليظهر أمامها طازجا، وظل على حذره حتى سمع هسهساتهم عن تعرضها للحسد.

طاف أبناؤهم القرية يجمعون خراء الكلاب ليبخروها بدخانه، وجاءت امرأة رقت ضروعها وغسلتها بماء قرأت عليه أورادا غامضة، وعاد إدرار اللبن إلى طبيعته فكفوا عن مراقبته، وجلس فى ظلام الليل يطرد خنقة التبن عن صدره ويلعنهم، لأول مرة يدرك حجم المفارقة، فهو أحد ملاك هذه الماشية، ومن قبلها الأرض التى يرتعون فى خصبها، والدار التى يبعدونه إلى أحقر ركن فيها.

عندما باع أعمامه بعض البهائم فعل مثلما رأى جبريل يفعل، رفض إخراج البهائم من الزريبة حتى يحصل على حبالها، وتمكن من الحصول على جنيه كامل مقابلها، وحمل سعادة أعمامه على ما ظنها، فهم فى النهاية نجحوا فى أن يجعلوه كلافا حقيقيا، يقضى أوقاته فى الزريبة وصحبة البهائم أينما ذهبت، ويندس فى غرفة التبن يدفن فيها تعبه، ويمسك بحبال البهائم المبيعة حتى يحصل على الفتات، لم تعطه سعادتهم أى معنى آخر، حتى أبناؤهم الذين وقفوا يشاهدون مفاوضاته مع التجار حول أثمان الحبال كانوا هم أيضا سعداء، وأظهروا وهم يحسدونه ترفعا جعله يضرب التبن بيديه وهو غارق فى الظلام.

لا بد أن يجد طريقة لطلب حقه وحق أمه، فدان وربع الفدان فى الغيط وربع الدار وربع الماشية، هذا ما قرره فى ظلام الحجرة السحيقة، لم يعد يؤلمه عقابهم، فجسده الفتى أقوى من أن تهزمه عصيهم وقبضاتهم، وجاءت اللحظة المناسبة فوقف صامدا أمام عمه

الأكبر وهو يرفع يده ليصفعه، وأمسك بذراعه ليمنعه، ثم عاد بكتفيه للوراء فنهض صدره القوى ونظر فى عينى عمه متحديا، وانصرف الرجل من أمامه وفى نفسه المندهشة رهبة، وأسرت له واحدة من بنات أعمامه بما قال لأبيها وهما على صينية العشاء:

- الولد كان بينه وبين أن يضربنى لحظة

لكن ما قالته له ابنة عمه لم يقعده عن تنفيذ مخططه، وفى الصباح فاجأهم باصطحاب ربع البهائم إلى الغيط وترك الباقى، ولما لم يعد لأخذها تنادى أعمامه وجلسوا يتباحثون، أقسم عمه الأكبر ليقتلنه إذا رآه، وأخرج أحدهم باقى البهائم وقصد بها إلى الغيط، وهناك وجده مستلقيا فوق كومة برسيم كبيرة معطيا وجهه للسماء الملبدة بغيوم ثقيلة، وعندما رأى عمه اعتدل جالسا وتركه يربط البهائم إلى الأوتاد الخالية بنفسه، ويحمل هيات البرسيم ليلقيها أمامها، وبعد أن انتهى جلس عمه إلى جواره يسأل:

- ما الذى فعلته يا عبد العاطى؟، تترك أكثر من نصف البهائم فى الزرائب بلا طعام؟

أجابه فى تحد:

- لى ربع البهائم وأنا أرعاه، ابحثوا عمن يقوم بعمل ما يخصكم

أصابت الدهشة عمه، وشعر عبد العاطى بالثقة فأردف:

- من الليلة سأعود إلى حجرة أبى، وفى الصباح تسلمونى نصيبى ونصيب أمى فى الأرض وبراحا فى الجرن أبنى فيه دارى

قال الرجل وهو على دهشته:

- وماذا أيضا يا شيخ عبد العاطى؟

- أريد أن أتزوج

- لكنك لا زلت صغيرا، بالكاد بلغت السادسة عشرة

- أنتم تبحثون لابن عمى عن عروس وأنا أكبر منه بشهر

وابتسم عمه وهو لا يصدق ما يسمع ثم قال:

- أهذا ما تقوله لك أمك؟
غام وجهه بالغضب:
- دع أمي لحالها
انخرس لسان عمه، ونظر في وجهه كأنه يراه لأول مرة، لكن عبد العاطي أردف ولوعة بكاء تطوف بملامحه وصوته:
- أم تراكم تريدون أن تطردوني أنا أيضا من دار أبي؟
وصفق الرجل بكفيه:
- أرأيت؟، هذا حديث أمك وليس أحد غيرها
ابتسم في أسى غاضب:
- ألا ترون أنني صرت رجلا وأستطيع أن أطالب بحقي وحقها وحدي؟
ورأى عمه ألا يوغل في الحديث معه إلى أبعد من هذا فقال:
- بل أنت رجل وابن رجل، لكن كل شيء بالأصول
حدق في عيني عمه وسأل:
- قل لي ما هي وأنا أتبعها
- تطلب ما تريد قبل أن تفعل شيئا، نحن أعمامك وفي مقام أبيك
كاد يسخر من ادعائه ثم قال:
- وها أنا أطلب بالأصول فماذا تقول؟
خيم الصمت، لم يقدر عمه على إنزال عينيه عنه، وبعد برهة استند إلى إحدى يديه ونهض، كم تمنى لو أجاب عمه على سؤاله ولو بالرفض، لكنه كان قد استدار ومضى دون أن ينبس بكلمة.
حدسه قال إنهم يخفون شيئا، ففي اليوم التالي خرج بربع البهائم وخرج عمه بالباقي، وبرغم تجاورهما وهما يحشان البرسيم لم يبادله عمه بكلمة، هو يعلف بهائمه وعمه يعلف الباقي، ولأنه أسرع من عمه انتهى من حش برسيم بهائمه قبله، ثم جلس عند العريشة يكمل جملا طينيا كان قد بدأ في صنعه، وعاد ببهائمه قبل غروب

الشمس ووضع أمامها علف المساء، ونادى على من عليها الدور من نساء أعمامه لتحلبها، ثم غسل وجهه ويديه وخرج من الدار، وظلوا يتابعونه حتى غاب عن أعينهم.

في الشارع المؤدى إلى جامع الملشات رآه الناس وتعجبوا، أهذا المارد هو عبد العاطى إبن المرحوم السيد ملش؟، كان يحمل جلبابه فوق كتفه ويمسك بيده الضخمة حذاءه، وولج إلى دورة المياه في الجامع فخلع ملابسه وتحمم أسفل الدش، كانت الدنيا قد أظلمت فرأى الماء ينسرب من تحت قدميه أسودا، ومعه تنسرب سنوات لا يعرف كيف عاشها، ارتدى جلبابه ودس قدميه في الحذاء، وهو في الطريق مشط شعره بأصابعه واطمأن إلى إحكام طوق جلبابه فوق صدره ومضى إلى دار أمه.

لم ير زوجها منذ سنوات، وأخوته من أمه لا يعرفهم إلا بأشكالهم، جلس فوق المصطبة في انتظار قدومها فخرجت ملهوفة، أكملت وضع طرحتها بعد أن خرجت، وقف أمامها فنظرت فيه وبسملت، ومع دموعها التي سقطت على صدره احتضنته، واغرورقت عيناه، لكنه كان رجلا بما يكفي ليمنع الدموع، تشبث بالأرض وهي تمسك بيده لتقوده إلى داخل الدار وقال:

- اسألي زوجك إن كان يسمح بأن توافيني غدا في الغيط، أريد أن أتحدث معك

وهم بالانصراف فأمسكت بجلبابه، وعندما أدركت عزمه على المضي أرخت قبضتها وقالت:

- حاضر يا نن عيني

وضعت كفها على فمها وجلست تتأمل هيأته وهو يمضي، وبكت من فرحتها، لم تكن تعرف أن ابنها صار رجلا إلى هذا الحد، وأي رجل.

على طول الطريق الخارج من الريدانية لم يكن هناك إلا السماء الصافية، لم يفكر بعد فيما سيقوله لأمه، فقط يريد أن يتحدث إليها ويبلغها بخطته للحصول على حقهما، وبأنه لم ينقطع عنها لأنه نسيها، فعندما استطاع عاد إليها، لا ينغص عليه إلا أنه لا يعرف شكل أبيه، ولا يستطيع أن يتخيله، وكلما حاول لا يرى إلا ملامح جبريل، وابتسم وهو يهز رأسه ثم أطلق صيحته المعتادة: "بركاتك يا عم جبريل".

رآها الناس وهى تقصد إليه فى الصباح الباكر، كانت تريد أن تقضى معه أطول وقت ممكن، وعمه الذى جاء ببقية البهائم رآها جالسة معه فى العريشة، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب، قالت لما رأت عمه:

- أما كان يجب أن نجلس فى مكان آخر؟ سيقولون إن أمه تفسده

ابتسم فى مرارة ثم قال:

- هم لا يبرئونك على كل حال

استمعت إليه وهى لا تصدق نفسها، ولما فرغ من حديثه قالت:

- يا نن عينى أنا متنازلة لك عما لى فى ورث أبيك، ولكن خذ حذرك

ارتعش قلبه الشاب وهو يسأل:

- ماذا سيفعلون؟

أجابته وهى تهز رأسها أسفا:

- لا أدرى، خذ حذرك وحسب، فهم لا يتورعون عن فعل شىء

ظل على هذا الحال أسبوعا، يأخذ ربع البهائم ويخرج بها إلى الغيط، وفى نهاية اليوم يربطها إلى المزاود فى الحظيرة وينتظر إلى أن يتم حلابها ثم يمضى إلى حال سبيله، وعندما يوغل الليل يعود إلى غرفة التبن فينقلب على ظهره وتخترق عيناه عرشها، ويرى فى فساحة السماء ملامح مبتسمة، أهو أبوه؟ أهو جبريل؟ لا يعرف، كل

ما يعرفه أن أطنانا كثيرة من الخوف كانت تسقط من فوق كتفيه، لم يعد يرى فى أعمامه ما يخيفه، ولا فى أبنائهم الذين منذ طحنهم بيديه ورجليه ابتعدوا عن طريقه.

لما بدأ الأسبوع الثانى شعر بالقلق، وانبثق فى داخله خوف كاد يمزق أضلاعه، لكن طبيعته المتحدية دفعته لأن يواصل المضى فى طريقه، وهو طلب من عمه أن يخلوا حجرة أبيه لينام فيها، وكانوا بعد رحيل أمه يستخدمونها لنوم أبنائهم، وها هو عمه لم يجبه إلى ما طلب، بل إنهم جميعا لم يعودوا يقتربون منه، ولا يتحدثون إليه، حتى زوجة عمه التى يخرج زوجها بقية البهائم إلى الغيط كل يوم وعليها دور الحلابة تجلس أسفل البهائم وتحلبها فى صمت، لا تسأله عما فعل، لهذا قصد إلى حجرة أبيه بعد أن ربط البهائم إلى مزودها، وفتح الدولاب وأخرج ملابس أبنائهم، وجمع كل ما يخصهم ووضعه أمام الباب، ورأته النسوة، ورآه من بالدار من الأبناء فتجنبوه، كان قد اشترى قفلا صغيرا ورزة وبضعة مسامير، واستعار شاكوشا من نجار قريب فشرع فى تثبيت الرزة، وبعد أن انتهى رد الباب ثم وضع القفل عليه وأغلقه.

لم يشعر بالرضى عما فعل إلا للحظات أدرك فيها أنهم عاجزون عن أى شىء، ونام على سرير أمه فخاصمه النوم، لو يعرف من منهم كان يتسلل إلى الحجرة فى ظلام الليل ليراودها عن نفسها لقام من فوره وقتله، لكنه لا يعرف، ولم يشأ أن يسألها وهما فى عريشة الغيط حتى لا يبعث الذكريات المرة من مرقدها، الكلاب - راح يقول فى نفسه - بدلا من أن يتزوجها أحدهم ويضم يتيمها لأبنائه يراودونها عن نفسها، وطلع عليه الصبح وهو يقاتل الظلام، وشعر بقيمة غرفة التبن، تماما كما أدرك من قبل قيمة معلمه، وخرجت العبارة من فمه هذه المرة غاضبة: "بركاتك يا عم جبريل".

بإمكانه أن يلجأ لأخواله، لكنهم من البداية تعاموا عما يحدث له، لعلهم كانوا يريدون الاطمئنان على عرض أختهم، ولما اطمأنوا تركوه غارقا في ظلام التبن وخنقته، وزوج أمه لا يريد أن يدخل نفسه في شأن لا يخصه، فسمعة أعمامه في الكيد تغني عن كل قول، لن يكون له من ناصر إلا خطته، والسكينة التي يشعر بها وهو يتحدث إلى أمه، وقرب الظهر رأى عمه الأكبر يقوم على تطهير مصرف في نهاية غيطهم الآخر البعيد، لم يكن عمه الآخر موجودا عند البهائم فخطا نحوه ليتحدث معه بما يريد، ورآه الرجل فانتصب واقفا وفي يده الشرشرة:

- عد من حيث أتيت يا كلب وإلا صفيت دمك

اقترب منه والخوف يكاد يقتله:

- تصفي دمي لأنني أريد حقي وحق أمي؟

ولم يجبه عمه، كان مستثارا مما فعله فهجم عليه بالشرشرة، وتفاداها عبد العاطي فسقطت من يده، لكن عمه أطبق على رقبته وأوقعه في المصرف وجثم فوقه، كان أقوى منه، كل ما يتذكره أنه كان يحاول أن يباعد بين عمه وبين الشرشرة الملقاة غير بعيد، عمه كان مشمرا جلبابه ولا يرتدي سروالا، وكان يضربه بقبضتيه ويركله بركبتيه ثم يعود ليخنقه، وكلما حاول الوصول إلى الشرشرة يأخذه عبد العاطي بعيدا عنها، ولما اشتد عليه الضرب نظر فوجد خصيتي عمه في متناوله، بدون تفكير قبض عليهما، كان قويا بما يكفي لأن يعتصرهما، وحاول عمه لكنه لم يستطع، وفيما هو مستمر في عصرهما خارت قوى عمه، ثم سكن العم فجأة فأفلت خصيتيه وانسل من تحته، ولما رآه فاغرا فمه ونظرته منسحبة إلى فراغ سحيق خاف وأطلق ساقيه، في لمح البصر كان قد بلغ العريشة فجلس في ركنها يرتجف.

* * *

في دار عوض الجارحى القديمة ثلاث حجرات يؤجرها للوافدين حديثا إلى طنبارة، يستأجرها ثلاثة مدرسين مغتربين، ورحل أحدهم إلى بلده فظلت حجرته مغلقة، دله عليها أحد الحمالين فتقدم عبد العاطى لاستئجارها، وقبل الشيخ عوض بعد تردد، فى سبيل الأجرة التى سيحصل عليها بداية كل شهر أغمض عينيه عن المشكلات التى سيثيرها وجوده هو والعربة والمهرتين.

أعطته عزيزة صرة فيها ملابسه وملابس برسكال، ومشنة فيها أرغفة خبز سهرت فى إعدادها حتى الفجر، وبلاص مش، ومرتبة قديمة جلبتها من دار المرحومة غاية المنى، كانت لما عرفت بأمر تأجيره الحجرة قد أبدت اعتراضا يائسا، فهى على يقين من أنه سيمضى فى طريقه مهما فعلت، وحمل أغراضه وجاء مع ابنته والشمس لم ترتق بعد فى مدارج السماء.

الدار وقت قدومه كانت خالية، فالمدرسين عبد المطلب الشربينى ومحمد الهيشة المستأجرين للحجرتين الأخريين كانا قد غادرا إلى المدرسة، ترك عبد العاطى العربة فى حراسة برسكال وشرع فى إدخال أشيائهم، ورآهم الجيران فجاءوا يعرضون المساعدة، وبعد أن صف العربة لصق الجدار وربط المهرتين فى حديد نافذتى حجرتى جاريه جلس يشرب الشاى الذى قدمته إحدى الجارات ويشكر للجميع صنيعهم.

منذ وافق عوض على تأجير الغرفة له لم يكف عن البحث عن مأوى للمهرتين، لكنه لا يعرف أحدا من أهل طنبارة، والجمالون والحمالون لم يقدموا له المشورة، فأخبار المشاجرة الصغيرة التى وقعت بينه وبين بعضهم فى رابع أيام قدومه شاعت فى القرية كلها، وتناقل الناس أحداثها، وكيف استطاع أن يفرقهم ففروا أمامه مذعورين، من من أهل القرية إذن سيقبل به وبابنته ومهرتيه

وعربته ذات الأربع عجلات؟ قبل ان يحظى بحجرة عوض فشل فى العثور على حجرة فى دار بها حظيرة، لم يكن على يقين من الأمر سيمر بلا عواقب لذا لم يشأ أن يذهب بعيدا حتى يرى ما الذى سيصير إليه الحال عندما يعود الجارين من مدرستهما.

قرب العصر عاد الرجلان فصعقهما المنظر، العربة تسد الشارع والمهرتان تنامان أسفل النافذتين وخلفهما روث يتجمع عليه الذباب، ثارت ثائرة الأستاذ عبد المطلب فارتد قاصدا دار عوض الجديدة فى نفس الشارع بوجه محتقن ونفس غاضبة، عبد العاطى وبرسكال كانا يفترشان جوالا فارغا ويجلسان أمام الدار، ورأيا الأستاذ يجادل عوض وسمعا حديثه الغاضب، لكنهما لم يشتركا انتظارا لما سيسفر عنه الموقف.

عندما هدد الأستاذ بترك الحجرتين هو وزميله اهتز صوت عوض، وبدا أنه فى طريقه إلى الاستسلام ففرد عبد العاطى جسده الضخم واتجه إليهما، كل شىء فيه كان متوترا والمدرس يصيح:

- لم يعد إلا هذا، تسكننا مع العربجية؟

جرحت العبارة عبد العاطى لكنه كظم غيظه، فالحكمة وحدها هى ما ستنهى الموقف، هكذا قال لنفسه وهو يواصل الاقتراب منهما، فهو إذا بدأ حياة السكنى بشجار آخر سيكون قد وضع نهاية وجوده فى طنبارة قبل أن يبدأ، عندما وصل إليهما كان الأستاذ عبد المطلب يرتجف من شدة الغضب وعوض يقف أمامه مستسلما، وتطلعت الأعين للمارد الذى يحدق فى وجهيهما بعينيه الزرقاوين الضيقتين وشاربه المشرع الطرفين، ولما رأى أن عوض انهزم تقريبا وضع يده على كتف الأستاذ عبد المطلب وقال موجها الحديث لعوض:

- لا تشغل بالك يا "أبو" الجارحى، أنا سأرضى الأستاذ

وقاد المدرس الذى حاول التخلص منه والتشبث بالأرض فى اتجاه الدار، واستمر يسحبه كأنه يسحب شاة متمردة، ودخلت رأس الأستاذ تحت إبطه الضخم، وعندما أصبحا أمام الباب قال:

- أسأت إلى يا أستاذ وأنا جارك، والجار أقرب من الأهل

من نافذة حجرته كان الأستاذ محمد الهيشة يشارك المهرة المربوطة فى حديدها النظر إلى ما يجرى، وكانت المهرتان قد انتبهتا إلى ما يدور فنهضتا والتفتتا إلى الجمع الذى رافق الرجلين، ورفع عبد العاطى يده عن كتفى الأستاذ وقال فى هدوء ينذر بالخطر:

- هنا يمكن أن نصفى الخلاف، قل لى ما يغضبك وأنا سأمنعه

واندفع الأستاذ محمد الهيشة خارجا وهو يقول:

- جعلت الشارع حظيرة ونافذتى الحجرتين مزودا وتقول ما الذى يغضبك، لم يبق إلا أن تضع التبن فى الحجرتين لتمد مهرتاك رأسيهما عبر الحديد وتأكله

وبرغم أن ما قال أضحك عددا من الحضور تودد إليه عبد العاطى:

- أنا ضيف عليكما يا أستاذ، وإكرام الضيف ثلاثة أيام، فإن طلع صبح اليوم الرابع ووجدت العربة والمهرتين هنا سآخذ أغراضى وأرحل، أيرضيك هذا؟

استحسن المتحلقون من أهل الشارع ما قال وهزوا رؤوسهم، لكن الأستاذ عبد المطلب الذى كان يشعر بالإهانة احتد قائلا:

- لا يرضينا إلا أن تأخذ كل شىء من هنا، الآن

وفكر عبد العاطى فى أن يضع يده حول كتفيه من جديد، لكنه تراجع، فإذا تمرد الأستاذ على فعله أو أبعد يده بصورة غير لائقة ستكون مشاجرة، نظر إلى أهل الشارع مظهرا رغبته فى السلام وقلة حيلته ثم قال:

- أستسمحكم يا أهل الشارع، لو أن أحدا لديه متسع فى حظيرته فليستضف المهرتين الليلة، الليلة فقط

نادى رجل واقف عند ركن داره على أحدهم ليجلب المهرتين إلى حظيرته، وبإشارة خفية من عبد العاطى حلت برسكال المهرتين وتوجهت بهما إلى هناك، وقال عبد العاطى مخاطبا الأستاذ محمد الهيشة:

- ها قد ذهبت المهرتان يا أستاذ فهل من شىء آخر؟

ولما لم يجبه أى منهما دخل الدار وتركهما واقفين أمام الباب، ظلا واقفين برهة ولما انصرف الناس انكفأ كل إلى حجرته.

فى الشارع انقسم الناس قسمين، أغلبية ترى أن عبد العاطى تصرف بحكمة ووضع حدا لخلاف كان يمكن أن يتطور إلى مشاجرة، وأقلية تقول إنه عندما وضع رأس الأستاذ عبد المطلب تحت إبطه كان يتعمد إهانته، وليس مقبولا أن يهين عربجى الرجل الذى يعلم أبناءهم، وقال عوض:

- ربكم والحق الرجل أخرجنى من مزنق لا أعرف كيف كنت سأخرج منه

فى الليلة الأولى ظل عبد العاطى مستيقظا إلى ما قبل الفجر، شىء ما غير مجرد الخلاف الذى حدث كان ينغص عليه وحدته، ففى الريدانية استغلوا انقطاعه عن أهله وهزموه، وشعر بالهزيمة أكثر لما وقفت عزيزة فى وجهه ومنعته من الخروج بنبوته ليقاتلهم، ساعتها شعر بأن قوته زيف، ونبوته زيف، وأن القوة الأكيدة والنبوت الحقيقى هى العزوة، وهو بلا عزوة، بددتها المطامع والنفوس المجرمة، وها هم فى طنبارة يريدون أن تبدأ علاقته بهم بهزيمة، وإذا كان قد تمكن من تفويت الفرصة عليهم إلا أنه يشعر بالإهانة، وأصاخ السمع لأنفاس ابنته فأيقن أنها مستيقظة: "ياللك من بائسة أيتها البنت الصغيرة"،كان قد أمسك بنظراتها والأستاذ عبد

المطلب يصيح فى وجه عوض فرأى رعبها الصغير يطفو فوق زرقة عينيها، ومن أجل تلك النظرة بالذات فعل ما فعل، حتى يعود إلى عينيها المرعوبتين أمانها.

يا لها من حجرة، ما أشبهها بحجرة التبن القديمة، خنقتها ودمس ظلامها وشعوره الرهيب بالإهانة، لكن كل هذا يجب أن يتراجع للوراء، فالصورة التى يريد للجميع أن يراها فى القرية الجديدة هى صورة الرجل القوى المسالم،لا يفرط ولا يعتدى، وشعر بشىء من الرضا عما فعله، قال إنها مقدمة معقولة، وفجأة تذكر المهرتين فاعتدل على ظهره وسأل:

- هل ربطتهما بنفسك؟

وفاجأته الإجابة:

- عقدة وشنيطة يا أبى، ووضعت أمامهما العلف

ورأى أن يتأكد أكثر فسأل:

- وسقيتهما؟

- شربا حتى انتفخت بطناهما

وحتى تضع حدا لأسئلته أردفت:

- وهما مع بهائم الرجل فى الزريبة، وهو ينام بنفسه عند بابها

كانت قبل أن يفاجئها بأسئلته تعيش مع أمها فى مكان بعيد، ولما تحدث إليها وأدركت أن ما تراه ليس إلا خيالا حنقت بشدة، لو أن أمها لم تمت لما نامت فى هذا المكان الموحش، صحيح أنها تنام وبينها وبين عزيزة عشرات القرى لكنها تشعر بالغربة، وقلبها لم يتعاف بعد من منظر أبيها وهو يتقدم فى اتجاه الرجلين، كان وحيدا، وتمنت ساعتها لو أنشبت أظافرها فى رقبة الأستاذ عبد المطلب الذى كان يهينهما على الملأ، وعندما رأت أباها يجره ويعود به خشيت أن يفلت غضبه فأسرعت تتضرع إليه بعينيها، لم تخف فى حياتها مثلما خافت اليوم، ولم تشعر بضعفها مثلما شعرت، ولولا

الرجل الذى استضاف المهرتين فى حظيرته لوقعوا فى مشكلة كبيرة، وعندما تمعنت فى صوت أبيها أدركت أنها ليست وحيدة فى الدنيا، ولا فى الحجرة التى ينفذ الليل والنباح من فوالق جدرانها.

فى الصباح مازحه الأستاذ ميشيل:

- أنتما والمهرتان اليوم فى أحسن حال

ابتسم عبد العاطى ساخرا:

- بداية القصيدة كانت كفرا يا مقدس

انزعج الأستاذ ميشيل، لكنه لما سمع الحكاية ضحك، وحتى يضع حدا لقلقه قال:

- أهل طنبارة طيبون، إذا جبت القطر من أقصاه إلى أقصاه لن تجد من هم أكثر منهم طيبة، وإذا كان على مبيت العربة والمهرتين فعليك بالعمدة، ستجد فى دواره متسعا

- وحتى يحدث هذا أين سأتركهم؟

وكان السؤال متشككا فأجابه الأستاذ ميشيل:

- اليوم نسلمه حصة العلف، خذها إلى هناك وحدثه فى الأمر

ولما رأى التردد فى عينى عبد العاطى قال:

- إن أردت أن أحدثه فلك ما تريد، فقط نفذ ما سأقوله لك بالحرف الواحد

شقت العربة شوارع طنبارة حاملة على حصة الأعلاف، وعلى العريش جلس عبد العاطى والأستاذ ميشيل، وصعدت برسكال فوق الأجولة، وراحت تدق نظراتها فى وجوه الأطفال الذين يتبعونهم، وتوقفوا أمام دار العمدة، فى الشرفة يقف رجل مهيب فقال الأستاذ ميشيل:

- إنه العمدة، الشيخ عبد المغنى سليمان

بعد أن ألقيا عليه تحية الصباح همس لعبد العاطى:

- لست فى حاجة لأن أعيد عليك ما يجب فعله

عندما فتح العمال باب الجرن الكبير هبطوا إلى الأرض، وأسرع عبد العاطى يسلم على العمدة فمد الرجل إليه يده، وما أن تلقاها عبد العاطى حتى انحنى يقبلها، واستحسن الرجل ما فعل فسأله عن اسمه ومن أين هو، وسأله عن الطفلة التى تمسك بالمهرتين، وأشار إلى عماله لينزلوا الحمولة فى مخزن العلف فسحبت برسكال المهرتين إلى هناك، وفى الشرفة جلس الأستاذ ميشيل مع العمدة يتحدثان.

الشيخ عبد المغنى كان حتى أنشئت نقطة البوليس فى طنبارة عام 1954 عمدة للقرية، وبإنشاء النقطة ألغيت العمودية، لكنه فى حديث الناس ظل محتفظا بلقبه القديم، فعائلته من أعرق وأكبر عائلات طنبارة، وحتى يعطى عبد العاطى انطباعا جيدا ساعد فى إنزال الأجولة وأشرف على رصها فى المخزن، ولما انتهى من عمله أعطى برسكال حبل المهرتين وتوجه إلى الشرفة يسأل إن كان ثمة شىء آخر، وطلب منه العمدة الصعود، نظف قدميه ومسح عرقه بطرف قميصه ثم صعد إلى هناك، ووقف أمامه متحرجا فقال العمدة:

- من الليلة هاتهم ليبيتوا فى الدوار

انحنى عبد العاطى يقبل يده فسلمها إليه وهو يسأل:

- هل جاءت معك زوجتك؟

أجابه وهو مطأطئ الرأس:

- لا يا سيدى، أنا وابنتى فقط

فأشارالعمدة إلى كبير عماله وقال:

- عبد العاطى وابنته سيكونا معكم من اليوم على الطعام يا جوادة

انحنى عبد العاطى ممتنا:

- خير ربنا كثير يا حضرة العمدة، وبرسكال شاطرة وتعرف كيف تعد لنا الطعام

نظر العمدة إلى الطفلة الواقفة فى عمق الدوار ثم قال متعجبا:

- هذه البنت؟

من أوسع الأبواب دلف عبد العاطى إلى مجتمع طنبارة، باب العمدة، وبرغم فصوص الأفيون التى يمد بها الأستاذ ميشيل بين الحين والحين ظل يشعر أن فى رقبته دينا كبيرا له، وفى آخر النهار عندما عاد هو وبرسكال بعد أن أودع المهرتين والعربة فى دوار العمدة أول مرة وجدا أمام باب الحجرة جوالا صغيرامن الأرز الأبيض ومثله من الدقيق، وقفة بها أرغفة خبز وإناء به قطع كبيرة من الجبن القريش، وقالت إحدى الجارات إن زوجة أحد عمال العمدة جاءت بها.

مرت أسابيع وهو لا يفلت فرصة يتقرب فيها من العمدة إلا واغتنمها، فكان فى مساء كل يوم يجلس قليلا مع جوادة ويقوم على شئون البهائم كما يقوم البيطار، ويعالج حوافرها وحوافر المطايا، وكان العمدة ينظر إلى كل ذلك فى سرور، فنظرته إلى الرجل لم تخيب، وذات مرة دعاه إلى الشرفة وسأله:

- أتعرف فى أنساب الخيل يا عبد العاطى؟

أجابه وهو يبتسم:

- الخيل هى حياتى كلها يا جنابك

نظر إليه العمدة ليستوثق من صدق حديثه ثم قال:

- أحفادى يريدون مهرة يركبونها عندما يجيئون فى العطلات، أنثى، يقول أصدقائى إن الأنثى أكثر هدوءا، وعرض على أحدهم واحدة، قال إنها أصيلة ومنسبة، خذ جوادة معك واذهبا لترياها

فى عصر اليوم التالى ارتدى جلبابه الصوفى القديم ولف عمامته فوق رأسه ووضع البلغة فى قدميه الكبيرتين ثم قاد العربة إلى مزرعة صديق كفيله عند أطراف المركز، ترك برسكال فى الدار وانطلق هو وجوادة، نظرت فى الحجرة فوجدت نفسها وحيدة، راحت تتفقد الفوالق فى الجدران وتصيخ السمع إلى جلبة الشارع،

وسمعت لغطا قريبا فخرجت إلى الصالة، ورأت أطفالا فى أيديهم كراسات وأقلام يملأونها، وسمعت صوت الأستاذ عبد المطلب قادما من حجرته يقول:

- راجعوا الواجب حتى أنتهى من تقليب الأرز

نظر الأطفال إلى الطفلة الطويلة ذات الشعر المنكوش التى تقف عند باب حجرتها تتفرس فى وجوههم وتتابع لغطهم، وبعد قليل خرج الأستاذ عبد المطلب حاملا سبورة صغيرة أسندها إلى حامل خشبى، ثم جلس فوق مقعد خشبى قديم فراح الأكفال يسلمونه الكراسات، وبينما هو منشغل بتصحيحها فاجأتهم برسكال بالقفز فوق رقابهم، واقتحمت حجرة الأستاذ وهى تصرخ:

- الأرز يشيط

عندما لحق بهاالأستاذ كانت قد خفضت النار تحت الإناء ثم رفعت الغطاء فتصاعد البخار وملأ الحجرة، ورآها تقلب الأرز بالملعقة الكبيرة، ولما وقف عند رأسها يتابع ما تفعل قالت وهى منصرفة لعملها:

- الحمد لله، لحقته فى آخر لحظة

ورفعت رأسها وقالت:

- عد إليهم أنت وأنا سأباشره حتى يتردد

غربت الشمس وأبوها غائب، وشعرت بالخوف فجلست فى ركن الصالة تنتظر قدومه، وشعر الأستاذ عبد المطلب بحالها فدعاها لدخول حجرته، ولما دخلت هالها ما ترى، لم تكن قد تنبهت لمحتوياتها عندما اقتحمتها لتنقذ الأرز من الشياط، فيها سرير حديدى وخزانة ملابس من درفتين، والجدران كلها مليئة بالكتب، مصفوفة على أرفف معلقة فوق أوتاد خشبية مثبتة فى الجدار، ورأت منضدة صغيرة يتخذها الأستاذ كمكتب وعليها رصات كثيرة من الكراسات، سألها:

- أنا لا أعرف اسمك
أجابته وهى لا تزال تدور مع الكتب:
- برسكال
- وماذا يعنى؟
رفعت كتفيها:
- لا أعرف
قال وهو يبتسم:
- ولا أنا
سألها من جديد:
- أتذهبين إلى المدرسة؟
هزت رأسها نافية فقال:
- أتريدين تعلم القراءة والكتابة؟
فتحت عينيها على آخر اتساعهما وأومأت بالإيجاب، مد يده إلى المنضدة وسحب كراسة، ومن كوب زجاجى فوقها استل قلم رصاص جديدا، ووضعه فى المبراة فخرج منها يلمع كسن المسمار، وأشار إليها لتقف إلى جواره:
- ليكن هذا هو درسنا الأول
راح يكتب إسمها فى أول صفحة: ب ر س ك ا ل، وفى الصفحة الثانية كتبه مشبكا، ووضع فوق الأسطر المتتابعة نقاطا صغيرة وطلب منها أن تكتب فوق كل منها مثلما كتب، ولما مد يده يسلمها الكراسة والقلم تسلمتهما وهى مسحورة، كأنها تعيش فى حلم.

* * *

عندما أعلن أن الشيخ منصور ملش عثر عليه فى الغيط ميتا انشغل جميع أهل الريدانية بالمصيبة، ودفنوه وأقاموا مأتمه دون أن يعرفوا سر موته، كانوا قد فحصوا جسده ولم يجدوا فيه إشارة إلى إصابة واحدة، تكبدوا المشاق ليغلقوا فمه الفاغر وعينيه المنطفأتين ولم يفلحوا، حتى وهم يغسلونه كان ينظر إليهم بعينيه الغائبتين ويكاد لسانه المنكمش يتحرك وهم يقلبونه، وأخيرا دفنوه على الحال الذى كان عليه، وظل عبد العاطى حابسا نفسه فى حجرة التبن ثلاثة أيام بلياليها، لا يتذوق طعاما ولا يخرج حتى لقضاء الحاجة، وظلت البهائم طوال أيام المأتم حبيسة الزرائب، وظن الجميع أنه حزين على موت عمه فتأثروا لحزنه، ولما أخرجوه فى اليوم الرابع ظل تائها يومين آخرين ثم فر إلى دار أمه.

بكى فى حضنها ولم يفض بسره، وبعد أن مكث لديها أياما هدأت سورة حزنه وعزم على ألا يعود إلى دار أعمامه مهما كان الثمن، فهو لن يقدر على النظر فى وجوههم. كان يفر من جريمته ومن جلاديه، إذا تركته أمه لنفسه يظل بالساعات غارقا فى أفكاره، لا يصدق أنه ارتكب تلك الجريمة البشعة، قتل عمه الذى كان أبوه - على ما أخبرته أمه بنفسها- يقبل يده ويعده فى مقام أبيه، وإذا حاولت تطويعه ليعود إلى إليهم حتى لا يهضموا حقه ينتفض رافضا، ويصل فى كل مرة إلى حد التشنج والخلط، وبكت المسكينة فى عبها، قالت إن روحا شريرة مست ابنها؟ وإنها لن يهدأ حتى تفقده عقله.

قدمه زوج أمه إلى رجل من أثرياء القرية ليعمل فى زرائبه، ونتيجة لمسعاه استدعى الرجل عميه وطلب منهما فرز حق الصبى وأمه، وفاجأه العمان بعقود مكتوبة بأسمائهم، قالا إن أباه كان رضيعا عندما اشترى ثلاثتهم الأرض والفضاء الذى أقاموا فوقه

الدار، لم يرثوا عن أبيهم شيئا ليكون له حق يفرزونه، ثم تعللا بصغر سنه، فحتى إذا أعطوه شيئا على سبيل الهبة سيكون فى الحقيقة تحت يد أمه وزوجها، ورأى الرجل فى قولهما وجاهة فكف عن السعى وراء الحق المسلوب، ولم يقف العمان عند ذلك الحد، قالا لمن تدخل من أهل القرية ممن لجأت إليهم أمه إن الفضيحة التى نسجتها أرملة أخيهم وضعت رؤوسهم فى الوحل، فكيف يعمل ابنهم كلافا فى حظائر أحد؟ أى أحد؟ وسخرت الأم من قولهما، فابنها الذى لم يجتمع معهم على صينية العشاء مرة لم يعش إلا فى الزرائب، وعلى مدار عشر سنوات وأكثر لم يصاحب إلا البهائم، لم يرسلوا به إلى الكتاب ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ شيئا من القرآن كما فعلوا مع أبنائهم، ولم يجدوا فى دارهم مكانا لينام فيه إلا فى غرفة التبن مع جبريل، فهل كان فيما يفعلون سوى كلاف؟

مع الوقت تراجعت العروض التى كان البعض ينقلها عنهم، ولم يعرف عبد العاطى أبدا ما إذا كانت حقيقية أم مجرد كلام فى الهواء، وكلما سمعت أمه بعرض كانت تذهب إليه وتطلب منه أن يقبل، لكنه لم يتراجع:

- إما حقى وحقك كاملا وإما لا

ثم انقطعت العروض تماما، لم يعد يصله شىء، حتى عرضهم بأن يعطوه قيراطا يبنى فوقه دارا اختفى، وكان منذ تركهم لا يفقد كل أمل فى أن يسعوا لضمه إليهم من جديد، فالدم ليس ماءً وهو ابن أخيهم، وجاء فقدان تلك البارقة قاسيا، فحتى الأمير أبو زيد الذى أنكره أبوه وأعمامه عاد إلى قبيلته، عاد بعد أن استصرخوا بنوته ليدافع عنهم، قديما كان يبكى معه والخضرة تهيم به فى القفار، وكان يراه هو، ويرى الظلام يمتد إلى ما لا نهاية، والنجوم عيونا لا يؤمن غدرها، هذه المرة رأى النجوم تحدق فيه، لم يفهم أبدا كيف أدرك أنها تقطع لديه كل أمل، وأدرك أن بنى هلال ربما لم يستصرخوا

"أبو" زيد أبدا، ولم ينظموا الشعر في بطولته، وهو محض خيال، أو هو الحلم الذى لا يتحقق.

حتى بنات أعمامه اللائى كن ينتحلن الأعذار ليسلمن عليه من بعيد لم يعد يراهن، انقطع آخر خيط بينهم، وكان فى ظلام الحجرة الصغيرة التى أعطاها له سيده فى إحدى دور وسيته ينشطر، شطر يعانى الانقطاع والألم، وشطر يدرك أنه لا يستحق شيئا، فهل يثاب المجرم على ما فعل؟ لقد قتل عمه وهذا جزاؤه.

لاحظ جاره الشيخ إبراهيم الدرباك عبوسه الدائم فاقترب منه وسأله، وفتح للرجل قلبه، قال إنه لم يعد يطيق البقاء فى الريدانية، وأصابت الدهشة الشيخ إبراهيم فقال:

- تترك الريدانية والملشات نصف أهلها؟

فأجابه والأم يعتصر قلبه:

- أفضل من أن أقتل أحدا من أعمامى أو يقتلونى يا شيخ إبراهيم

قبل أن يتمكن الرجل من الحديث أردف:

- الملشات أكلوا حقى، فدان وربع الفدان، وربع دار يرمح فيها الخيل، غير الماشية والمطايا

مال عليه الشيخ ناصحا:

- أخذ الحق حرفة يا عبد العاطى، وطالما أشركتنى فى همك دعنى أفكر معك

تهكم عبد العاطى على طريقته:

- بركاتك يا عم جبريل

تجاهل الشيخ ما قال:

- جرب ولن نخسر شيئا

بعد طول صمت أجابه عبد العاطى فى يأس:

- جربت كل شيء، لم يعد إلا الشجار

وأمعن النظر فى وجه الشيخ إبراهيم وقال:

- أخوتى من أمى صغار، وأخوالى يديرون ظهورهم، أنا وحيد يا شيخ إبراهيم

وضع الشيخ كفه فوق كتفه وقال متوددا:

- فى كل هذا أنت لم تجرب إلا حرفة واحدة، لماذا لا نجرب غيرها؟

نظر إليه مستفسرا فأردف:

- دار أعمامك مليئة بالبنات، أطلب إحداهن للزواج

ابتسم عبد العاطى فى مرارة:

- أتظن أن هذا ينطلى عليهم؟

أسرع الشيخ يجيبه:

- لم لا؟ جرب أولا ثم نرى

وحتى يزين له الأمر قال:

- سنضرب عصفورين بحجر واحد، تتزوج ابنة عمك وتحصل على حقك، أو جزء منه

نكس عبد العاطى رأسه، "حتى هذا الأمل كاذب يا شيخ إبراهيم، كصياح الديكة للفجر الكاذب"، وهو لا يعرف إن كان سيقدر على الزواج من واحدة من بنات أعمامه أم لا، فلقد قتل أباها أو عمها الأكبر فكيف سيضع عينيه فى عينيها؟ وكيف سيكون رجلها وهو قاتل أبيها؟ ثم قال كأنه يحدث نفسه:

- لا أستطيع يا شيخ إبراهيم، لا أستطيع وكفى

لم تمر أسابيع حتى سقطت أمه مريضة، وجاء أحد أخوته ليبلغه فذهب ليطمئن عليها، كانت شاحبة ومنطفئة العينين، ولما رأته هبت من رقدتها وأخذته فى حضنها، ولسعته نارها، وبعد أن هدأت طلبت من الجميع أن يتركوهما معا، اطمأنت إلى خلو الحجرة إلا منهما فقالت:

- بحر من الكلام يملأ صدرى يا عبد العاطى، أريد أن أفرغه كله

ابتسم في حزن وهو يطلب أن تؤجل الحديث إلى ما بعد قيامها من المرض، لكنها أصرت، قالت إنها لن تترك نفسها للغرق، ثم اتكأت على مرفقيها حتى جلست مستندة إلى نافذة السرير وقالت:

- أريدك أن تعرف أننى لم أتزوج لأننى لا سمح الله كنت راغبة فى الرجال، أبدا أبدا، وربى الذى بيده شفائى ومصيرى لم أفعل، بعد أبيك لا يملأ رجل عينى، لكننى كنت منبوذة ومهانة، فى دار أعمامك كنت منبوذة ومهانة، ولما أخذتك إلى دار أخوتى صرنا نحن الإثنان منبوذين، ومهانين، وتصورت أنك ستكون معى فى دار زوجى، اشترطت على غفرة ذلك، اقتحمت مجلسهم وهو يطلبنى من أخوتى وقلت:"أوافق بشرط أن يكون ابنى معى"

أخذت شهيقا عسيرا ثم صرخت تنادى زوجها، وتكالب الجميع عليها وغفرة بينهم فسألته:

- برحمة أبويك ماذا كان شرطى لأقبل بالزواج منك؟

تضرعت إليه ليجيب، نظر إليها غفرة مذعورا ثم قال:

- أن يعيش عبد العاطى معنا، وأنا قبلت

إرتعش صوتها وهى تشير إليه:

- قل له، إنه لا يصدقنى

وأجهشت بالبكاء.

كان لا يحب أن يبكى فى حضور أحد، لكن الدموع فى ذلك اليوم غلبته، هجمت عليه مع جيوش الحزن فأجهش وهو يقبل رأسها:

- لا تتهمينى بما لم أقله يا آمنة، أنا أصدق كل حرف مما تقولين

تلك كانت أول مرة يناديها باسمها مجردا، كأنه رجلها، ووقع النداء فى أذنيها مبهجا فابتسمت، وبعد قليل أعطتهم ظهرها ونامت، وخرج الجميع سواه، وعندما هم بالانصراف فاجأته بالسؤال:

- لا زلت هنا يا عبد العاطى؟

مد يده وربت على كتفها، دفنت وجهها بين يديها وقالت:

- قالوا اتركيه الليلة وفى مساء الغد سنأتيك به، وانتظرت مجيئك فإذا بالريدانية كلها تعرف أن أعمامك أخذوك وأنا الوحيدة التى لا تعرف

صمتت طويلا ثم قالت:

- كان على عينى يا بنى، كان على عينى

ومدت يدها أسفل الوسادة وأخرجت لفة مطوية وقالت:

- هذا أجرك حتى آخر شهر، ادخرته لك، هذا كل ما استطعت فعله لك يا نن عينى

لم يشأ أن تظل يدها ممدودة فأخذ اللفة، وظل واقفا حتى انتظمت أنفاسها بين كفيها فانسل خارجا.

لم يبتعد كثيرا، سمع صرخة جمدت أوصاله فاندلق فى صدره شيء ساخن، كأن قلبه يفرغ دمه، عاد إلى دار أمه فوجدها فارقت، أعطت ظهرها للدنيا ودفنت وجهها بين كفيها الميتين ورحلت.

دفنوها فى قبور أهل زوجها، وأقاموا المأتم فى جرن سيده، وتفقد أهله بين المعزين فلم ير أحد منهم، وانفض المأتم دون أن يأتوا، قبل أخوته وصافح زوج أمه ثم خرج باحثا عن ملامح أمه فى ظلام الطريق، جلس عند جزع شجرة ونظر فى سواد ماء الترعة، ليته كان سمكة من تلك السمكات التى تلهو فى الظلام، بل ليت أمه أخذته معها إلى حيث مضت، كان ينظر إلى القرية التى لا يأتيه منها إلا النباح والحزن، ومرت فى ظلمة السماء سقساقة، أجهشت بصوت ملتاع فقال لنفسه: "لم يعد لك فى هذه الدنيا أحد يا عبد العاطى، لا أب ولا أم، لا أخ ولا أخت، ولا أهل، صرت فى الدنيا وحدك".

بعد منتصف الليل عاد إلى حجرته، ورأى دور الوسية تتساند إلى بعضها وتغط فى النوم، حتى الدور الصغيرة كانت تبحث عن العزوة، وسمع شخير زوجة الشيخ إبراهيم فآنسه، فهناك على بعد خطوات يوجد أحدهم، حتى لو كان زوجة جاره سليطة اللسان،

وجلس عند باب الدار واضعا رأسه بين ركبتيه، وشعر بلفة النقود فى جيبه، كأن ملمس أمه فوقها كائنا حيا: "آه يا عم جبريل لو أنك علمتنى كيف يكون الحزن، آه لو أنك حدثتنى عما أجهله، وأنا أنام إلى جوارك كنت أقول إن الدنيا ليست فيها قساوة أبلغ مما أرى، الآن عرفت لماذا كنت تضحك وأنا أقول هذا، نعم، الدنيا فيها قساوات أبلغ من كل ما رأيت، وأقسى ما فيها ألا يكون لك فى الدنيا أحد". خشى أن يدخل الحجرة والدنيا ليست فيها أمه، وطلع عليه الصبح وهو دافن رأسه بين ركبتيه أمام الباب، ورآه الشيخ إبراهيم فأيقظه، وصحبه معه إلى المسجد فانطاع له.

الشيخ إبراهيم الدرباك ليس ريدانى الأصل، جاء من بلده البعيد ليعمل فى الوسية قبل أن يولد عبد العاطى، وكان أعزبا فتزوج من إحدى فتيات الغيطان، ولم يرزق منها إلا ببنت واحدة، إسمها عزيزة، كانت فى عمره تقريبا، ولما مرض بركبتيه رتب له الناس أجرا نظير قيامه بملء خزان الجامع وأعطوه لقب الشيخ، وأشفق عليه سيده فتركه فى دار الوسية على سبيل التسامح، زوجته كانت شرسة بما يكفى لأن تشب عزيزة على طبعها، ولهذا وصلت إلى سن العشرين دون أن يتقدم أحد لخطبتها، وعندما سمعته زوجته وهو ينصحه بالزواج من إحدى بنات أعمامه انتظرت حتى انصرف عبد العاطى وانفجرت فيه:

- يا اخويا مثل القرع تمد لبره، بدلا من أن تنصحه بالزواج من ابنتك تنصحه بالزواج من دار أعمامه، الذين أكلوا حقه وأمرضوا أمه فماتت ولم يحضروا عزاءها

ثم صرخت:

- ألا ترى ابنتك وقد صار بزها مثل فحل الرمان وفلايطها تسد الباب؟

استعاذ الشيخ إبراهيم من الشيطان ثم قال:

- أأعرض عليه ابنتى يا امرأة؟ ماذا يقول عنى؟
صاحت:
- وما له يا اخويا؟ وما له يا "أبو" خيبة ثقيلة؟ إخطب لابنتك ولا تخطب لابنك
جاهد ليكظم غيظه ثم قال:
- هذا ليس عمل الرجال يا سليطة اللسان
كان عبد العاطى يفكر جديا فى البحث عن عمل يكون فيه سيد نفسه، فلقد ظل سنوات يراوح مكانه فى زرائب سيده، وكان يعرف أنه إذا ترك العمل لديه سيخلى الحجرة التى يعيش فيها، لهذا بادر بشراء دار، بمعاونة الشيخ إبراهيم وزوجته وابنتهما اشترى دارا قريبة من دور الوسية، وبناء على نصيحة عزيزة وأمها لم ينقل إليها سرير أمه القديم وخزانة ملابسها - وكانا كل ما حصل عليه من دار أعمامه - إلا بعد أن دهكت هى وأمها الجدران والأرضية بالطين المعجون بالتبن، ولما جفت زلطتها عزيزة، وجلبت الطمى وطلت به الجدران فصارت منبسطة كراحة اليد.
كان ينقل البرسيم إلى حظائر سيده فوق عربة كارو ففكر فى شراء واحدة، ناقش الأمر مع الشيخ إبراهيم فأقر فكرته، وقالت عزيزة إنها أجمل فكرة، وبعد استئذان سيده اشترى عربة قديمة وحصانا عجوزا وترك العمل والحجرة معا، وصار ينقل للناس على عربته الصغيرة أشياءهم، ولما أصبح مطلوبا فى الريدانية وغيرها من القرى المحيطة باع العربة القديمة والحصان العجوز واشترى أخرى بأربع عجلات ومهرتين شابتين، ومع الوقت تعلم الحديث إلى المهرتين كل ليلة وهو ينفث فى خرطوميهما دخان سجائره.
الأحلام الصعبة بدأت تهاجمه، يرى عمه يغرق فيهم لنجدته، وإذا بأعضائه كلها مشلولة، وصدره يطبق على رئتيه، ويرى جملا يغرس أنيابه فى رقبته، أو كلبا يقطر اللعاب من أنيابه وهو ينهشه،

أو ثعبانا يفح فى وجهه ولمعة السم تبرق من فمه، يحاول الفرار فلا يستطيع، وفى مرات كثيرة كان يرى أنه يهوى فى فراغ سحيق وقلبه يصعد إلى حلقه، ويخرج من النوم كأنه خارج من ظلمة القبر، فى كل مرة يقول لنفسه إن عمه كان فى الحقيقة يقتله، لكنه بعد قليل من الصمت يقول مستسلما: "إلا القتل يا عبد العاطى، وأنت قتلت".

تزوج من عزيزة بعد حصار دام شهورا، فالمرأة وابنتها لم تتركاه لحاله لحظة واحدة، كانتا تنظفان الدار كل يوم وتطهيان له الطعام، والفتاة لا تكف عن الوقوف فى طريقه كلما جاء أو ذهب، ومن أول ليلة اشترط عليها أن تكون أمورهما لهما وحدهما، لا تتدخل أمها فيها، كان قاسيا وهو يقول:

- أنا لست الشيخ ابراهيم الدرباك، أنا عبد العاطى ابن السيد ملش

خشيت المرأة أن تفشل زواج ابنتها فالتزمت شرطه، ووصل ما قال إلى الشيخ إبراهيم، وبرغم تظاهره بالتسامح ظل فى قرارة نفسه على شيء من الغضب .

كان عبد العاطى لا يجد السلوى إلا فى التدخين، والحديث إلى المهرتين وهو ينفث الدخان فى أنفيهما، والنوم مع عزيزة، بعد فترة شعر بأنه سيد نفسه فراح يتتبع الموالد، ويذهب وراء منشدى سيرة بنى هلال إلى أى مكان، كان واقعا حتى شوشته فى أسر سيرتهم الجميلة، ويتمنى أن لو سكن أبطالها أحلامه، بدلا من الكوابيس التى يخفيها عن زوجته، على طول الطريق لم يكن يرى سوى الخضرة الشريفة وهى تجوب صحارى نجد حاملة رضيعها المنبوذ، وعندما يتخيل نفسه "أبو" زيد، ويعيش غزواته ومعاركه تدمع عيناه، أعمامه لم يستردوه كما استرد بنى هلال سليلهم، ولما أنجب من عزيزة أطلق على أبنائه منها أسماء أبطالها يونس ومرعى ويحيى، لم يرحل الشيخ إبراهيم إلا بعد أن رأى ثلاثتهم، يصطحبهم وهو

ذاهب إلى الجامع ليملأ الخزان ثم وهو عائد منه، ومات وهو يضمهم إليه كما تضم الأم أبناءها.

* * *

وقع فى حب مقهى النبوى منذ جلس فى شرفتها الصغيرة أول مرة، ورأى طنبارة كلها تمر من أمامه، والوجوه التى أجهدها النهار وهى تجد فى البحث عما تفعله قبل هبوط الليل، ليست مقهى بالمعنى المعروف، فقط محل صغير لا تتجاوز مساحته مترين فى ثلاثة يطل على شرفة صغيرة تفتح عليها محلات أخرى، حصتها فى الشرفة تكفى بالكاد لبضعة مقاعد ومنضدتين صغيرتين، لا يصنع فيها إلا المشروبات الساخنة، يقدمها النبوى للذين ينتظرون أتوبيس شرق الدلتا القادم من المنصورة إلى كفر صقر وبالعكس، أو لمن ينتهون من أعمالهم بعد العصر ويجيئون ليجلسوا ساعة أو بعض ساعة، لا تقدم الجوزة ولا ألعاب التسلية، وفى الليل تغلق بابها الصغير ولا تعود لتفتحه إلا قبل شروق الشمس، موعد مرور أول أتوبيس، بعد إيداع المهرتين والعربة فى دوار العمدة يقصد إليها كل يوم، يجلس ساعة يشرب الشاى وينظر إلى الرائحين والغادين، ويمضع سنة أفيون ليهدئ آلام عظامه من أثر القلقلة طوال اليوم فوق عوائق الطريق.

وهو جالس فى المقهى ذات مرة سرح بفكره، فها هو بعد أسابيع من وجوده فى طنبارة يشعر بحنين جارف للريدانية، ولعزيزة التى اعتاد أن يدفن فى حضنها الغنى خوفه وهزائمه، حتى سره الكبير كان وهو ينام فى حضنها يتوارى، جنت عندما تزوج عليها غاية المنى، لكنها لم تحرمه مرة من رحابة حضنها، يا للنساء عندما يقعن فى الحب، وعزيزة التى تقوم من أجله بكل ما تفعل لا بد أن تكون واقعة فى الحب، غاية المنى كانت هى الأخرى واقعة فى حبه، لكنها كانت تبذل نفسها له لتأخذ حاجتها، وبعد انفضاض اشتباكهما تنطرح على ظهرها عارية كما ولدتها أمها، ومع اللهاث تطارد بروق الرغبة وهى تفر من فرجات الأبواب والنوافذ المغلقة، واحدا بعد

الآخر، عزيزة تعامله كما تعامل الأم طفلها، وتمنحه نفسها كما تمنح العاشقة عشيقها، من أول النظرة التى تخترق حجب عينيه لتعرف مبلغ رغبته فيها، وانتهاءً برعشة فوران بحيرتهما المضطربة، وتظل طوال الوقت تطارد نظراته كأنها تسأله: "هل ارتويت؟"، وعندما ينهرها لتكف عن النظر فيه تقول إنها تحب النظر إليه، ولا تعرف السعادة إلا فى سعادته.

والنبوى يجهز له كوب الشاى المعهود - غاص فى داخله المضطرب، واعترف أن أحد أسباب حزنه شعوره بأنه كان مقصرا فى حق حميه الراحل، وبرغم تقديره له إلا أنه لم يبح له أبدا بهذا التقدير، ربما إذا باح له كان الرجل سيرحل دون تلك اللوعة التى جمدت ملامحه عند تعبير حزين، جبريل رحل وكان لا يزال صغيرا، لم يشغله أبدا أنه لم يعلنه بحبه، أما حموه فقد رحل وهو فى الثلاثين وله من ابنته ثلاثة أبناء، حتى حماته التى أدرك من أول يوم أنها حكيمة تتخفى خلف سلاطة اللسان هو لم يقدرها، أعماه سره الشقى وفتوته،وشغله حبه المجنون لغاية المنى، ما كان يمكن أن يتحمل هزائمه بدونهما، الرجل الطيب والسيدة الحكيمة، ولو أن حماته لم تكن شرسة لما أمكنها أن تسوس زوجا مثل الشيخ إبراهيم، فلم يكن يملك روحا تكفى لأن يذهب بطموحه إلى أبعد مما تقدر عليه ركبتاه، وبعد أن رحل الشيخ كانت حماته واقفة خلف ظهره، وما من مرة اختلف مع عزيزة إلا ووقفت فى صفه، حتى وهو مخطئ، ولولاها لما مر زواجه من غاية المنى بالطريقة التى مر بها، وعندما رحلت بعد الشيخ إبراهيم بشهور أدرك أنه فوت على نفسه أيضا فرصة إعلانها بامتنانه.

بعد رحيل الحموين ضغطت الهزيمة عليه حتى صارت الحياة قسمة ظالمة، واليوم بعد مرور أيام على وجوده فى طنبارة بإمكانه النظر فى وجه هزيمته دون خوف، حتى مصيبته القديمة يراها

كحادث بعيد يمكن بقليل من التبرير التعايش معه، واقترب منه النبوى، ونظر إليه مبتسما ثم قال:

- هون عليك يا سيد الأسطوات، طنبارة لا تقسو على غريب

كما اهتدى أبوها إلى مقهى النبوى اهتدت برسكال إلى جرن المناديلى، وإلى دار السعيد الريس، بعد عودتها من العمل مع أبيها تجلس أمام الدار لتكتب الواجب فى كراستها، تعلمت أن تكتب اسمها كاملا:

برسكال عبد العاطى ملش

طنبارة مركز المنصورة مديرية الدقهلية

الجمهورية العربية المتحدة

ثم تكنس الدار بحبق البحر وتغسل الأوانى وترتب فرشة أبيها وسريرى الأستاذين عبد المطلب ومحمد الهيشة، وتعيد الكتب والكراسات إلى مواضعها، ثم تلحق برفاقها فى الجرن القريب، أو تجلس فى دار السعيدالريس وترى كيف يصنعون القفف والمقاطف والبرانيط من الخوص، وكيف يصنعون من الأفرع الجافة أياد للفئوس والكواريك والعواويق والمناجل وشظايا صغيرة لزراعة البقول، وقد تمد يدها للمساعدة.

فى جنبات الجرن لا تخطئها العين، فهى من بينهم الطويلة منكوشة الشعر التى ينتفخ جيباها بأشياء كثيرة، إذا لعبوا الأولى تقف فى مربع البداية على قدم واحدة وتظل تقفز من مربع لآخر حتى تفوز، وتمسك بالآل فتضم الأحجار الصغيرة بين كفيها وتقربها من فمها وتنفخ فيها وهى تهمس بكلمات غامضة، ثم تلقيها فى الهواء وتلقفها كلها قبل أن تسقط على الأرض، وفى الطاب تقرب فمها من أنصاف الجريد وتهمس، ولا تكون رمياتها إلا ولدا أو أم اثنتى عشرة، فى الجرى تطوى ساقاها الطويلتان المسافات بسرعة وتسبقهم، وإذا نزلوا الترعة تضرب الماء بذراعيها القويتين فلا

يقدرون على مجاراتها فى العوم، وفى الغطس يختنقون بعد ثوان ويخرجون رؤوسهم ليلتمسوا الهواء فيما هى تظل قابعة فى قعر الترعة حتى يخرجوها، ويمشون على الجسور فإذا اعترضهم مصرف أو قناة تقفز كجرادة وتهبط بسلام فوق الجسر الآخر، أما إذا تشاجروا فهى المنتصرة، ما من أحد منهم لا تدمى فمه، أو تعقره فى ذراعه أو كتفه، أو حتى فى مؤخرته، ذات مرة رأت الأولاد يتسابقون فى إسقاط بولهم بعيدا فمدت إصبعها بين رجليها ودفعت بخصرها للأمام وسابقتهم، واندفع بولها فسقط أبعد مما فعلوا.

تغيب الشمس ولا يكونوا قد شبعوا من اللعب فيجلسون إليها عند فم الجرن أو فى أحد الأركان وتحكى لهم عن كائنات أرجلها ذات شعر كثيف وحوافرها مشقوقة كأرجل الماعز، ويأخذهم الخوف فيخشون على ظهورهم المكشوفة، وعندما تحكى عن الأمير "أبو" زيد ينسون ظهورهم وتسكن حركتهم حتى لا تفوتهم كلمة، وفى الليالى المقمرة يمتد بهم الوقت فيتسابقون، من يكون "أبو" زيد ومن يكون الزناتى ودياب ابن غانم ويونس ومرعى ويحيى ورزق وشبان، ومن تكون خضرة الشريفة وعالية والجازية والناعسة وعزيزة، ويحاربون بأيديهم الصغيرة، يمتشقون العصيان كأنها سيوف ويسددون الطعنات برماح صنعوها من أعواد الحطب، ويغيرون على الأعداء بخيول من الجريد، وإذا وقع الاختيار عليها لتكون "أبو" زيد تمتشق حسامها وتركب حصانها وتعمل فيهم أسلحتها حتى يخروا صرعى، فى أصائل الخمسان التى يتقاعس فيها أبوها عن العودة إلى الريدانية تقود الأطفال إلى الغيطان البعيدة ليقطفوا حبق البحر، ويجمعونه فى حزمات تأخذها إلى الدار وهى عائدة.

ذات أصيل قادتهم إلى غيط فى تل المشنوق، وفاجأهم صاحب الغيط فألقوا ما فى أيديهم وفروا، وظلت بمفردها تجمع ما ألقوا فسألها الرجل:

- ماذا تفعلون هنا يا بنت؟

أجابته:

- نجلب حبق البحر

عاد ليسألها:

- إبنة من أنت؟

قالت بثبات:

- الأسطى عبد العاطى

هز رأسه ثم سأل:

- وما اسمك؟

أجابته:

- برسكال

وقف الأطفال بعيدا يتعجبون من جرأتها، ولما سألوها بعد انصراف الرجل لم لم تفر معهم قالت:

- وما الذى فعلته لأفر؟

كانوا يحسدونها على العربة ذات الأربع عجلات والمهرتين، والكفين المعدنيتين اللتين تزينان جبهتيهما وتتدلى من أطراف أصابعهما قرون شطة صغيرة، ويتعجبون من الخرزة الزرقاء فى راحة كل منهما، وازداد تعجبهم لما قالت إن الخرزة الزرقاء تضلل الأعين الحاسدة، كانت تمر بهم فى أوقات عملها فتسمح لهم بالركوب، ومن موقعهم فوق مؤخرة العربة يدلدلون رؤوسهم وينظرون إلى الأرض وهى تنساب من تحتهم كما ينساب الماء، فيما المهرتان تخبان فوق الطريق كأنهما راقصتان.

أبوها كان يدهشهم، بجسده الهائل وساقيه القويتين ووجهه المشرب بحمرة داكنة، ومن وراء ظهرها تندروا على حاجبيه المنكوشين وأهدابه المعفرة وشاربه المشرع الطرفين، وعينيه اللتين لا تكفا عن التحديق فى الناس، كأنهم يشاهدون صندوق الدنيا.

فى وجودها كان عبد العاطى يبتسم لهم، وقد يمد يده ليعينهم على الركوب، وإذا لم تكن معه يعمل فيهم كرباجه، وتردعهم اللسعات فيكتفون بالنظر من بعيد، فهم يحبون هيأته، بقميصه الدمور الذى يصل إلى ما دون الركبتين وقبته التى تكشف عن رقبة قوية كجزع شجرة، وجيبى صديريته المنتفخين بأشياء غامضة، وسرواله الذى يصل إلى خانقى رجليه فيما تكته الصوفية تتأرجح بينهما، وبلغته الضخمة كقارب، وعمامته التى يلفها بطريقة لا تشبه ما يعرفه الناس، وعندما تكون الشمس قائظة يرونه وهو يخلع العمامة ويدسها فى جيب صديريته ثم يخرج منديله المحلاوى ويثنيه من طرفيه المتقابلين ويضعه فوق رأسه، ثم يجمع أطرافه الثلاثة فوق جبهته بعقدة صغيرة مدهشة.

ذات مرة قالوا إنه جنى، وعندما رأوا قدميه بأصابعهما العشرة وساقيه العاريتين ضحكوا من خوفهم، وبلغها ما قالوا فغضبت، وعزمت على ألا تسمح لهم بعد هذا بركوب العربة، وصارت تمربهم وتصعر خديها وتفرقع بالكرباج فوق آذان المهرتين.

لم يكن مر على سكناهما فى طنبارة سوى أشهر قليلة عندما رأى عبد العاطى فردوس لأول مرة، فى صباح أحد الأيام حين حملت عربته حصة العلف إلى حظائر العمدة طلب منه جواده أن يستبقى بعضها فوق العربة ليوصلها إلى دار المرحوم جودة القصاص، لم يكن قد سمع بهذا الاسم من قبل، ورافقه أحد العمال إلى هناك، ورآها تخطر فى مدحاية الدار الكبيرة وتتحدث إلى عامل العمدة فأصابه الذهول، من حسنها وشبابها وليونة أعطافها ونداوة صوتها،

وتساءل: "أيكون فى الدنيا جمال بهذا القدر؟"، وفى طريق العودة استدرج العامل وعرف منه الكثير، فأبوها إبن عم العمدة، وهى أرملة ولها من زوجها الراحل ولدان.

الأحوال فى الريدانية لم تكن على ما يرام، فى آخر خميس ألحت عزيزة أن يكف عن الذهاب إلى طنبارة وحده، فإذا كان ولا بد ذاهب فليأخذها معه هى وأولادها، وقالت بكل وضوح: "يا مآمنة للرجال يا مآمنة للماء فى الغربال"، وتطور النقاش إلى شجارتدخل أبناؤه لمنع تفاقمه، وهاج فأطاح بهم كلهم، ولما رآهم مطروحين على الأرض ترك الدار وخرج، كانت برسكال قد خرجت من الدار عندما تطور النقاش وجلست القرفصاء قريبا من الباب، ولما رأته يخرج ويجلس على جانب الباب قامت وجلست إلى جواره، قرفصت كما كان يفعل، وعندما دفن رأسه بين ركبتيه فعلت مثله، أدرك أنها تعلن انحيازها إليه دون تردد، وعندما مدت يدها ومسحت على ركبتيه فى حنان كاد يبكى، إن كان ما بقى من غاية المنى هو هذه البنت فهى تكفيه، وأشعل سيجارة وراح ينفث ما تبقى من غضبه فى دخانها.

فى طريق العودة إلى طنباره فجر السبت تجدد حنقه، على نفسه وعلى عزيزة وأبنائها، وعندما أوغل فى الطريق نظر إلى برسكال وقال:

- اسمعى يا بنت يا برسكال واحدة من حكايات عم جبريل القديمة

التصقت به وأرهفت أذنيها:

- كان هناك رجل يعمل سقاء، يدور طوال اليوم هو وطفله الصغير على بيوت القرية حاملا قربة الماء، وكلما فرغت يعود ليملأها من النهر ثم يدور بها من جديد، وينزل الليل وهو يدور فى الشوارع حتى يصل إلى آخر بيت، وينام هو وطفله تحت أول جدار يقابله، ظل على هذا الحال حتى كبر الولد وصار شابا فصنع له

قربة ليعاونه، حاجة الناس للماء كانت تزيد، واهتديا ذات مرة إلى دار مهجورة فصارا كلما دخل عليهما الليل يلجآن إليها وينامان تحت جدرانها، وفي إحدى الليالي جافى النوم عيني ابنه فراح يعبث بأظافره تحت الجدار، وإذا به يعثر على قطعة قماش، أيقظ أباه لينظر ماذا وجد، وتحت ستر الليل أكملا الحفر حتى عثرا على جرة، استخرجاها وفتحاها، كانت مملوءة بالذهب، وطلع الصبح فانتظر الناس مرورهما بالماء، لكنهما لم يظهرا، وانتصف النهار ولم يظهرا، وبحثوا عنهما فلم يعثروا لهما على أثر، كانا قد خرجا من القرية، وتعجب الولد من فعل أبيه وسأله: " لماذا لم نمكث في القرية؟ نبني قصرا فيه خدم وعبيد ونحقق كرامتنا فيها؟"، وأجابه الأب وهو يستحثه ليغذ السير: "لن تتحقق كرامتنا فيها يا بني إلا إذا مات كل من يعرفنا فيها".

نظرت الطفلة إليه ثم سألته:

- ألهذا رفضت أن تبقى في الريدانية؟

ربت على ظهرها بحنو ولم يجب فعادت لتسأله:

- هل تعرف عزيزة أنك عثرت على كنز؟

ابتسم في وجه النهار القادم وقال:

- وما يعنيني إن كانت تعرف أم لا؟ أنت كنزي وكفى

عندما رأى فردوس للمرة الثانية تفحصها بعين خبيرة، وأدرك كل أمارات حسنها، وجهها المكحول العينين وملامحها الحلوة، وجسدها الذي يميل إلى الطول في امتلاء جميل، يعرف أنها من الصغر وحتى تزوجت من المرحوم جودة لم تذهب للعمل في الغيطان كقريناتها، هكذا قال له عامل العمدة عندما استدرجه للحديث عنها، فقطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها أبوها تكفي لستر الأسرة، روحها لم تستنزف في الغيطان كما استنزفت أرواح غيرها، قال وهو يتمعن في حسنها بحذر إنه إذا كانت عزيزة هي نداء الماضي

وهزائمه، وهى الروح التى نزفت آخر قطرات الأمل، فإن فردوس هى الروح كاملة، لا يجرحها إلا رحيل زوجها وترملها، ولو شاء القدر وتزوجها ستكون الأرض التى يتجرد فيها من هزائمه ويزرع فيها عزوته الجديدة.

نام وهو يقلب الأمر فى دماغه، ثم تهكم من نفسه، كيف يفكر فى امرأة فى مقام الإبنة للعمدة ولى نعمته؟ فى الحواديت فقط تتزوج الأميرات الصعاليك، لكن الحواديت شىء والواقع شىء آخر، فإذا قبلت به وذهب إلى العمدة ليطلبها لن تحمل عربته بعدها جوالا واحدا من الشونة، وربما يطرده من طنبارة كلها، كانت برسكال تتظاهر بالنوم، ولما زفر زفرة هائلة هزته لتوقظه:

- أتحلم يا أبى؟

أجابها:

- كما تحلم الفروجة بسوق الخبز يا ابنتى

فى الزيارة الثالثة رأى الدار واتساعها، ورأى المدحاية تمتد إلى آخر النظر، والحظيرة مكتظة بالبهائم، ورأى ولديها سليمان وعبد الراضى، ضرب جبهته المعفرة بكفه وهى تخطر فى اتجاه الدار، كل شىء فيها رائع، حتى جدائلها التى تنساب فوق ظهرها كما الليل فوق سماء صافية، ثم فرك جبهته: "كف عن جنونك يا عبد العاطى، وإذا أردت أن تحلم فاختر حلما يناسبك".

نظرة من عينيها المكحولتين أيقظت كل أحلامه، ورطبت هجير يأسه، كان منشغلا بإنزال الأجولة وعندما وقف ليلتقط أنفاسه رآها فى شرفة الدار تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة تتعمد إخفاءها، دب قلبه وارتدت إليه روحه، لكنه سرعان ما اتهم نفسه بالمغالاة فى فهم نظرة قد تكون عابرة، وبرغم هذا شعر بأمل يطرق باب قلبه، وعندما قدمت الطعام لبرسكال وألحت عليها لتتناوله قال إن الأمر جد، فالنظرة التى أولتها إلى ابنته وهى تلح عليها كانت موجهة إليه

هو، وبعد أن فرغ من إنزال الأجولة جلس مستندا إلى جدار الدار ليشرب الشاى الذى أعدته له.

منذ تلك النظرة الأولى التى رشقت بسهام عينيها قلبه عزم على أن يقطع فى الطريق إليها خطوات جديدة، واشترط للقيام بها أن تتبعها برسالة أخرى، وها هى أرسلتها من خلال ابنته، ورأى أن يطرق الحديد وهو ساخن فقال مقدما لخطواته إنه منذ جاء إلى طنبارة لم ير فيها إلا كل ما يغرى بالبقاء، فالناس لا ينظرون إلى ما لدى غيرهم ولا ينشغلون إلا بصوالحهم، وأطرقت تنصت إلى حديثه فاقتحمها:

- هل لى فى سؤال يا أم سليمان؟

أشرعت أهدابها فى قلبه وهو يسأل:

- أنت صغيرة وجميلة ويتمناك أى رجل، لماذا لم تتزوجى؟

صعقتها جرأته فصمتت، لكن صمتها لم يردعه:

- أيعقل أن تحبسى نفسك فى دار طويلة عريضة كهذه؟

ولما رأى لمحة غضب فى ملامحها هب واقفا:

- أعذرينى يا بنت الناس، تجاوزت حدودى

لم يكن فى الحقيقة يعتذر، كان يسارع بالهرب من الموقف كله، فها هو تحدث إليها، وأية امرأة يتحدث إليها رجل فى أمر كهذا لا يمكن إغفال ما وراء حديثه، لكن أكثر من هذا هو لا يعرف ما الذى يمكن أن يحدث لو مضى فى طريقه دون تبصر، وأيضا فإن امرأة عمها العمدة لا يجب أخذها على غرة، ثم إن جمالها الذى أوقعه فى أسرها كان يقلقه، فإذا طرح جانبا هم عزيزة وما يمكن أن تفعله إلا أنه قلق بشأن ما سيحدث لو عرف الناس فى طنبارة أمرا كهذا.

أيعقل ألا تكون مرغوبة من أحد من قريتها؟ وماذا لو كان هناك أحد؟ كان يفكر فى هذا وهو يفر من أمام عينيها، لكنه لم يصرفه عن الأمل، ففى ظلام ليل الحجرة وعلى وقع انتظام أنفاس طفلته عادت الفكرة تناوشه، مرة يراها قريبة فى متناول يده ومرة

مستحيلة، إذا تزوجها سيصبح واحدا من أهل طنبارة، وسيفتح أبوابا للأمل موصدة، ولتذهب الريدانية إلى الجحيم، فما تفعله معه ومع ابنته ليس له إلا تفسير واحد، وهو أنها ترتاح إليه، وإلا لتجهمت عندما عاد بعد حديثه السابق، وعندما قدمت له الطعام أقبل عليه دون تردد، فهو يعرف نكهة الطعام الذى تقدمه المرأة لرجل تريده، فضلا عن الإشارات التى لا تكف عن إرسالها من عينيها الساحرتين فى خجلهما الجميل.

لم يعد يكتفى بتوصيل حصتها وإنزالها، صار يحملها إلى مخزن التبن، وعندما سكن اليقين نفسه جلس إلى جوارها تحت ظل الجدار يداعب طرفى شاربه ثم قال:

- سأعرض عليك عرضا يا أم سليمان، إن قبلته أنا خدامك، وإن رفضته كأنى لم أقل شيئا

دق قلبها ولم تجب، لكن ظلا فى عينيها أورى أنها تنتظر، ولما صمت برهة ليستجمع شجاعته استنهضه كل شيء فيها، عيناها واختلاجات شفتيها وصدرها المنتفض تحت جلبابها الواسع:

- أنا أريدك فى الحلال

قبل أن تفيق من الدهشة أردف:

- تزوجينى وسأكون رجلك وخدامك وأبا ولديك

لما استمرت على صمتها قال:

- أتزوجك هناجانز، أو فى دار أستأجرها جائز

بعد إطراق استمر برهة رفعت رأسها الجميل وقالت:

- أمرى ليس بيدى يا سى عبد العاطى

رقص قلبه:

- مهدى للأمر وأنا أتحدث إلى أخوتك

اعترضته:

- لو كان بيد أخوتى لهان الأمر

- بيد من إذن؟
أجابته والخجل يصبغ خديها:
- بيد عمى العمدة
كأنما لسعته النار فقال:
- يا بنت الناس أنا كلى عيوب، أنا غريب وعربجى وأكبر منك بخمسة عشر عاما ومتزوج مرتين ولى أربعة أبناء، وإذا ذهبت إلى جناب العمدة بكل هذا سيلقينى فى الشارع
ران الصمت، عاد يسأل بصوت خفيض، كأنه يخشى أن تسمعه:
- شورى على؟
أطرقت والخجل يعتصر ملامحها:
- ما فيه الخير يقدمه ربنا، دعنى أرى ما الذى يمكن عمله
ثم رفعت رأسها ونظرت إليه، ورأى فى عينيها شغفا رق له قلبه، وكاد يبكى.
من البداية لم تشعر برسكال بالراحة تجاه فردوس، فمنذ رأت وجه أبيها وهو ينظر إليها أدركت أنه سيتزوجها، ولما بالغت فردوس فى العطف عليها أدركت أنها تتقرب منه، وشعرت بحنق حرمها النوم، فمن يدرى ماذا سيكون مصيرها بعد زواجهما؟ هى تخاف من عزيزة، وإذا تزوج أبوها من فردوس سيتركها فى الريدانية، وستضربها عزيزة كما دأبت بعد رحيل أمها، وأبوها لن يكون هناك ليدافع عنها، وحتى إذا بقيت معه فمن يدرى ما الذى ستفعله فردوس؟ ورآها عبد العاطى ساهمة وهما فى طريق العودة إلى الريدانية عصر الخميس فمازحها:
- هل ستحملين طاجن ستك فوق رأسك طويلا؟
نظرت إليه فى حزن ثم سألته:
- هل ستتزوج فردوس الطرية؟
كان يدرك ما بداخلها:

- هل هذا يغضبك؟ حتى لو تزوجتها لن أتركك لعزيزة
وعادت لتقول:
- لكنها ستضربني مثل عزيزة
اغرورقت عيناه وأجابها محتدا:
- من هذه التي تضربك يا بنت؟ لم يخلق بعد من يمد يده عليك
وتهدج صوتها:
- أحلفك برحمة أمي، إذا تزوجتها لا تتركني معها، اتركني أعمل معك، أخرج معك وأعود معك
جذبها إلى جواره فوق مقدمة العربة وأحاط كتفيها بذراعه:
- هل سمعت من قبل عن فتاة تعمل عربجية؟
وسقطت من عينيها دمعتان:
- أنا
جرحته كلماتها فالتزم الصمت، واستحث المهرتين وعيناه مغرورقتان، استرجع ألمه يوم أن تركته أمه وتزوجت، وشعرت برسكال بالخوف من جديد، فعزيزة إذا علمت ستكون غضبتها صاعقة، وستتهمها بالتستر عليه، وإذا لم يبر أبوها بوعده وتركها معها ستريها أياما أشد سوادا، وبعد أن هدأ خوفها سألته:
- ألن تبلغ عزيزة؟
نظر في عمق الطريق وقال:
- دعي كل شيء لوقته
ثم التفت إليها:
- من أين جئت بكلمة فردوس الطرية هذه يا بنت؟
أجابته وهي تبتسم:
- طنبارة كلها تقول عنها هذا
هز رأسه وملامح ابتسامة تطوف بشفتيه، ولما صمت قالت:

- لعلمك، عزيزة سألتنى الأسبوع الفائت، قالت إنها تشعر بوجود امرأة أخرى

سألها منزعجا:

- وماذا قلت لها؟

أجابته:

- أخذتها إلى البحر وأعدتها عطشانة طبعا

وهو يقهقه فى وجه الطريق أردفت:

- قرصتنى فى وركى، ثم رفستنى برجلها وقالت إننى مثلك، لا أبوح بشيء

ساد الصمت من جديد فعادت لتستوثق منه:

- أنت قلت إنك لن تتركنى معها

ضحك فى وجه الليل وهو يقول:

- منذ متى وأبوك يقول شيئا ولا ينفذه يا بنت غاية المنى؟

ربت على كتفيها فشعر بالنار تسرى فى جسدها، ولما ضمها إليه أجهشت بالبكاء، وظل يربت على كتفيها حتى وضعت رأسها فوق رجليه ونامت.

* * *

يوم رحيل الشيخ إبراهيم الدرباك شعر عبد العاطى بأن الدنيا لا تنفك تحرمه من الأحباب، ثم راحت الكوابيس تهاجمه، بدأت بسكون يشل أعضاءه وهو نائم، ويستيقظ على ضيق صدره فلا يقدر على التنفس إلا فى حدود لا تكفى لبقائه حيا، وكلما حاول أخذ شهيق يفشل ويصيبه اليأس، وتكاد روحه تزهق فيصرخ فى عزيزة لتحرره من الأسر، ولا تتجاوز صرخته داخله، وقبل أن يستسلم للموت ينجح فى أخذ نفس عميق فينتفض جالسا، ويصيبه الذعر وهو يتحدث بنبرة باكية، لكن ذلك لم يكن يمنعه من راحة الفوز بالنجاة.

صار كلما جن الليل يخاف النوم فى حجرته، فكان يجلس أمام الدار يدخن طوال الليل، وإذا أخذه الوسن ينام مسندا ظهره للجدار، وحتى تعيده عزيزة إلى سريرها جربت كل الوصفات، وقرأت كل ما تحفظ من الآيات، وجربت أن ينام فى النهار ليعوض أرق الليل، وأن ينام جالسا وهى مستيقظة أمامه، كل الوصفات خابت، وعندما اضطربت حياته وصار مزاجه سوداويا بحثت عمن يساعده.

عند أطراف الريدانية تعيش امرأة أخذتها إليها أمها ذات مرة لتعالجها من نزيف رحمى لا ينقطع، إسمها غاية المنى، يقول الناس إن أهلها من الغجر، جاءوا إلى الريدانية قديما وحطوا عند أطرافها واحترفوا الكثير من المهن، ولأنهم لم يكونوا يتزوجون إلا من بعضهم البعض ولا يتحدثون فيما بينهم إلا لغة لا يعرفها غيرهم أطلق عليهم الناس لقب آل إبليس.

أبوها زكريا إبليس كان حدادا، وكان له من زوجته أبناء وبنات تتوسطهم غاية المنى، وشب حريق فى الدار أثناء نومهم فأتى على الدار كلها، وماتت الأسرة محترقة، لم ينج إلا غاية المنى، خرجت من النار دون أن يمسها سوء، وقال الناس إن حارس النار أنقذها،

عاشت الفتاة بذلك الظن حتى صارت ناضجة، وتزوجها أحد أبناء أعمامها فلم يقض معها إلا شهرا ثم عثروا عليه غريقا فى ترعة المنصورية، وقال الناس إن الجنى الذى يحرسها يحرمها على بنى الإنسان، ولم تتزوج ثانية، عاشت سنوات طويلة بين خرائب الدار بلا زوج أو ولد.

كل من يمر بها وهى جالسة أمام الدار يتعجب من حسنها وبوارها، لكن أحدا منهم لم يفكر فى الزواج منها، وذات يوم جاء إلى القرية رجل يرتدى أثمالا غريبة فأسكنته الفتاة إحدى حجرات الدار، كان بارعا فى أمور السحر فقصده الناس ليساعد فى تزويج بناتهم وحمل نسائهم وتحصين أبنائهم بأحجبته الغامضة، كان يخرج فى الصباح إلى الجبانة ويقضى بين ممراتها النهار كله ثم يعود بعد أن يهبط الليل ويبدأ عمله، استهوتها صنعته فصارت تلازمه، ترى ما يفعل وتحفظ ما يقول، وبعد أعوام استيقظت القرية ذات يوم فلم تجده، لكن الناس قالوا إنه لم يرحل إلا بعد أن سلم غاية المنى مفاتيح أسراره.

إحترفت صناعة الأعمال وفكها وعمل الأحجبة وطرد الجن من الأجساد والدور وأركان الغيطان، وصارت قبلة المحتاجين فى ربوع مركز المنصورة والمراكز المجاورة، وتطوع بعض ممن ساعدتهم فهدموا الدار المنكوبة وأقاموا مكانها دارا جميلة، وعرفت أقدام آل إبليس طريقها إلى دار ابنة عمهم التى لا تنقطع خيراتها، وترسخت أسطورتها فصار الناس إذا سئلوا من أين هم يقولون: "نحن من الريدانية، بلد الشيخة غاية المنى"، وقد يقولون اختصارا: "بلد الشيخة غايته".

تجاوزت الثلاثين وهى لا تزال على رونقها، جميلة وذات عجيزة لم تزدها الأيام إلا ثراء، ولما جاءتها عزيزة بعبد العاطى أخذه حسنها وأخذتها فتوته، وصنعت له حجابا فانسحبت الكوابيس من

نومه، لكنه وقع فى غرامها، وصار يتمناها فى منامه وصحوه، فى خياله يجردها من ملابسها ويتخيلها عارية، ويمسح بيديه الخشنتين فوق تكويناتها الرائعة، صار بعد انتهاء مشاويره كل يوم يمر بدارها، يتملى من حسنها ويسأل إن كانت تريد شيئا، وتمد يدها إليه بشيء من الخيرات التى لا تنقطع، وقد تمن عليه بنظرة يعيش عليها ليلته.

كانت ترى رغبته فى ظاهر عينيه الفريدتين فتلاعبت به، ولما نضج فوق النار التى أشعلتها فيه أجلسته إلى جوارها وسألته:

- هل لك فىَّ حاجة يا عبد العاطى؟

نظر إليها بعينين والهتين:

- أريدك فى الحلال يا ستنا

وضحكت فأشرق النور من عينيها، ثم ضربت على ظهره بذراعها السمين وقالت:

- إذن قم إلى المأذون و هاته

خبر زواجه من غاية المنى صدم الريدانية كلها، وجنت عزيزة، لكن أمها التى لجأت إليها لنصرتها أمسكت شحمة أذنها وسألت:

- ما الذى يفعله الرجل بالمرأة يا بنت بطنى؟

وباغت السؤال عزيزة فلم تعرف بم تجيبها، تركت الأم شحمة أذنها وقالت:

- إنه يبول فيها كما يبول الحمار فى الزريبة، يفتح رجليه ويبول، وزوجك لا تكفيه زريبة واحدة، فإذا أراد أن يبول فى زريبة أخرى فلا تقفى فى طريقه، خير من أن يبول فى الشارع

كانت هى الأخرى غاضبة من زوج إبنتها، وربما لهذا صورت الأمر على ما قالت، لكنها كفتاة غيطان قديمة كانت تعرف أن البكاء على اللبن المسكوب قلة عقل، اعتادت طوال مشوارها فى الحياة على أن تبحث عما يكون هناك من فائدة، فدائما ما يتبقى شىء بعد

المعارك الخاسرة، وعبد العاطى الذى كسر قلب ابنتها ذهب لامرأة ملعونة لن تطول عشرته معها، وحتى لا تجلس إلى جوار ابنتها أو تأخذها فى حضنها وتشاركها البكاء عليها أن تبحث، ووجدت ضالتها فى الخيرات التى تملأ دار غريمتها، فلماذا لا تعمل ابنتها على أن تستفيد منها وتفيد أبناءها؟

ظلت الريدانية شهورا تتحدث عن الزواج الملعون، ونامت لياليها على أمل أن تأتيها الأصباح بخبر انتقام الجنى الخارس من الزوجين المارقين، كل هذا لم يكن يقلق عبد العاطى، ما أقلقه هو خوف غاية المنى من انتقام أبناء أعمامها، وعندما طلبت منه أن يكون إلى جوارها فهم ما تقصده، وترك العربة والمهرتين فى عقر الدار ولزمها ليهدئ مخاوفها.

كل ما كان ينظر إليه آل إبليس هو ذلك الفلاح الذى تزوج ابنتهم، ثم جلس حارسا على أموالها وعلى الأرزاق التى تنهال على دارها بغير انقطاع، وفى آخر اليوم تأخذ الأرزاق طريقها إلى زوجته الأولى وأولاده، لم يكن أمامهم إلا أن يصعروا خدودهم ويلزمون الدار كما يلزمها، حتى إذا ما انتهى اليوم يأخذون هم أيضا نصيبهم من الأرزاق ويمضون، ثم يعودون فى الصباح كما فى كل يوم، وغضب عبد العاطى من تطفلهم ففاتحها فى الأمر، لكنها قالت:

- دعهم يأخذون ما يكفى لإبعاد شرورهم عنا

وحاول أن يراجعها فقطبت جبينها وحدت عينيها وقالت:

- إنهم أهلى وأنا اعرفهم خيرا منك

لما قالت هذا أخفى غضبه وقال:

- لكنهم يركبون أرضك ويأخذون محصولها

احتدت:

- أغلق هذا الباب ولا تعد للحديث فيه

ولم يجد بدا من الاستسلام فقال مظهرا الغضب:

- الدار دارك يا بنت الناس، والأرض أرضك والأرزاق أرزاقك
ما يراه كل يوم من نعيم جمالها وطيب أرزاقها يجعله فى حالة جديدة لم يكن يعرفها، حالة من الحب الفريد، فإذا كان قد تزوج من عزيزة لأن الرجل لابد له أن يتزوج، وأنجب منها أطفالا لأن هذا هو المعتاد، إلا أن الأمر مع غاية المنى مختلف، فقد سبقت زواجه منها رغبة سكنت روحه وعششت فيها، انقطع لها تقريبا فلم يعد يذهب إلى عزيزة إلا ليلة فى الأسبوع أو ليلتين، تعيش عليهما أياما، ثم تعود إلى غضبها فيهدئها من جديد بليلة أو ليلتين، وحتى فيهما كان وهو يضاجعها لا يرى إلا غاية المنى.

كانت غاية المنى تختصه بطعام لم يألفه فامتلأ هيكله الضخم وصار عملاقا، وتنعم حتى صار يمسد طرفى شاربه بالعود ودهن غريب تجلبه خصيصا لأجله، ويرتدى جلابيب فاخرة وصديريات مقصبة، ويضع على كتفيه شيلان رائعة من الكشمير، وبدلا من البلغة التى لا تستوعب قدميه الهائلتين جلبت حَذَّاءً من المنصورة فصل له أزواجا عديدة من الأحذية.

هى من علمته مضغ الأفيون، قدمته إليه فى ليلة الدخلة، وطلبت أن يستحلبه مع كوب شاى وضعت فيه تمناية كاملة، ولما التذ من الأفيون قالت:

- الرجال كلهم تحت وطأة الهموم يتشابهون، القوى والضعيف، السعيد والحزين، الأفيون هو الذى يميزهم، إذا تعاطوه تختفى الهموم، فلا يكون الفحل إلا فحلا، والسعيد تنجلى روحه، والحزين لا يجد إلاالحزن

مع الأفيون فارقته مرارة الذكريات، ينام الليل كله فى حضن سحابة بيضاء لا يتذكر معها أحلامه، وينظر فى جريمته ويتمه بلا خوف، وعندما قالت إنه رجل ممن تسعد النساء معه حلق فى الهواء بجناحيه، وشعر بأنه يحبها أكثر مما يعرف.

فى جوف الليل كانت توزع حزمات حبق البحر فى الأركان وتحممه بمنقوع الرجلة، ثم تضمخه بالعود، وتصحبه إلى السرير كطفل انتهت أمه لتوها من تحميمه، ثم تخلع ملابسها وتستحم، تدعك جسدها بزيوت نادرة وتضع المسك بين ثدييها، وتكون نار الشالية قد طابت فتضع فوقها إبريق الشاى وتخرج من كركتها لفافة الأفيون وتقطع منها فصا تقدمه له، وتصب الشاى فى كوب كبير فيستحلب الأفيون وهو يشربه، ثم ترص أحجار المعسل وتضع فوقها الحشيش وتشاركه التدخين، وتتجلى طبيعتهما على حقيقتها، يقفز من داخله قط لا يكف عن الخمش والحركة، وتموء هى كما تموء القطة، وقد ترقص فيهيج خياله، ويقع عليها ولا يتركها إلا بعد أن ينال منهما التعب، بعدها ينطلقان فى الحكى حتى يغرقا فى النوم.

فاجأته ذات يوم وقالت إنها حامل، كانت سعيدة إلى درجة الخفة فاحتضنها، وقبل بطنها الرائعة، واغرورقت عيناها بالدموع، فها هى كبقية النساء تتزوج ولا يموت زوجها، وتحمل فى أحشائها بذرة من تحب كما تحملن.

لما بلغهم الخبر غاب آل إبليس عن دارها يومين، ثم تقاطروا يتظاهرون بالفرح ويهنئون، وشعر عبد العاطى بما وراء تظاهرهم، عرف أنهم يقولون فى أنفسهم ها هو الرجل الذى تزوجته له فى بطنها طفل سيرث كل ما تملكه، وما تملكه ليس شيئا هينا، إنه دار جميلة وأفدنة وحلى تتزين ببعضها ويحتضن دولاب ملابسها بقيتها، وإذا كانوا يزرعون أرضها ويقتسمون المحاصيل معها مرة يطمعون وأخرى يعدلون فإنها إذا أنجبت إبنا سيطردهم العربجى فلا ينالون من أملاكها شيئا، وكانت هى الأخرى تعرف ما يقولون فى أنفسهم وتتظاهر بعدم الفهم.

ذات ليلة هم بمغادرة الدار ليبيت لدى عزيزة الغاضبة فأمسكت بذراعه خائفة:

- خليك معى الليلة، صدرى مقبوض
أحاطها بذراعيه فوضعت رأسها فوق صدره وقالت:
- لا أشعر بالأمان إلا معك
سألها منزعجا:
- فقط لو أعرف مم تخافين؟
نظرت إليه بعينين مغرورقتين وسألته:
- أصحيح لا تعرف؟
ونظر إليها فى حب:
- ومن أين لى أن أعرف؟
سقطت دموعها على صدره وهى تقول:
- أنا لا أبخل عليهم بشىء، ولا آخذ أنا وأنت من الرزق إلا أقل القليل، والباقى كله لهم، ومنذ عرفوا بحملى صرت أرى فى أعينهم نظرات لا أحبها
سألها ورعب قديم يلعب فى صدره:
- أتخافين غدرهم؟
قبضت على صدره بكلتا يديها وبكت:
- أخاف أن يسقطوا حملى أو يقتلونى
وانتفض:
- هذا ما نبهتك إليه من البداية، هل تتذكرين ماذا قلت لى وقتها؟
أطرقت فسقطت دموعها فى حجره، وربت على ظهرها والقلق يطوف بملامحه:
- بعون الله أنا كفؤهم
تشبثت بملابسه:
- أخاف عليك منهم
تمتم فى غضب وهو يضمها إلى صدره:
- إن كانوا آل إبليس أنا إبليس نفسه

لما شعرت بآلام الولادة جاء بعزيزة لتكون إلى جوارها، وقبلت عزيزة على مضض، تركت أولادها في رعاية أمها المريضة وجاءت معه، ولولا أن أمها ذكرتها بحالهم الذى انصلح بفضل عطايا ضرتها لما قبلت، واشتد الطلق فأرسلها عبد العاطى لتجلب الداية من طناح، كان يخشى الاستعانة بداية الريدانية، فربما نفذ إليها آل إبليس فتقتل الطفل أو تصيب زوجته بشيء يقتلها، ومع حلول الفجر وضعت بنتا، لما سمعت بكاءها أغمضت عينيها شاكرة وقالت لعبد العاطى إنها برسكال.

لم يكن قد سمع الاسم من قبل، ولما سألها عنه قالت:

- هى برسكال وكفى

عاشت أعواما بعد ولادة ابنتها، لكنها منذ وضعتها لم تعد كما كانت، صارت معتلة، تقوم من مرض لتدخل فى مرض، لم تشفع لها الأحجبة التى صنعتها، ولا أحجبة رجال ونساء استقدمتهم ليمدوا أيادى العون، وصار وجود عزيزة فى الدار أمرا واقعا، لكنها كانت تتحامل على نفسها وتستقبل زوارها لتستعين بما يقدمونه لها على تكاليف العلاج، تُجْلِس برسكال إلى جوارها وتصنع لهم ما يريدون، وإذا صعب عليها شيء ترشد ابنتها لتفعله، وعندما اشتد عليها المرض استغل أقاربها غياب عبد العاطى وكان فى مشوار خارج القرية وهجموا على الدار وأخذوا أوراقها ومصاغها، ورأتهم وهم يأخذون كل شيء فتشبثت بطفلتها، واختبأت عزيزة، عندما عاد عبد العاطى وعرف بما جرى جهز نبوتة ليخرج إليهم، لكن عزيزة وقفت فى طريقه، ضربها بقسوة لكن ذلك لم يزدها إلا تشبثا به، وبكت وهى تقول إن آل إبليس أكثر منهم عددا وعدة، فأبناء أعمامه لن ينصروه، ولا أخوته من أمه، ولا أبناء أخواله، وبكت غاية المنى فى صمت، ولما جلس بينهم خرج صوتها واهنا، قالت إنه وبرسكال أهم من كنوز الدنيا كلها.

ماتت غاية المنى وبرسكال ابنة ست سنوات، وشعر عبد العاطى بالهزيمة، فها هو قبل أن يصل إلى مشارف الأربعين ينهزم مرتين، مرة عندما ارتكب جريمته واغتال أعمامه حقه فى أرض أبيه وداره وبهائمه، وهذه المرة، كان وهو يخرج بعربته بحثا عن عمل يسد به رمقه ورمق عزيزة وأبنائها يشعر بالعيون شامتة ومستهينة، فالمارد الذى كان يتيه عليهم بفتوته لم يرفع إصبعا فى وجه من هاجموا زوجته ونهبوا مالها ومال ابنته، تماما كما لم يرفع إصبعا في وجه أعمامه وأبنائهم لما اغتالوا حقه فى ميراث أبيه، لا يعرفون أنه فى المرة الأولي كان قاتلا فزهد فيما له عند أعمامه، هزمته جريمته، أما هذه المرة فإن فقدان العزوة هزمه.

ما جدوى أن يقتل أحدا منهم؟ بل ما جدوى أن يقتلهم كلهم؟ قتل من قبل فماذا كانت النتيجة؟، ثم إنهم منذ تحصلوا على الأوراق أخذوا على البائعين عقودا جديدة بالأرض، ولم يمنعهم من استلاب الدار إلا وجود عقدها عند المحامى، إذ كانت غاية المنى لما اشتد عليها المرض قد تنازلت له عنها، بصفته وليا على ابنتهما.

كره عبد العاطى الريدانية ومن فيها، والدار التى شهدت هزيمته، وجاب القرى بحثا عن مكان بعيد يذهب إليه، ولما صدت كل الأبواب فى وجهه جاء إلى طنبارة، باحثا عن أبواب مفتوحة ووجوه لا تعرف هزائمه ورزق لا يغتاله أحد.

* * *

فاجأته فردوس بخبر موافقة العمدة على زواجهما فطار لبه، أمسك بيدها ورفعها إلى فمه وقبلها، ورأت فى عينيه دموعا فجاوبته بدموع أكثر، وعرفت برسكال فتمنت لو تفر إلى المكان الذى ذهبت إليه أمها، وفى ظلام الحجرة الخانقة استيقظت بداخلها ذكريات كثيرة، ففى آخر مرات عودتهما إلى الريدانية تجنبت الجلوس مع عزيزة حتى لا تعود لسؤالها، كانت أم عزيزة قد رحلت ولم يعد هناك من يهدئ من روعها، ولما عجزت عن الإنفراد بها انفجرت فى وجه عبد العاطى:

- أنت ومقصوفة الرقبة ابنتك تخفيان شيئا، فإذا كان ما أشم رائحته صحيحا سأقول لك بالضبط ما سأفعله

وواجهته كالمجنونة:

- ورحمة أبى وأمى يا عبد العاطى إذا تزوجت ثانية لأشعلن النار فى نفسى

ولم يرد عليها فقالت والبكاء يخنقها:

- أنا عارفة نصيبى أسود، واليوم الذى تركتك فيه تغادر الريدانية وتذهب إلى تلك المخروبة كان سوادا فوق رأسى

ظل صامتا حتى انتهت من حديثها ثم قال:

- ها أنت قلت كل شيء، دعينى ألحق بساعتين من النوم فأنا سأستيقظ قبل الفجر

عندما قام من النوم كانت لا تزال مستيقظة، ولما تأهبت للحديث معه ارتدى ملابسه على عجل، وهم بالخروج فاعترضته، أزاحها من أمامه وهو ينادى على برسكال فأمسكت بطرف جلبابه، ونظر إليها فى غضب، كان مشفقا عليها وغاضبا مما يفعله بها، حتى لو رأى فيما يفعل صوابا، وقال بصوت جاهد ليجعله حازما:

- من غير يمين إن عدت إلى هذا القول يا عزيزة لن ترى وجهى

تشبثت به:

- ستفعلها إذن؟

حتى يتخلص من إلحاحها قال:

- نعم سأفعلها

وخرج من الدار وصويتها يشق سماء ليل الريدانية.

قبل أيام من زواجه من فردوس أخذ برسكال فى سيارة الأسطى فرحات إلى الريدانية، طلبت أن يصحبها لتزور قبر أمها، ولما تعجب من طلبها قالت بصوت متهدج:

- سأصب الماء على رأسها وأعود

تساءل إن كانت هذه هى برسكال التى يعرفها ثم قال:

- هذا تخريف يا ابنتى

تأهبت الدموع للسقوط وهى تجيبه:

- ليس تخريفا، المرأة التى يتزوج عليها زوجها إذا لم يُصَبُّ على رأسها الماء تشتعل النار فيه، حتى فى قبرها

كانت قد تعلمت القراءة والكتابة فأخذت قطعة طباشير من الأستاذ عبد المطلب ودستها فى جيب جلبابها، وعندما وقفت على قبر أمها بكت، وحملت دلو الماء وصبته فوق شاهد قبرها ثم كتبت على واجهة القبر عبارتين: أحبك يا أمى . . . أشتاق إليك يا أمى.

فى ليلة الدخلة تركها بعد صلاة العشاء وخرج قاصدا دار عروسه، قال لجاريه إنه سيعود ليأخذها فى الغد، وتفهم الرجلان ما يقول وتعهدا برعايتها إلى أن يعود، كان مهموما بكل شىء، بطفلته التى تركها تنام فى حجرة دار الجارحى بمفردها، وبعزيزة التى لا يعرف ما الذى فعلته بنفسها، وبالنظرات التى رآها فى عيون الناس لما عرفوا بالخبر، ولما طرق الباب وفتحت له فردوس أدركت كل شىء، كان العشاء موضوعا على الطبلية فى الصالة الفسيحة، وبدت

الدار خالية فسألها عن الولدين، اعتصرت أنفها والدموع تنهمر من عينيها ثم قالت:

- أخذهما أخي ليبيتا عنده

جلسا ينظران إلى بعضهما البعض، هو يريدها وهي تتساءل إن كان ما فعلته صوابا، وتعلق بصره بذراعيها البضين وصدرها الرخامي الذى يكشف عنه قميصها، وحتى يخرجها من حالة الصمت قال:

- فى أول مرة رأيتك عرفت أنك وعدى، ورأيتنى أضع رأسى على رجليك وأحكى، عن نفسى، عن عبد العاطى الذى لا يعرفه أحد، حتى أمى، حتى عزيزة

أخرجها قوله من صمتها فسألته:

- صفها لى يا سى عبده

سألها:

- من؟

أجابته:

- عزيزة

أخفى ضيقه وقال:

- إمرأة كأية امرأة

وألحت:

- أهى جميلة؟

وأراد أن يمازحها فقال:

- لا تكون زوجة عبد العاطى إن لم تكن جميلة

وحتى لا يغضبها أردف:

- لكن جمالا عن جمال يفرق

وهما يتناولان الطعام حكى لها عن الريدانية، وعن عزيزة وغاية المنى، وسحرها كل شىء فيه، جسده الفتى وشاربه المرفوع،

وحديثه، وطريقته فى الإمساك بصندوق الدخان ولف السجائر، وبعد أن انتصف الليل أخرج من جيب صديريته لفافة فضها وأخذ منها قمحة وضعها فى فمه، ثم قال متحرجا إنه نشأ على التطبب بالأفيون، وضحك وهو يردف:

- وفيه سبع فوائد

أشارت إلى اللفافة وسألته فى فضول:

- أهذا هو؟

أومأ برأسه ثم قال:

- لو عرفت المرأة فضله لقدمته لزوجها بيديها

بعد أن انتهيا من دخلتهما غرقت فردوس فى الدهشة، كأنها لم تعرف الرجال، فما رأته من عبد العاطى لم تكن تعرف أنه موجود فى الدنيا، واغرورقت عيناها، ولما هدأت مسحت بكفها الطرية فوق صدره، وسألته مازحة إن كان يمكنها أن تمضغ سنة أفيون فضحك:

- إنه ليس للنساء يا نور عينى، إن شئت نشرب الحشيش معا

فى الصباح استيقظا على نقرات خافتة على الباب فقامت لتفتح، ووجدت ابنيها واقفين أمام الباب فأحاطتهما بيديها، ولما ارتدى ملابسه خرج عبد العاطى، كانا قد دخلا إلى حجرتهما، وعلى الإفطار الذى جمعهم قال للولدين:

- من اليوم أنا أب لخمسة رجال، سليمان وعبد الراضى ويونس ومرعى ويحيى، وأمكما سيدتى وتاج رأسى

وأطرق الولدان فى انكسار اهتز له قلبه، وتذكر برسكال فتمنى لو كانت بينهم.

لم يمض أسبوع على قدوم برسكال إلى دار فردوس حتى شكا عبد الراضى مما تفعله، كانت فردوس قد أعدت لها حجرة لتنام فيها فقال عبد الراضى لها إن الفتاة الا تكف عن الحديث إلى نفسها طوال الليل، يأتيه صوتها همهمة لا يتبين منها حرفا، ويروح فى النوم ثم

يستيقظ وهى على حالها، ولما تلصص عليها من شق الباب رآها تجلس أمام صرة غريبة وتتمايل للأمام وللخلف، وتطيرت فردوس.

استغلت غياب الفتاة مع أبيها وبحثت عن الصرة، لم تجد إلا علبة صغيرة من الخشب تحوى قروشها المدخرة فتركتها حيث هى، وحتى لا تنشغل بما قال ابنها ارتاحت إلى الظن بأنه كان يحلم، كانت فى ذروة الهناء مع عبد العاطى، ولا تريد شيئا يعكر صفوهم، لكن شيئا ما فى عقلها المتشكك وما عرفته من زوجها عن ضرتها الراحلة جعلها لا تتوقف عن التفكير فى أمر الصرة، صحيح أن سليمان نفى أن يكون شعر بشىء مما يقوله أخوه، لكنها فى قرارة نفسها تصدق عبد الراضى، ولم يمر شهر حتى اكتشفت أن أركان الدار مملوءة بحبق البحر، ولما سألت الفتاة عنه قالت إن أمها كانت تضعه فى الأركان ولا تكنس الدار احتفالا بمقدم أبيها إلا به، وقبلت فردوس ما فعلت على مضض، وأرادت ذات مرة أن تختبر عبد العاطى فسألته فى دلال:

- من أين تجىء البنت بكل هذا الحبق؟

وضحك عبد العاطى:

- المسألة بسيطة، أمها كانت تحصن الدار به، وهى تفعل كأمها

ورأت أن تتصنع الغباء فسألته:

- وهل هو كذلك؟

أجابها وهو منشغل بلف سيجارة:

- أكيد، أليس نبات الجنة؟

لم تشأ أن تغلق باب الحديث فقالت:

- إنها لا تكف عن الحديث إلى نفسها فى الليل

فأجابها وهو يتظاهر بالضحك:

- كل الناس يفعلون هذا، حتى أنت

حافظ على عهده مع برسكال فلازمته من أول يوم فى رحلة عمله اليومية، تجوب معه القرى، تفرقع بالكرباج وتخالط الحمالين والتجار والزبائن، وتضحك كما يضحك الأولاد وتتشاجر كما يتشاجرون، وإذا اشتمت وهما على الطريق رائحة الحبق يشد أبوها لجام المهرتين ويظل واقفا إلى أن تجمع منه ما تشاء، ويخرج من جيب صديريته خيوط الدوبارة ليحكم ربط ما تجمعه، وعندما يعودان قبل الغروب تسارع بوضعه فى أركان الدار وفى الطيقان، ثم تعود لتحل رباط المهرتين وتسحبهما لتشربا من الحوض، وبعد أن تربطهما وتضع أمامهما الطعام تلحق بأبيها، وفى انتظار العشاء تجلس إلى جواره والنوم يغالبها.

فى مغارب الخمسان تحممها فردوس وتتعجب من هيأتها، فحتى فى تلك السن كانت عريضة الكتفين كهيأة أبيها، وإذا نظرت فى عينيها الزرقاوين الضيقتين ترى فيهما عينيه، حتى اللمعة التى تشى بأنهما بئران لا يسهل سبر غورهما، ولولا ليمونتان صغيرتان تنبتان فى صدرها وردفان مرتفعان لما قال أحد إنها فتاة، وذات مرة وجدت فى جيوبها خِرَقاً وزجاجات صغيرة فارغة فتفلت فى عبها وازداد تطيرها، وخشيت أن تؤدبها بالضرب إذا ارتكبت خطأ، لكنها وقفت قبالتها ذات يوم وقالت:

- قطيعة تقطع خلفة البنات

وفاجأتها برسكال، فردت كفها وأشرعت أصابعها الخمسة فى وجهها وقالت:

- غدا سنرى

أول بنت أنجبتها فردوس أطلق عليها عبد العاطى اسم الخضرة الشريفة، تيمنا باسم أم بطله الكبير "أبو" زيد، وتغلب على رفض فردوس باللين مرة وبالشدة مرة، حتى تراجعت، وفى فترة النفاس شرع فى إقامة حظيرة للمهرتين إلى جوار حظيرة البهائم فى عمق

المدحاية، وجدد طلمبة كان قد أقامها المرحوم جودة وبنى حوضا جديدا تصب الماء فيه، وأخيرا تغلبت فردوس على ترددها وبكت له:

- البنت فردت في وجهي أصابعها الخمسة، لن أنجب إلا بناتا يا سي عبده

وضحك عبد العاطي:

- وما للبنات يا امرأة؟، أقدامهن خضراء

عقب ولادة الناعسة أصم أذنيه عن بكائها وأحاط المدحاية بسور من المدماك صنع له بوابة من خشب الشق، ولما جاءت الجازية بكت فردوس بختها، وبرغم تظاهره بالرضا كان فى داخله يشعر بالكدر، تمنى لو كانت ولدا، وحتى يفر من كدره غاب عن طنبارة يومين، قضاهما فى الريدانية حيث باع دار غاية المنى وحمل المنقولات إلى دار عزيزة، لم يبق إلا على السرير وخزينة الملابس، جلبهما إلى طنبارة ووضعهما فى حجرة برسكال.

وحملت فردوس للمرة الرابعة، وسكنها خوف كبير، وتمنت الموت قبل أن تنجب بنتا رابعة، راحت تبالغ فى الترقق مع برسكال، وأدركت الفتاة ما وراء توددها، كانت قد أصبحت فتاة حقيقية لكن عادة النساء لم تزرها بعد، ورأت فردوس تتعثر وتسقط على الأرض وهى تهبط إلى عقب الدار فصرخت فيها:

- أأنت عمياء يا امرأة؟، ستسقطين الولد

سلمتها فردوس يديها لتنهضها، تجاوزت عن الإساءة وأحكمت قبضتها على النبوءة، وفى الليل حكت لعبد العاطى ما حدث فلم يعقب، وفى الصباح وهما على الطريق سأل برسكال، ولمعت عيناها وهى تقول:

- امرأتك وجهها مقلوب، والبنت لا تقلب وجه أمها

وراح يتمعن فى قولها فسألته:

- ماذا ستسميه؟
نظر إلى خط الأفق وقال:
- إذا جاء ولدا سأسميه "رزق"
كانت تشعر بلهفة أبيها على الولد، وكلما وضعت فردوس بنتا كانت تختفى من الدار ولا تظهر إلا بعد أن تكف المرأة عن بكائها ويعود لوجه أبيها صفاؤه، هذه المرة كانت على يقين من أنها ستضع ولدا، ووافقت أباها على تسميته برزق، ولما عادت فى المساء ألقت على فردوس تحية مقصودة:
- مساء الخير يا أم رزق
وطربت المرأة لتحيتها فأجابتها بأحسن مما قالت، وأدركت الفتاة مبلغ سعادتها فظلت تناديها بهذا الاسم حتى وضعت.
فردوس كانت تتمنى أن تسمي ولدها باسم قريبها العمدة، لكنها خشيت أن تخالف نبوءة الفتاة ويموت الولد، وقبلت أن يكتب باسم رزق وتناديه باسم عبد المغنى، وفى السبوع حملته برسكال فى الغربال وعبرت به البخور سبع مرات معها، وسهرت إلى جواره حتى راح الجميع فى النوم، وعندما رأت الفرحة فى وجه أبيها تعلقت بالطفل، فكانت لا تخرج من الدار إلا أن يكون آخر وجه تراه، ولا تعود إلا لتفتتح عودتها بوجهه، وقبل أن يكمل الرضاعة أخذته لينام معها، تسهر الليل إلى جواره وتعد له الكراوية وتغير اللفائف وترشه ببودرة التلك، وقبل أن تخرج مع أبيها فى الصباح تغير اللفائف وتذر فوق جسده البودرة من جديد، وعلمت الخضرة أن تفعل فى غيابها مثلما تفعل، وفى يومى الجمعة والسبت موعد أجازتها كانت لا تفارقه، تسلمه لأمه لترضعه ثم تسترده، وذات مرة وجدت عضوه الدقيق منتعظا فداعبته بفمها، وبال الطفل فيه فتفلت بوله وهى تضحك، وبعد أن تخلصت من آخر قطرة منه قالت:
- لا، رجل وابن رجل يا ولد

لأول مرة تشعر بأن لها أخا حقيقيا، وصارت تحمله فوق خصرها وتذهب إلى جرن المناديلى، ولما تعلم المشى صار يتبعها أينما تروح، ويبكى إذا غابت، وإذا عادت يقابلها بتهليل يتعجب الجميع منه، لا يتناول الطعام إلا من يدها، ولما تعلم الكلام كان يناديها على أنها أمه، وإذا وجدها مهمومة أو ساهمة يسألها فى براءة عما بها، وإذا نهرتها فردوس ينظر إلي أمه غاضبا، ويرفع كفه ويؤرجحها فى الهواء كأنه يضربها، وينام الجميع على بطونهم من فرط الضحك.

لا تناديه إلابرزق فيما الدار كلها تناديه بعبد المغنى، وعندما رأوا أن يختنوه فتحت الحصالة واشترت له جلبابا أبيض وطاقية مطرزة بالقصب، ورأت الأسطى رضوان المزين قادما فانقبض قلبها، كأنهم سيختنونها هى، وحبست نفسها فى الحجرة حتى لا تراهم، وبكت فى خلوتها على صراخه، ولما هدأ خرجت إليهم لترى ما فعلوه به، كان يبحث عنها فى وجوههم فرآها، وبكى لرؤيتها ورفع يديه لتأخذه، وظل ينظر فى وجهها كأنه لا يصدق أنها عادت.

لم تشعر بأن الدار دارها إلا عندما جاء رزق، تجوب القرى مع أبيها وتشترى له من قروشها الحلوى، وهى فى تلك السن صنعت من أجله أول حجاب فى حياتها، حصلت على ورقة بيضاء، ومن صرة أمها التى تتفنن فى إخفائها أخذت بعضا من الصبغة ومزجتها بالماء، وغمست فيها سن ريشة أوزة وكتبت حروفا كثيرة، ثم طوت الورقة ووضعتها فى كيسة من قماش الدمور بحجم الكف الصغيرة، ومع الورقة وضعت حبات من قمح وشعير وفول وعدس وأرز أبيض وذرة وحلبة حصى وحصوات ملح خشنة، وخاطت فوهة الكيسة، وكانت قد حممته بمنقوع الرجلة فعلقت الكيسة فى رقبته بشريط قماشى رقيق، وامسكت بذقنه الصغيرة وأغمضت عينيها وقالت:

- حصنتك بهذا السر، يحفظك كما يحفظ الجنين فى رحم أمه، ويرزقك بعدد حبوب الأرض وملحها

وهز الطفل رأسه مؤمنا على ما تقول، كأنه يفهمه.

* * *

مبكرا أدركت برسكال أن فردوس لا تحبها، وفى أحاديثها التى لا تنقطع مع أبيها وهما يجوبان القرى أوشكت أن تبلغه، لكنها فى آخر لحظة أطبقت فمها، وكانت ترتاح لسليمان ابن فردوس فخشيت أن تتحدث معه حتى لا يغضب من أجل أمه، وعاشت فى حزن جعلها فى كثير من الأوقات ساهمة، يشغلها السؤال كيف ترضى زوجة أبيها؟ صحيح أن فردوس لا تضربها ولا تخفىً الطعام عنها كما تفعل عزيزة، على العكس هى تحممها عصر كل خميس ثم تجلسها أمامها وتضع الكيروسين على رأسها، وعلى ضوء لمبة الجاز تمشط شعرها فوق قطعة قماش لتزيل عنه القمل والصئبان، ثم تلبسها جلبابا نظيفا، لكنها كلما تنظر فى عينيها لا ترى إلا العَكَرَ والصدود.

لم يعد يكفيها تعلق رزق بها فراحت تجرب كل شىء، ساعدت فى تربية الدواجن وغسل الأواوير، وتفننت فى عمل بَسّة الدواجن فأضافت إليها بعضا من دشّة المهرتين لتغريها بالطعام وتسمنها، وتعلمت قياس البرابر لمعرفة مواعيد وضعها للبيض، وتزغيط البط والأوز وتنظيف زواليع الحمام المعلقة إلى سقف عقر الدار، ونزع زجاجات اللمبات وإزالة السناج منها ثم غسلهابالماء والصابون لتصير شفافة كالبلور، وأخيرا أبعدت حبق البحر من أركان الدار والطيقان مكتفية بجلب أعواد قليلة تضعها فى حجرتها، أسفل سرير أمها، وبرغم هذا ظلت فردوس على حالها، وإذا تصادف وسمعت اسم غاية المنى تتمتم بعبارات غامضة وتتوارى لتتفل فى عبها، تماما كما تفعل عزيزة.

لكن لا بأس، فهى لن تيأس، عمدت إلى إراحة فردوس من أعمال الدار فى يومى عطلتها، تستيقظ قبل الجميع وتقصد أعشاش الدواجن فتقتلع ريشات أجنحتها الطويلة حتى لا تطير بعيدا، وتبخر عقر

الدار والحظيرتين بفضلات الكلاب حتى لا تهاجمها الأمراض والأرواح الخبيثة، وتنظف حوافر المهرتين ثم تحممهما لتصيرا لامعتين كفصوص الأفيون، وعندما يقبل الليل تدخن التبن عند الحظيرتين لتقى البهائم لدغات البعوض.

كانت قد بلغت الثانية عشرة فرأت فردوس أن الوقت حان لأن يكف أبوها عن اصطحابها معه، فلقد كبرت ووجب تعليمها أشغال الدار، وبعد التظاهر بالتفكيرفى الأمر رفض عبد العاطى، حفاظا على عهده معها، ثم إنه هو أول من يعرف أن ابنته تقوم بكل شىء فى الدار إلى جانب رعاية أخيها، وهى تساعده، وتهون عليه شقاء الطريق، على وقع حوافر المهرتين يتحدث إليها وتتحدث إليه، ويشعر أنه أزاح عن كاهله أعباء كانت جاثمة فوقه، وكثيرا ما يترك لها العربة لتذهب بحمولتها إلى مقصدها ويجلس فى انتظارها، يكفيه ما يلقاه من عزيزة كلما ذهب إلى الريدانية ليراها ويرى أولاده.

وفردوس هى الأخرى لم تيأس، استلقت بقميص نومها القصير إلى جواره فى إحدى الليالى ثم قالت إن وقت ختان الفتاة حان، وشوح عبد العاطى بيده:

- هذاليس شغلى يا فردوس، هى ابنتك فافعلى ما ترين

فى اليوم الموعود استيقظت برسكال لترافق أباها فلم تجده، وقالت فردوس إنه خرج قبل الفجر وقال إنه قد يغيب إلى ساعة متأخرة، ولم يشأ أن يصحبها، وصعدت الشمس فرأت الأسطى رضوان المزين قاصدا الدار حاملا حقيبته القديمة، وقبل أن تتدبر أمرها أمسكت بها فردوس، الخوف كان يشق قلبها شقا، حاولت التخلص منها لكنها فشلت، فلقد استعانت فردوس ببعض الجارات لتقوى على تكبيلها، وتحت ثقلها الرهيب وإحكام الجارات مسك رجليها كشفت فردوس عورتها وهيأتها لموسى المزين التى قطعتها فى تأن قاتل.

سرقت الموسى روحها، لم تستطع أن تصرخ، وعندما ازرق وجهها وجحظت عيناها صرخت إحداهن فاستردت أنفاسها، وأطلقت صرخة شقت سماء طنبارة، ثم تلتها بصرخات أقل حدة، لما عاد وعيها راحت تسب الجميع، وتعمل فيما نطاله من أذرعهن أسنانها، ووضع المزين مادة فوق جرحها فصرخت تلعنه، كانت تستنجد بأمها، وبالأرواح التى تعلمت منها كيف تستنصرها، لكنها لم تنجدها، قال المزين عندما جاء فى آخر اليوم لعبد العاطى إنه لم يسمع فى حياته بمثل ما قالت ابنته، وكانوا قد أبعدوا عبد المغنى الصغير حتى لا يرى ما يفعلونه بها، ولما هدأت أدخلوه عليها فبكى فى حضنها، وظل يلازمها ويأكل معها حتى أوشك برؤها على الاكتمال.

كثيرا ما كان عبد العاطى يحدثها عن أن فردوس أصبحت أمها، أو فى مقامها، وطلب منها مرات عديدة أن تناديها بذلك، لكنها كانت تكتفى بالنظر إليه لتذكره بأنه طالبها بذلك من قبل مع عزيزة، ولم تتجاوب مع رغبته، كانت تعرف أن فردوس عازمة على إبقائها فى الدار، ولا تمل الإلحاح عليه ليكف عن اصطحابها معه، وإذا كانت لم تنجح فمن يدريها ما الذى سيكون عندما يبرأ جرحها، راحت وهى تنام فى سريرها أو وهى تروح وتجىء تفكر فى كيفية إبطال عزم زوجة أبيها، ستكون كالسمكة التى أخرجوها من الماء إذا منعوها من الخروج مع أبيها، وتمنت الموت على البقاء فى الدار، فهى لا تجد نفسها إلا فى الفضاء الواسع، وإذا غابت يوما تحن إلى معالم الطريق ومداخل القرى، وصيحات الأطفال وهم يستقبلون العربة ويتعلقون فى مؤخرتها، غير هيابين من لسعات الكرباج الذى يفرقع فى آذانهم ويطالهم ذنبه.

لكنها منذ ختنت لم تعد الفتاة التى كانت، انطبع فى داخلها شىء جعلها تدرك أن جسدها انتهك، وكلما تتذكر ما فعله المزين تشعر

بالغضب، فكأنهم لم يقصوا عضوها، وإنما ذلك الشيء الذى يجعلها تتشبه بالأولاد، وبمجرد أن برؤ جرحها فاجأت الجميع بركوب العربة لترافق أباها، ولم يمنعها أحد.

جد جديد جعلها تشعر ببوادر الهزيمة، فلقد فاجأتها عادة النساء، وعندما أدرك أبوها ما يجرى أمرها بالبقاء فى الدار، واستسلمت لأمره، ولازمت الدار طوال أيام الدورة، ولما طهرت خرجت لترافقه فقال إنه لن يصحبها معه بعد الآن، وهددها بالضرب إن هى لم تنصع لأمره، لكنها استيقظت فى الفجر وتسللت خارجة، حتى إذا ما وصل إلى فم الشارع وجدها فاجأته بالقفز فوق العربة، صار يصحبها مرة وينهرها مرة، وفى المرات التى يمنعها كانت تبكى بصوت أجش وتتركه يمضى وروحها تسبقه، وذات مرة عثروا عليها نائمة تحت أحد الجدران إلى أن طلعت عليها الشمس.

غضبها لم يستمر طويلا، قالت إن أباها حافظ على عهده معها لأكثر من سبع سنوات، أخذها فيها إلى حيث يذهب ولم يتركها، وأعملت فكرها فرأت أنه لم يبقها فى الدار إلا بعد أن كبرت وصارت قادرة على حماية نفسها، وفى أحد أيام الخميس فاجأها بطلب الاستعداد لمرافقته إلى الريدانية، كانت قد صارت كبيرة بما يكفى لأن تتحدث إليه فى جرأة، وفى الطريق قالت له إنها لم تعد تطيق النظر فى وجه عزيزة وأبنائها، وناقشها فى الأمر فاحتدت، وكادت تبكى، ولما صمت طلبت أن يتركها تبيت فى دار أمها ويذهب إلى عزيزة، وفى الصباح يمر ليأخذها ويعودا إلى طنبارة، وهرش عبد العاطى رأسه، فمنذ باع دار أمها كان حريصا على ألا تعرف، وها هو أمام اختبار لا يعرف كيف يواجهه، نظر إليها فى حب ممزوج بالحرج وقال:

- نحن الآن من أهل طنبارة يا ابنتى، الريدانية لم تعد بلدنا

أشرعت نظراتها فى عينيه وسألت:

- وداري؟ دار أمي؟
أطرق إلى الأرض وهو يلقى بعبئه فى أذنيها:
- بعتها
تساءلت والغضب يتجمع فى جبهتها وعند زاويتى فمها:
- متى؟
- من فترة
تهدج صوتها:
- دون أن تخبرني؟
ضمها إليه، يا ألله، كم كبرت الطفلة التى كان يضمها كما يضم الكف عودا يابسا، وأجابها متوددا:
- تتذكرين كيف كان حالنا ونحن نخرج فى ذلك الفجر البعيد لنأتى إلى طنبارة، كنا مهزومين، وكنا فقيرين، ولما فتحت لنا طنبارة ذراعيها استأجرنا حجرة فيها، وبرغم قسوتها كانت تجمعنا معا، وتحمينا، لم يعد لنا فى الريدانية إلا عزيزة وأخوتك، يونس ومرعى ويحيى، فإذا جئنا بهم إلى طنبارة سنكون قد تركنا الريدانية إلى الأبد
لم ينطل عليها قوله، غضبها هو الذى يقود ولا شىء غيره، وجلس فى انتظار ما ستقول لكنها التزمت الصمت، والتزمت غضبها، ورأى أن يكمل ما كان فى الليالى السابقة يجهزه ليقوله:
- ستقولين إننى تزوجت فردوس لأنها جميلة، ولأننى أحب النساء، لا يا ابنتى
تذكر قسمات أمه وهى تقول له نفس الكلام وهى على فراش موتها، وبرغم أن سحابة حزن قديمة أغرقته عاد ليقول:
- تزوجتها لأكون واحدا من تلك القرية، أردت أن أنجب منها ولدا وبدلا من أن يكون أهلها أصهارى يصبحون أخوال ولدى، وها أنا فعلت، يا ابنة عبد العاطى أبوك زرع جذرا فى طنبارة ولا بد أن ينمو

نظر إليها مستعطفا:

- رأيت فى حياتى نساء أجمل من فردوس، لكن قلبى لم يتحرك نحوهن، أمك كانت أجمل منها، وتحرك قلبى نحوها، لكنها ماتت، تركتنا أنا وأنت، وهجم أخوالك عليها وأخذوا كل شىء، الآن أنا أعرف أن قلبى ما تحرك تجاه فردوس إلا لأن الله أراد أن نكون أنا وأنت من أهل طنبارة، وغدا ستتزوجين واحدا من شبابها ويكون أبناؤك من أهلها

وحتى يضع حدا للحديث قال:

- لما ركبت عزيزة رأسها وتركت دار أمك وعادت لدارها خشيت أن يهاجم أخوالك من جديد ويأخذونها، وأسرعت ببيعها

هدأت قليلا، وشعرت تجاهه بالشفقة، بقايا غضبها هى التى قالت:

- لكن كل ما قلت لم يجب على سؤالى، لماذا لم تخبرنى أنك بعتها؟!

أجابها محاولا إخفاء نفاذ صبره:

- وماذا ترين أننى أفعل الآن؟

سقطت الدموع من عينيها لما أدركت أنها لا تقدر على مجاراته، وتراوح بين تركها تبكى وبين ألمه لبكائها فقال:

- كل أخوتك، يونس ومرعى ويحيى والخضرة الشريفة والناعسة والجازية ورزق فى كفة، وأنت وحدك فى كفة، وكفتك هى الراجحة، هل تعرفين لماذا؟

وأجاب هو:

- لأنهم لم يكونوا معنا ونحن نشق الظلام والنباح ونمضى إلى المجهول، لم يكونوا معنا ونحن نتبادل النوم فوق طبلية العربة، كنا أنا وأنت والليل والخوف وقرصة الجوع، لم يكونوا معنا ونحن نسكن حجرة الجارحى التى رأينا السماء من فوالق جدرانها، ولم يكونوا معنا وأخواتك يأتين إلى الدنيا واحدة بعد الأخرى، ولم يكونوا

معنا وأنت تستقبلين "رزق" وتخطين فوق البخور مع فردوس سبعة أشواط

هدأت كثيرا، ولم يبق من غضبها إلا الدخان، لكنها سخرت:

- ألست فى النهاية واحدة من بناتك؟

صفق بكفيه لسؤالها الساخر، وقال وهو ينظر إلى فضاء الغيطان:

- أنظرى إلى القرى التى نمر بها يا بنت أبيك، هل كانت ونحن ضائعين فوق الطريق كما هى الآن؟ وطنبارة-التى دخلناها وهى نائمة فنبحت علينا كلابها هل هى طنبارة الآن؟ تغير كل شىء إلى الأحسن وليس إلى الأسوأ، وأنا وأنت كنا فى قلب كل هذا، وإذا كنت تريدين منى إجابة فاسألى نفسك، هل أنت برسكال التى كانت تختبئ فى صدرى عندما يعوى ذئب بعيد؟ حتى أنا لم أعد عبد العاطى الذى كان يتظاهر بالشجاعة والخوف يشل رئتيه، الآن صرنا أنا وانت من أهل طنبارة، صرنا أصهار معظم عائلاتها، صاروا أخوال أخوتك

ساد صمت بليغ ثم قال:

- أنت يا برسكال ابنتى وشريكتى، إن كان هذا ما تبحثين عنه فأنا أقوله، أنت ابنتى وشريكتى

التصقت به وسألت فى تدلل مصطنع:

- وأين ثمن الدار؟

كان يتوقع سؤالها، وضمها إليه فشعر بحرارة جسدها ثم قال:

- هل تذكرين اللافتة التى أقاموها عند مدخل طنبارة؟ التى كتبوا عليها طنبارة ترحب بكم، نقلنا أنا وانت فوق ظهر هذه العربة مواد بنائها، وقتها كان الرئيس عائدا من سوريا، وكان مكسورا مثلنا، أتذكرين؟

أومأت براسها فقال:

- إلى جوار اللافتة ثمانية عشر قيراطا، ستدخل المبانى بعد سنوات، أنا أفكر فى شرائها، صاحبها يطلب ثمنا مرتفعا، ويمكننى أن أساومه، لكننى أخشى أن يسبقنا إليها أحد، سيكون ثمن دارك جزءا من هذا الثمن، وسيكون لك فيها ما يساويه، لا زيادة ولا نقصان

تطرق إلى قلبها القلق فسألت:

- هل فردوس تعرف؟

أجابها:

- ولا نفيخ النار، فقط أنت وأنا، لأننا الشريكان، أنت بثمن دارك وأنا بما أدخره، قرش فوق قرش وبريزة فوق بريزة وجنيه فوق جنيه

قالت معترضة:

- لسنا فلاحين فكيف سنزرعها

اعتدل ليواجهها:

- بل نحن فلاحون يا ابنتى، ولما سلبوا أرضنا صرنا عربجية

سألته:

- سنزرعها إذن؟

انطلق يسبر أغوار الليل ويقول:

- فى رأسى مشروع لو نجحنا فى إقامته سنصبح على رأس طنبارة وليس فقط من صفوة أهلها، إياك أن تظنى أن الشونة ستدوم إلى الأبد، هم الآن يراقبونها ويمنعون الفساد من أن يدب فى أرجائها، وعندما يموت الرئيس سيكون أول شىء يفكرون فيه هو غلقها، بالضبة والمفتاح، وسيعود تجار الأسمدة والعلف إلى الصدارة، أنا وانت سنقيم فوق هذه الأرض مصنعا للعلف، وسنبيعه للتجار ليبيعوه بدورهم للفلاحين، ستكونين مثل بنات العمدة، برسكال هانم ملش، وسيكون أبناؤك بكوات، أما أبوك

ودب بكفه على صدره:

- عين أعيان طنبارة الحاج عبد العاطى ملش

وانطلق يقهقه فى وجه الليل، لا يفطن إلى نظراتها التى تخترق الحجب وتلامس النجوم.

صارت لا تهدأ، فى الفجر تستيقظ مع أبيها وتعدله فطوره، وتعد فطور سليمان وعبد الراضى قبل أن تودعهما وهما خارجان إلى الغيط بالماشية، ثم تنطلق لتعمل كل شيء، وقبل أن تظهر الشمس فى السماء توقظ الخضرة والناعسة والجازية ليساعدنها فيما تبقى، ثم توقظ "رزق" وتجهز فطوره وتلبسه المريلة ليذهب إلى المدرسة، حتى إذا ما استيقظت فردوس تكون الدار فى أبهى صورة ويكون فطورهن قد أعد، لم يعد يشغلها إلا ذلك الحلم الجميل الذى ائتمنها أبوها عليه، وذات مساء فاجأتهم وهم على طبلية العشاء بمشروعها الجديد، قالت:

- لماذا لا نصنع من الخوص قففا ومقاطف وبرانيط، ونبيعها للناس كما تفعل دار السعيد الريس، طنبارة كانت قرية صغيرة عندما بدأت دار السعيد الريس فى صنع الخوص، الآن صارت بلدا كبيرة وليس فيها إلا هم، وهى تحتاج دارا ودارين وثلاثة تصنع الخوص لأهلها، لنكن نحن بدلا من أن ندور حول أنفسنا طوال اليوم لا شغلة ولا مشغلة

التزم الجميع الصمت، نظرت برسكال إلى أبيها وضيقت إحدى عينيها فابتسم وهو يهز رأسه، لكن فردوس سخرت من اقتراحها، وفاجأهم عبد العاطى بإقرار ابنته على ما قالت.

فتحت الحصالة وخرجت قبل طلوع الشمس ثم عادت قرب الظهر بحمولة عربة من الخوص، وبعد غمرها بالماء وتركها فترة قاموا بإعدادها فى صورة شرائح رفيعة، وعلمتهم برسكال كيف يجدلونها لتصبح شريطا عريضا يشكلون منه ما يريدون، فهذه قفة وذاك

مقطف، وتلك قبعة تقى الرؤوس حر الشمس فى الغيطان، حتى رزق الصغير كان فى أيام أجازاته يشاركهن، ثم تطور العمل فصاروا يصنعون من الخيش شلائت للتبن ويبيعون كل هذا طوال أيام الأسبوع.

برغم انشغالها لم تنس أمر المهرتين، فهى تستقبل أباها عند عودته فتحررهما من نير العربة وتسقيهما ثم تربطهما إلى المزود، وتضع أمامهما علف المساء، وفى أصائل الخمسان تأخذهما إلى حوض الماء الكبير الذى أنشأته القرية لشرب الماشية لتحممهما هناك.

أول مشاجرة لها كانت مع الملاء، عندما حاول منعها بحجة إن تحميم المهرتين يجعل الأرض زلقة تحت أرجل البهائم، ولما أصرت دفعها الرجل لتبتعد فهجمت عليه وعقرته فى كتفه، وآثر الرجل السلامة فتركها تفعل ما تريد، لم يخل عصر خميس واحد من مشاجرة بينها وبين أحد رجال القرية أو إحدى نسائها، ممن يعودون بالبهائم من الغيطان ويذهبون إلى الحوض قبل بلوغهم الدور.

مشاجراتها عند حوض الماءعصر كل خميس صارت حديث طنبارة كلها، وكان العمدة غائبا لدى أبنائه فى القاهرة فتحدث الناس إلى جوادة كبير عماله عما تفعله العربجية ابنة صهرهم، وجاء جوادة إلى الدار ولم يكن عبد العاطى موجودا فقال لفردوس أن تعرف زوجها أنه لا يعرف أهل طنبارة على حقيقتهم، فهم إذا كانوا طيبين ويعيش بينهم الغريب كما يعيش بين أهله إلا أنهم لا يقبلون خروج ابنته عن قواعد اللياقة، وما تفعله عند الحوض الكبير لا يقبله أحد، ولما أبلغت عبد العاطى بما قال تقافزت عفاريت الدنيا أمام عينيه، لكنه لم يقس على ابنته.

آخر مشاجراتها كانت مع امرأة من عائلة غيضان، بلغت حد التهام ثدى المرأة وملأ صراخها أرجاء طنبارة، وطلب زوجها عقد

جلسة عرفية للتحقيق، وقبل أن يعود العمدة من القاهرة أنهى عبد العاطى كل شيء، ذهب إلى دار المرأة واعتذر لها ولزوجها، وأبدى الاستعداد لدفع الحق الذى يقضى به قضاة العرف، وهدأ هذا الموقف من غضب الزوج فقال إنه لن يجلس للتحقيق العرفى إلا بعد أن يعود العمدة بالسلامة.

قبل أن يحل الخميس التالى أخذها سليمان هى والمهرتين إلى ترعة المسلمانية عند غيطهم، وهناك أنزلت المهرتين إلى الترعة ثم حسرت ملابسها ونزلت خلفهما، وظلت تدعك جسديهما بليفة من القش حتى لمع شعرهما، ثم أخرجتهما إلى الشاطئ وغسلت أقدامهما من أثار الطين وجففتهما بجلباب قديم، ومشطت شعر عرفيهما وذيليهما الطويلين، وعادت بهما كعروسين.

من أول يوم أخذت فيه المهرتين إلى غيط جودة تطورت علاقتها بسليمان، صارا يتحدثان إلى بعضهما بعيدا عن رقابة فردوس، واهتدت إلى مصرف صغير ينمو فوق شاطئيه حبق البحر فصارت بعد تحميم المهرتين تقطف أعواده وتبحث عن الرجلة وتعود بهما إلى الدار، تضع الحبق فى الطيقان من جديد وتعطى الرجلة لفردوس لتحمم البنات بنقيعها، وبرغم معرفتها بمصير النباتين لم تكف خميسا عن جلبهما.

على العكس من عبد الراضى كان سليمان رقيقا، هو الوحيد من أهل الدار الذى فتحت له برسكال قلبها وحدثته عن أمها، وفتح لها قلبه وحدثها عن أبيه، تنتظر قدومه من الغيط كما تنتظر المرأة زوجها، ولاحظت فردوس اهتمامها به فعزمت على إبعاده عنها، وأدركت الفتاة عزمها فصارت تتجنب الحديث إليه أو الانفراد به فى وجودها، وتدخر كل ما تريد قوله له إلى عصر كل خميس، وذات مرة فاجأته بحجاب أعدته من أجله، ووضعته بنفسها حول رقبته فانزلق إلى داخل جلبابه، وحذرته من إزالته، قالت إن العين تفلق

الحجر، وإنها لا تعرف ما الذى يمكن أن يحدث للدار التى صارت كخلية النحل، ولولا عطر حبق البحر والاستحمام بمنقوع الرجلة والأحجبة التى تصنعها لأجلهم لسكنتها أرواح خبيثة، وعلمته أوراد أمها ليبدأ يومه وينهيه بها، وامتثل الفتى لطلبها وأخفى الحجاب عن الجميع، حتى عن عبد الراضى.

* * *

فردوس لا تزال طرية، وجميلة، برغم إنجابها ستة تخطر فى الدار وفى المدحاية كما خطرت أمام عبد العاطى ذات يوم، وهو الآخر لا يزال قويا، لم تفارقه الرغبة فيها، أو تتباطأ، لم تزدها الأيام إلا تأججا، ففردوس لا تكف عن التفنن فى إشعال رغبته، وهو يغير ملابسه ويخرج عصر كل خميس إلى المقهى، ويستحلب مع الشاى سنة الأفيون استعدادا لموقعة الليل معها، حتى صخبها تطور كثيرا، مما اضطره فى الأشهر الأخيرة إلى ستر فمها بكفه حتى لا توقظ الدار كلها، وتظل حتى وهو يستر فمها تموء من تحته كقطة جامحة.

يوم الجمعة يقضى النهار فى الدار، قد يذهب إلى المسجد ليلحق بالصلاة وقد لا يذهب، وقبل الغروب يقصد سوق كفر سنجاب لينقل بضائع التجار على بيات إلى سوق طنبارة، ثم يقضى نهارالسبت حرا، يتجول فى السوق حتى الظهر، ثم يعود إلى الدار ليقضى قيلولته، ويتناول الغذاء، وعندما يحين موعد فض السوق يحمل البضائع من جديد إلى سوق "أبو" الشقوق التى تبعد عن طنبارة كيلو مترات، ومع الليل يعود فيتناول عشاءه ويذهب إلى النوم، استعدادا للخروج إلى الشونة بعد الفجر، صار على مشارف الخمسين لكنه لا يزال نشيطا كما ينبغى لرجل لا يكف عن العمل والحب.

أول مشاجرة كبيرة لآل عبد العاطى وقعت دون تدبير، طرفها الثانى دار الشبراوى التى تقوم عند مدخل الشارع، والشبراوى رجل فى مثل سن عبد العاطى له من زوجته خمسة أبناء وبنتان، منهم ولدان متزوجان، وحدث الخلاف عندما وضع الشبراوى كومة تراب فى الشارع ليستخدمها فى تتريب الزريبة تحت أرجل البهائم، وأعاقت الكومة مرور العربة وضايقت المهرتين.

أغلظ عبد العاطى القول للشبراوى فسبه أحد أبنائه، ولم يتحمل عبد العاطى الإهانة فلطم الفتى على صدغه، واندلع القتال، مالت كفت الشجار لصالح دار الشبراوى، لولا أن برسكال وهم فى أتون المعركة تحينت الفرصة وقبضت على خصيتى ابن الشبراوى الأكبر لما توقفوا، هددتهم بقتله ما لم ينسحبوا إلى دارهم فامتثل الجميع لتهديدها، وبرغم هذا ما كانت لتتركه لولا أن أباها خر على الأرض طالبا منها أن تطلقه، ونظرت الفتاة إلى أبيها متعجبة، فهى لم تره على هذا النحو من قبل، ولما امتثلت لرجائه وتركت الرجل ظل عبد العاطى منطويا على نفسه فيما ابن الشبراوى ينسحب إلى دارهم، وسقط ثم قام ليسقط من جديد، إلى أن هرع إليه أخوته وحملوه إلى الدار، انتهت المشاجرة دون نصر حاسم، لكن الإصابات التى لحقت بآل عبد العاطى أعطت الإحساس بأنهم هزموا، وعرفت طنبارة لأول مرة كيف تهزم المرأة رجلا، كما عرفت أشياء أخرى لم تكن تعرفها.

فردوس كانت أبلغهم إصابة، جسدها الطرى ممتلئ ببقع حمراء وآثار عقر، رمت به فى المحضر أبناء الشبراوى الذكور، وكذلك فعل عبد الراضى والبنات، وبرغم صغر سنه لم يصب عبد المغنى بسوء، ولم تطل سليمان إلا ضربات طائشة، أما برسكال التى لحقت بها إصابات طفيفة اتهمت الرجل الكبير بإحداثها، وهكذا وزع آل عبد العاطى الاتهامات على الجميع، حتى النساء، وصار كل سكان دار الشبراوى بين يوم وليلة مطلوبين، كل هذا والشبراوى وأولاده لا يدرون، فلقد تحرر المحضر فى مركز الشرطة فى السنبلاوين، بعيدا عن أهل طنبارة الذين يفخرون بأن أضابير محكمة السنبلاوين لا تسجل قضية واحدة من قريتهم، فلقد قدر عبد العاطى أنه حتى يصل إلى علمهم ما فعل سيكون قد مر يوم أو يومان، فيهما سيقوم بالدور المرسوم.

ما أن عادوا من المركز بعد تحرير المحضر وجلب التقارير الطبية المثبتة لكل الإصابات مهما بلغت تفاهتها حتى صحب أهله وذهب بهم إلى دار العمدة، وهناك كشف عن أجسادهم ليرى صهره مبلغ الإعتداءالذى وقع عليهم، وتحركت لجنة التحقيق العرفية، وانتهى التحقيق إلى إدانة الشبراوى وأولاده وغرموا عشرة جنيهات كاملة.

ثلاثة أيام مرت، وفى الرابع فوجئ الشبراوى بضابط النقطة يرسل فى طلبه هو وأهل داره، وهرع إلى قضاة العرف ليحثهم على تكليف عبد العاطى بالتنازل، طلب عبد العاطى مهلة، ثم وعد بجمع أسرته والتوجه إلى المركز، وظل يماطل إلى أن مر الوقت ولم يعد فى مقدور الشبراوى عمل محضر مضاد، هكذا قال المحامى الذى لجأ إليه الشبراوى ليطلب معونته.

طنبارة كلها برجالها ونسائها ستظل تتحدث أشهرا عن هذه الحادثة الفريدة، فعبد العاطى كان يضع العراقيل تلو العراقيل حتى لا يذهب إلى المحكمة للإقرار بالصلح، وأخيرا حكم بحبس الشبراوى وأهل داره شهرا مع الشغل، واستدان الرجل ليدفع كفالة وقف التنفيد ومصاريف الاستئناف، وتعطلت مصالحه وران الهم على داره، كل هذا وعبد العاطى يصعر خده للناس ويفاجئهم كل يوم بطلبات جديدة، وانتهى الأمر بقرار من لجنة التحقيق العرفية بإغلاق باب دار الشبراوى على الشارع فى وجه البهائم ليستعمل بدلا منه باب آخر فى شارع جانبى ضيق، وكتبت الشروط بهذا ووقعها الشبراوى وأبناؤه، ثم ذهب عبد العاطى وآله للتنازل أمام المحكمة فى المنصورة، حملتهم سيارة ثم عادت بهم بعد انتهاء الجلسة، ودفع الشبراوى أجرتها.

لم يكن هذاالنصر ليخدع عبد العاطى، جلس يبحث عن طريق يكفل عدم تكرار ما حدث، وحمل سؤاله معه وهو يجرى بعجلات

عربته فوق الطرق البعيدة، وحتى أثناء النوم، وذات ليلة جلس عند حافة السرير معطيا فردوس ظهره وقال:

- منظرك وأنت مضروبة ومعقورة فى كل مكان فى جسمك يثير جنونى، أولاد الكلب نقشوا جسدك كأنهم ينقشون كعك العيد، ولا أحد من أعمام ولديك أو أبنائهم مد يده ليساعد، أو حتى سأل

ثم تنهد فى حسرة:

- لو كان أولادى هنا لكنا ألبسناهم الطرح وفرجنا عليهم طنبارة وأجوارها

ثم فاجأها:

- لا غنى عن وجود أولادى معنا

دب قلب فردوس حتى من قبل أن يردف:

- ماذا لو جئنا بعزيزة وأبنائها إلى هنا؟

سقط قلبها فى كعبيها:

- هنا أين؟

أجابها:

- هنا فى الدار

جاهدت لتتمالك:

- وهل تسع كل هؤلاء؟

أدرك خوفها فقال مهونا الأمر:

- جحر الذئب يسع مائة حبيب

لم يمنعها خوفها من أن تغضبه فقالت:

- إذن سيتحقق فينا كلام أعمام الولدين

سألها منزعجا:

- أى كلام يا امرأة؟

نفضت عن كاهلها الحمل:

- مجىء ضرتى وأولادها سيجعل كلامهم يبدو حقيقيا، وهى أنك وأولادك ستحتلون دار أخيهم

فأسرع يسألها:

- هل طلبت منك هذا الشىء إلا بعد أن اعتدى علينا الشبراوى وأبناؤه وكدنا نهلك كلنا؟

قالت وهى تغالب ترددها:

- نبعد عن الشر ونغنى له أحسن

بعد طول تدبر قال:

- أنا لا أفرض عليك شيئا يا بنت الناس، الدار دارك ودار ولديك، ومن حكم فى ماله ما ظلم

ولما صمتت لا تعرف كيف تجيبه قال:

- ما قصدت إلا أن يكونوا معنا إلى أن نستأجر لهم دارا يقيمون فيها

أحدث اقتراحه انفراجة فقالت:

- إن كان الأمر هكذا دار"أبو" عويضة مغلقة منذ سنين، بيننا وبينها ثلاث دور بالعدد

وحتى يواصل الضغط عليها قال:

- وإذا جاءوا يا ستى سأريحك من برسكال، سأرسلها لتقيم معهم

شعرت بأنه يضعها فى اختبار فتصنعت الغضب:

- لماذا تحشر برسكال؟ إذا لم تسعها الدار أسعها فى عينى

فى داخلها كانت تتمنى لو تخلصت من الفتاة، فما تفعله مع عبد المغنى الصغير ومع سليمان ونقله إليها عبد الراضى يجعلها لا تطيق بقاءها، وما لا يعرفه عبد العاطى أنها أخذت عبد المغنى لتحممه فعثرت على الحجاب تحت ملابسه، واستعاذت بالله من الشيطان وهى تسأل ابنها عنه، ولما انخرط فى البكاء أدركت أنه من صنع برسكال، ونزعته عنه، لكنها خافت أن تلقيه بعيدا فوضعته فى

إحدى الطيفان، ثم زاد الطين بلة ما أسر إليها به عبد الراضى، عن حجاب مثله فى رقبة سليمان، فإذا كان عبد العاطى قاصدا ما يقول فإن باب الأمل فى إبعاد الفتاة عن الدار وعن ابنيها يكون قد فتح على مصراعيه.

لكن إصابة عبد المغنى بعد أن خلعت عنه أمه الحجاب جعل كل شىء يجرى فى مكانه، الطفل كان عائدا من المدرسة عندما استهوته مطاردة حمار "أبو" عبيدة لحمارة سائبة، وللجم اندفاع الحمار كانت الحمارة تسبقه بخطوة ثم ترفع رجليها الخلفيتين وترفسه بقوة، وكان الأطفال يطاردونهما، وطالت إحدى الرفسات وجه عبد المغنى فقطعت حاجبه، وغطى الدم عينه وهوى إلى الأرض، حمله الناس إلى الوحدة الصحية فقطب الطبيب الجرح، وعندما عادوا به أقامت فردوس مأتما، وهرعت برسكال إلى أخيها، ومدت يدها تتحسس الحجاب فلم تجده، ونظرت فى عينيه تسأله، والتفت الطفل إلى أمه فى خوف، وبين ذهول الحاضرين قامت إلى فردوس وأمسكت بجدائلها وصرخت فيها:

- أتريدين أن تقتلى الولد يا امرأة؟

لم تتحرك فردوس، ولم تمد يدها لتستخلص جدائلها من يدها، وأطرقت إلى الأرض فأمرتها بإحضار الحجاب ووضعه فى رقبة الولد من جديد، وامتثلت فردوس، ورأى كل أهل الشارع الفتاة وهى تضم الحجاب بكفيها وتنفخ فيه وتتحدث إليه حديثا غامضا، ثم تثبته بين طيات ملابسه، فى جوف الليل رآها عبد العاطى وجسدها يقشعرفسألها عما بها، وعلى استحياء حكت له قصة الحجاب وما فعلته بها برسكال، وضحك عبد العاطى ملء شدقيه:

- لا تستهينى ببرسكال، وإذا وضعت فى ملابس أخيها حجابا فيجب أن يكون هناك ولا ينزع عنه

في صباح اليوم التالى وبينما كانت برسكال تعد الطعام وتضعه فى صرته وهو خارج لعمله نظر فى عينيها وقال:
- أتريدين أن تقومى بعمل أمك يا ابنة غاية التمني؟ دونك وهذا قطع رقبتك
نظرت إليه نظرة قرأ فيها فخرا بما فعلت فقال:
- فيك يا بنت الكلب من دم الأبالسة الكثير
إن كان هناك من درس خرج به عبد العاطى من محنة المشاجرة مع دار الشبراوى فهو أن فردوس آخر امرأة في الدنيا يعتمد عليها في الشجار، فهى نقطة ضعف كبيرة فى جبينه، حجمها الهائل وطراوتها تجعلانها هدفا سهل المنال، وفى قابل الأيام لن تكون إلا عائقا أمام انتصارهم فى أية مشاجرة، أما الدرس الثاني فهو أن برسكال لم تعد الطفلة التى جاءت معه إلى طنبارة في جوف ليل بعيد، بشعرها المنكوش وهيأتها الخشنة الصغيرة، ولا الصبية التي ذاع صيتها فى المشاجرات فجعلت كل من في الشارع يعمل لها ألف حساب، صارت فتاة يتمناها أى شاب، وإذا جاءت الريح طيبة ستكون من نصيب أحد ولدى زوجته، وستنجب أبناء يسدون عين الشمس، وفى قرارة نفسه فضل أن يكون سليمان وليس عبد الراضى.

* * *

شيئا فشيئا صارت برسكال محور الدار كلها، هى من تربى الدواجن، وتذهب إلى ماكينة الطحين، وهى من تبيع القفف والمقاطف والسلال والقبعات فى السوق، وتصنع الجبن القريش وتبيع فائضه وفائض البيض إلى جانب بضاعتها، وهى من تجمع الزبد من الدور وتملحه ثم تبيعه، وهى من تفترش أرضية السوق وإلى جانب بضاعتها أجولة مفتوحة فيها حبوب مجروشة وغير مجروشة، تبيعها بالقدح والملوة والكيلة، وهى التى تكيل بنفسها، ولها طريقة لا يضارعها فيها أعتى المحترفين، وفى آخر اليوم تضع حصيلة كل هذا فى حجر أبيها، استعجالا لحلمهما الأكبر.

مع ترسخ قدميها صارت سيدة السوق بغير منازع، ومعلما من معالمه، حتى أن الناس يهتدون إلى فرش البائعين بمواقعها من فرشتها، أنت تعرف فرشة برسكال؟ نعم، إنها على الشمال منها، أو على اليمين، وهكذا، أوقعها نشاطها الذى لا يهدأ فى مشكلات مع أصحاب الفرش الأخرى، معظمها بسبب الخلاف على تقدير حرم فرشتها، لا تختص بهذا النساء، بل شمل الرجال أيضا، سواء من أهل طنبارة أومن الغرباء، فى سوق طنبارة أو فى غيره من الأسواق، ويكيد لها الغرماء فتطاردها شرطة الأسواق، وهو ما اضطرها وهى فى هذه السن إلى أن تصادق بعض المخبرين الذين ينبثون فى جنبات الأسواق، وعن طريقهم تحل مشكلاتها.

إذا وجدت فى السوق شيئا يلائم "رزق" تجلبه له، ولما عرفت قدماها سوق الخميس فى السنبلاوين صارت تتحف أباها بصناديق الدخان الشهيرة، وأخواتها بربطات للشعر وتربيعات جديدة، وتجلب لفردوس الأشياء التى تحرص على التزين بها، ولا تنسى سليمان، تجلب له الحلوى وتخبئها حتى يجيء عصر الخميس فتأخذها إليه، وقد تطعمها له بيديها.

فى أوقات الشدة هى من ترسم خطط الشجار وتقودهم ليخرجوا منتصرين، وأدخلت على الشجار فى طنبارة أساليب مبتكرة، اقترحت على أبيها ذات يوم تجميع الأحجاروالزلط وتخزينها فوق السطح تحسبا لشجار كبير قد يجتمع فيه أهل الشارع عليهم، وأعجبه اقتراحها فانطلق أهل الداريجمعون الأحجار فى الخفاء، حتى عبد المغنى كان إذا عثر على قطعة حجر مناسبة أو زلطة كبيرة يدسها فى جيب مريلته، ومع ما يجلبه غيره تجمع برتسكال حصيلة اليوم وتصعد بها إلى السطح، وتوزعها على محيط الدار كله، برغم هذا كانت فردوس تنتظر على أحر من الجمر اليوم الذى تبتعد فيه عن دارها وعن ابنيها، فلقد حكى لها عبد الراضى أيضا عما يجرى بينها وبين سليمان فى الغيط فى أصائل الخمسان، عندما تحمل إليه الحلوى التى تخفيها عن الجميع وتطعمها له بيديها، لكن الرياح لا تأتى دائما بما تشتهيه السفن.

بدأ الحديث عن برسكال وسليمان فى براح الغيطان، وكعادة أهل طنبارة كما كل القرى حمله البعض إلى شوارع القرية، وتغلغل حتى وصل إلى أعماق الدور، برسكال وسليمان يفعلان الشىء البطال فى عريشة غيط جودة، ووصل الحديث إلى مسامع فردوس، ولما تقصت عرفت أن زوجة إبن الشبراوى الأكبر تحدثت فى الأمر مع بعض النساء، فبرغم الصلح القديم إلا أن الزوجة كانت لا تزال غاضبة ولم تصف بعد، وانتقل الحديث من دار إلى دار حتى عم الشارع كله، وأسقط فى يد فردوس، فإن هى طرمخت على ما جرى فسيصل إلى مسامع زوجها، إن عاجلا أو آجلا، وستشب النار، لذا قررت الهجوم على المرأة وتأديبها، وبدلا من أن يعرف زوجها من أحد فلتضعه فى قلب الموضوع مرة واحدة.

وقعت مناوشة صغيرة مع نساء دار الشبراوى لحقت فيها بفردوس بعض الكدمات، وتلخلخت إحدى قواطعها، وعلى العشاء

سألها عبد العاطي عما حدث فأبلغته، كانت حريصة على ألا ينقلب عليها وعلى ابنها، وانتفض عبد العاطي ودخل حجرة نومه طالبا أن تلحق به ابنته، وما أن أغلق عليهما الباب حتى أمسك بشحمتي أذنيها والنار تخرج من عينيه:

- هل فعل بك الولد الشيء البطال يا بنت غايته؟ أجيبيني ولا تكذبي

كانت برسكال مرعوبة فشعر حيالها بالضعف، وهوت الفتاة فوق قدميه:

- وتربة أمي ما حدث، وإذا أردت خذني إلى الداية لتعرف أنني لا أكذب

فنه لم يخدعه أبدا، وهو يعتقد أنها صادقة، وبان من ملامحه هذا باطمئنانه للفتاة، وقبل أن تهوى على قدميه من جديد قال:

- فلنؤدبهم أولا ثم نرى ما سيكون

في الصباح استيقظت القرية على مشاجرة بين نساء الدارين، وتدخلت الجارات لمنع تفاقمها فامتدت إليهن، ورأى أهل الشارع برسكال وهي تصول وتجول والنساء يفررن أمامها كجراء مذعورة، ولما وقعت في يدها المرأة المقصودة بركت فوقها وشلحتها، ثم مزقت سروالها وعرضت سوءتها على الملأ.

عاد الرجال قبل الغروب، وما أن عرفوا بما جرى حتى أشعلوا مشاجرة اشترك فيها إلى جانب عبد العاطي سليمان وعبد الراضي، ولما تكاثر عليهم أهل الشارع انسحبوا إلى داخل المدحاية وأغلقوا من دونهم بوابتها الضخمة، وحاول الغاضبون اقتحامها لكن عبد العاطي وربيبيه وقفوا خلفها يقاومون، وفوجئ أهل الشارع بالأحجار تشق الفضاء وتصيب رؤوسهم وأضلاعهم وأرجلهم، وما أن جروا جرحاهم بعيدا عن مرمى الأحجار حتى فتح عبد العاطي

البوابة وانطلق هو وربيباه فى أعقابهم، من لم تصبه الأحجار نالت منه عصيهم، ولما أدخلوهم دورهم عادوا إلى الدار عودة المنتصر.
هذه المرة أحكمت طنبارة الحصار حول عبد العاطى حتى لا يسارع بإبلاغ الشرطة، وفى جلسة التحقيق بفناء المركز الإجتماعى أحصى قضاة العرف أكثر من عشرين إصابة لحقت برجال الشارع، فضلا عن النساء اللائى سقطن فى الصباح، ولم يلحق بآل عبد العاطى إلا إصابة بسيطة بعبد الراضى، وقرب الفجر قضى على الدور المناوئة بغرامات لم تصل إلى حد المشقة، بالنظر إلى ما حدث لهم.
فى طريق العودة من المركز الاجتماعى كان عبد العاطى يشعر بالغضب، على طريقته راح يقلب الأمر فى رأسه، ما لم يتقدم سليمان لطلب يد ابنته ستری منه فردوس وجها لا تعرفه، ولما جلس فى الصالة التى تسلل إليها ضوء النهار قال إن قدوم أبنائه يونس ومرعى ويحيى لم يعد يحتمل التأجيل.
سليمان كان يتمنى لو تبتلعه الأرض ولا يضع عينيه فى عينى زوج أمه،هو يحب برسكال لكن أمه تصر على الرفض، والرجل لم يعامله هو وأخاه إلا كما يعامل الأب أبناءه، وعلى أمه أن تعرف أنه وقد خاض الناس فى عرض حبيبته واتهموها به لم يعد لرفضها محل، بحث بعينيه عن برسكال، كانت تحبس نفسها فى حجرتها، فهى لم تذهب معهم إلى التحقيق، وظلت طوال الليل تمضع غضبها، فحتى الانتصار على كل أهل الشارع كان على أطلال عفتها، لما اقترب الفجر ولم يصلها خبر أخرجت صرة أمها وفتحتها، وأمام الأوراق الغامضة وقطع الفخار ولفافات الأصباغ جلست تتذكر وتبكى.
بخبرتها مع زوجها تعرف فردوس أن الأصعب لم يحدث بعد، صحيح أنها تتمنى الموت ولا تكون برسكال زوجة لابنها لكن خوفها

منه جعلها تستسلم، فلم يعد فى مقدورها إلا أن تنتظر ما سيقرره، ولما رأت ولديها خاجلين مما حدث ازداد خوفها، وأرعبها أن يهيج عبد العاطى فيعميه هياجه.

بعد يومين شقت العربة شوارع طنبارة وعلى متنها أغراض تجلس فوقها امرأة شحيمة، وفوق العريش الفرسان الثلاثة، يونس ومرعى ويحيى، أمام دار "أبو" عويضة توقفت المهرتان، ونزلت المرأة الشحيمة فقال الناظرون إنها عزيزة، أما الفرسان ذوو الجلابيب الغبشاء والأقدام الحافية والعيون الزرقاء الضيقة فهم أبناؤها، سكنت الحسرة قلوب أهل الشارع وهم يرون بأعينهم اكتمال رهط عبد العاطى، فالدار التى دوختهم أعواما صار رجالها ستة، ونساؤها أيضا، فمن سيقدر على لجم كل هؤلاء؟ كأنما أدرك يونس ما يدور فى نفوسهم فوقف بعد الانتهاء من إنزال الأغراض ومن خلفه أخواه ومسحوا الشارع بأنظارهم، وتراجع المتطفلون إلى أفواه الدور.

كان عبد العاطى قد اشترى دار"أبو" عويضة، دفع جزءا من الثمن على أن تحسب الدار عليه بالإيجار حتى سداد الباقى، من أول يوم لحقت عزيزة بورشة العمل فى دار فردوس، والفرسان الثلاثة كحمالين في مستودع للأسمنت والحديد يملكه رجل من آل سليمان، وسرعان ما أضيف إلى نشاط الدار صنع الأيادى الخشبية للفئوس والكواريك والمناجل والشظايا، وبيع الفئوس والكواريك والعواويق والمناجل الكاملة، برسكال تمدهم بكل هذا، تنتهى من بضاعتها فى الأسواق ثم تتجه إلى الريدانية لشراء لوازمها، من أخوالها وأبنائهم من آل إبليس، ولم تفعل هذا إلا بعد أن صارحت أباها، وبرغم شعوره بالمرارة لم يعترض.

منذ عودته من التحقيق فى المركز الإجتماعى هجر عبد العاطى حجرة فردوس، لكنه لم يذهب إلى دار عزيزة، كل ليلة يأخذ حرامه

الصوفى إلى سطح الدار، ويتأبى عليه النوم فيمعن النظر فى صفاء الليل ويتحدث إلى النجوم البعيدة، وأخيرا استقر على خطة، أمر برسكال بالانتقال إلى دار عزيزة، ولما اعترضت فردوس قال:

- أأتركها تعيش مع من اتهمت به فى دار واحدة يا عديمة النظر؟

طال الهجر فغلب فردوس الشوق وصعدت لتستعطفه، على مدار سنى زواجهما لم يفارق حضنها مرة، أيفارقه الآن؟ وقفت بثقلها فوق آخر درجات السلم وسعلت، وكان مستيقظا فسألته إن كان يسمح لها بالصعود، ولما لم يجبها اقتربت منه فاهتز عرش الدار تحت ثقلها، ولما جلست إلى جواره اتكأ على أحد مرفقيه وقال:

- من الغد سأذهب إلى دار عزيزة

وضعت كفها فوق فمه حتى لا يكمل فأزاح يدها بقسوة، أمسكت بيده وقاومت رغبته فى سحبها وبكت:

- ماذا حدث منى لتفعل بى كل هذا؟ إبنى يريدها فى الحلال لكنه لا يريد الزواج هنا، يريد أن يبنى دارا على رأس الغيط

وبعد طول صمت عادت لتقول:

- ساعتها سيقولون ابن جودة طُرِد من دار أبيه

رجح عبد العاطى أن ابنته أوحت إلى سليمان بهذا، وحتى يأخذ وقته فى التفكير قال متعجبا:

- هنا دار أبيه وهناك غيط أبيه

أحاطت كتفيه بذراعيها السمينين وقالت والفرحة تبكيها:

- ومن أدرانى أنا؟ هو ابنك فافعل ما شئت

رهن موافقته على أن يطلبها منه أحد أعمام ابنها، وفى مساء اليوم التالى تحرك الركب فى اتجاه دار عزيزة، يتقدمه عم سليمان الأكبر، وهناك وجدوا عبد العاطى جالسا فى كامل أبهته، ولما فرغوا من عبارات الترحيب المعتادة طلب الرجل منه يد برسكال لابن أخيه، وفاجأهم عبد العاطى بالرفض، قال إنه إذا قبل بزواجها

ممن اتهمت به سيؤكد صحة ما قالوا، سقط قلب برسكال فى كعبيها، وغامت الدنيا فى عينى سليمان، ونزل الخرس على عمه، وشعرت فردوس بالدوار، فكأن الرجل الذى يجلس أمامها ليس الذى كانت معه على سطح الدار بالأمس.

حانت من عبد العاطى التفاتة إلى ابنته، ولما تقابلت نظراتهما ضيق إحدى عينيه فعرفت أنه يناور، وفاجأهم سليمان بالنزول إلى الأرض يقبل قدميه ليرجع عن رفضه، وانتفض عبد العاطى يجمع ملابسه:

- أستغفر الله أستغفر الله، لكن الأصول لا تغضب أحدا يا بنى، دلونى على طريقة أبرئ بها ابنتى وستكون فى الغد زوجتك

ران الصمت، وهمت فردوس بالحديث فنهرها، ولما فتحت عزيزة فمها رماها ببلغته فسقطت قريبة منها، وعرفت هى الأخرى أنه يخطط لشىء، فبلغته لم تخطئها من قبل، وفكر العم فى الانصراف فخذلته قدماه، فيما عبد العاطى يهدر بالحديث إلى عزيزة:

- أأنت أم الرجال أنت؟ كيف سيكون حال أبنائك وهم يعايرون بأختهم؟ وكيف سيكون حالها وأهل زوجها يظنون فيها السوء؟

عاد ليقول مقطبا:

- شرف ابنتى لا مساومة عليه

جاءت الفرصة للعم فقال:

- اتفل من فمك يا رجل، ابنتك أشرف من الشرف

اجتمع على الصياح خلق كثير، وسمعوا كل ما قال عبد العاطى، ولما بدا أن الحديث لم يعد من ورائه طائل صرخت برسكال وهى تشق ثيابها:

- خذنى إلى طبيب المركز ليكشف على يا أبى، وإذا وجدتنى كما يقولون اذبحنى بيديك، وأنا سأقدم لك السكين بيدى

بعد نقاش طويل اتفقوا على أن تجيء الداية وتفحص برسكال، وأوكلوا إلى العم مهمة إحضارها، ولما رفض الرجل انتفخت أوداج عبد العاطى، ورمى يمين الطلاق على زوجتيه لتكونن برسكال محرمة على سليمان ما لم يتحقق مطلبه، ولما انفض الجمع جلس يحيط كتفى ابنته بذراعه والدموع تسقط من عينيها:

- ما كنت لأجعلهم يعيرونك بما ليس فيك يا بنت عبد العاطى

عندما ذهبت برسكال إلى النوم سقطت دموّعها فوق الوسادة الخشنة، لم تشعر أبدا بمثل الحزن الذى يضرب قلبها، الناس تغامزوا عليها ووصفوها بالعربجية فتخفت خلف شراستها وتغلبت على حزنها، وتفلت زوجتا أبيها فى عبيهما لمرآها فتظاهرت بعد الاكتراث وانتصرت على حزنها، أما هذه المرة فلا شىء هناك لتتخفى خلفه، ستجلسها امرأةغريبة أمامها وتباعد بين ساقيها وتنظر فيها، وشعرت عزيزة ببكائها فنهرتها:

- ما يعرفه أبوك لا يعرفه أحد يا جلابة المصائب، اهتدى بالله ونامى

أرسل العم يقول إن الداية ترفض المجىء وتطلب أن تذهب الفتاة إليها، وصحبتهما عزيزة بعد أن رفض عبد العاطى الذهاب، طوال الطريق لم تكف برسكال عن البكاء، ولما أجلستها الداية ونظرت فيها هللت، قالت إنها عذراء بخاتم عفتها، وأطلقت عزيزة زغرودة جمعت عليهم الجيران، وكان يونس ومرعي ويحيى يختبئون خلف دار الداية، وما أن سمعوا الزغرودة حتى أطلقوا النار فى الهواء، وسرى فى طنبارة كلها خبر براءتها.

بعد أن عادت برسكال من دار الداية حبست نفسها فى الحجرة، ودخل عليها عبد العاطى:

- مثلك لا تبكى يا بنت عبد العاطى، مثلك تمشى ورأسها بناطح النجوم

مسحت الفتاة وجنتيها فاحتضنها، وتنهد والدموع تغلبه، ثم قال بصوت مرتعش:

- أنت يا بنت الكلب أحسن حالا من أبيك، زمان كنت وحدى، لا أب ولا أم ولا خال ولا عم، ولا حتى جبريل، اما أنت فانا معك، أبوك معك

ثم قبل رأسها ومهد للخروج من الحجرة:

- أخرجى إليهم مرفوعة الرأس، وكونى كأبيك، طلوع الروح أسهل من دموعك

أعلنت الخطبة، ورآهم الناس وهم يتوجهون إلى السنبلاوين لشراء الشبكة، وتأخر الزواج إلى ما بعد إتمام بناء الدار عند رأس الغيط، فما كانت برسكال لتتزوج فى دار فردوس فتفقد حياتها المعنى الذى تريد، وهى لا تجوب الأسواق وتعارك الرجال والنساء لتلقى بناتج تعبها فى بطن غيرها، ولن تدخر مليما لحياتها مع زوجها.

لما اكتمل البناء تحدد العرس، واستأذنت برسكال أباها فحضر أخوالها وأبناؤهم من آل إبليس، وحضر أخوة أبيها من أمه، ومعظم أهل طنبارة، أقام عبد العاطى سرادقا كبيرا فى الأرض التى اشتراها فى مدخل القرية، أحيا الشيخ أحمد أبو مجاهد ليلة العرس وسهر الجميع حتى مطلع الفجر، وفى ليلة الدخلة فلحها سليمان فتفجر دم بكارتها، ونشرت فردوس على الملأ منديل عفتها، وبعد انتهاء الدخلة مازحت برسكال زوجها:

- الوحيد فى طنبارة الذى تزوج من عذراء لا شبهة فيها هو أنت يا سليمان ابن جودة

* * *

أخيرا شعرت فردوس بالراحة، خروج برسكال أعاد إليها زمانها المفقود، وحريتها، يكفى أن الفتاة لم تعد فى عقر الدار، أو إلى جوار الحظيرة، أو فى أية حجرة، عشر سنوات كانت فيها محاصرة، و ها هى الآن تتصرف فى دارها كسيدة لا ينازعها أحد، وعاد صوتها يزغرد فى سماء المدحاية، وفى أول يوم بعد زواج برسكال أمرت بناتها بالبحث عن أى أثر لها فى الدار وإبعاده، بقايا حبق البحر الجاف، والرجلة الذابلة، حتى سرير غاية المنى الذى تنام عليه بناتها أمرت عبد المغنى بفك أوصاله وأرسلته إليها، وعندما اعترضت الخضرة صرخت فى وجهها:

- لا أريد شيئا من رائحتها؟

الدار سرعان ما عادت إلى سيرتها الأولى، تباطأ النشاط، إذ لم يعد أحد يقدر على إدارة العمل والخروج به إلى الأسواق، وبتباطئه اضمحلت الأرباح التى تصب فى حجر عبد العاطى، ثم توقف النشاط تماما، عبد المغنى وعبد العاطى فقط هما من كانا يترددان على دار برسكال كل يوم تقريبا، ولخاطرهما دأبت برسكال على المرور بدار فردوس كل يوم، حتى لو قضت بضع دقائق، تطمئن على أبيها وتصل الود مع حماتها العنيدة وأخواتها، وعندما دخل عبد المغنى مدرسة الزراعة الثانوية فى السنبلاوين صارت تزوره هناك، وتتحفه فى كل مرة بما تراه مناسبا، إلى أن استجد أمر قلب دار فردوس رأسا على عقب.

المرحوم رمضان الهجرسى كان على طول زواجه من المرحومة زينب القاضى لم يرزق منها بخلفة، لم يكن يضارعهما فى تربية الماشية أحد، ومن عائدها اشتريا فدانا فى حوض التربيعة إلى جوار نصف فدان كانا يملكانه، يزرعان القطن فيرمى الفدان عشرة قناطير، ويشتلان الأرز فينتج الفدان ثلاثة أطنان، وفى الشتاء

يزرعان برسيما لعلف بهائمهما، لم يفكر رمضان يوما فى الزواج على زينب، كانا يجمعان القرش على القرش ليصير جنيها، والجنيه على الجنيه حتى يصير عشرة، وعندما يتوفر لديهما مقدمة معتبرة يشتريان أرضا جديدة حتى صار لديهما ثلاثة أفدنة من أجود الأراضى، على رأسها ترعة المسلمانية وعند ذيلها مصرف الغنايم، ودار كبيرة وحظائر مليئة بالماشية.

بعد خمس عشرة سنة على زواجهما انقطع طمث زينب، وذهبا إلى الطبيب فأبلغهما أنها حامل، وأنجبا نعيمة، ولم ينجبا غيرها، وفى سن الثالثة أدرك الزوجان أن ابنتهما خرساء، جريا على الأطباء فلم يفلح مع آفتها علاج، باستثناء الخرس كانت الفتاة طبيعية تماما، ومع مرور الوقت صارت بارعة فى قراءة الشفاة واستخدام يديها وأصابعها فى الإشارة، وأسماها الناس نعيمة الخرساء.

كبرت حتى صارت فتاة رائعة، تساعد أمها فى تربية الدواجن والحمام، ومن حصيلة بيع البيض وما يفيض عن حاجة الدار من الدواجن والزغاليل واللبن تكونت لديها ثروة ساعدت على شراء حلى لها، يراها الناس فى الأعراس وهى تتزين بما لا طاقة لفتاة أخرى على التزين به، ولما لم يتقدم أحد لطلب يدها نصبت زينب الشباك حول أحد أبناء أخوتها، وكانت المغريات من القوة بحيث أقدم الفتى على الزواج من نعيمة دون تردد.

من شدة فرحتهما بخطبة ابنتهما أقسم الزوجان ليجعلان من الفتى إبنهما الذى لم ينجباه، واشترطا أن تتزوج ابنتهما فى الدار، وحتى لا يضيقا على الزوجين أضافا ملحقا صغيرا ليعيشها فيه وتكون للعروسين خصوصيتهما، ومرت الأيام ولم تحمل نعيمة، ذهبت مع أمها إلى الطبيب فقال إنها أرض خصبة، وما أن طلب أن يرى الزوج ليجرى له التحاليل حتى قامت الدنيا ولم تقعد، وظل الفتى رافضا الذهاب إلى الطبيب إلى أن سكن الجفاء القلوب، وأشاعت

عائلة القاضى أن نعيمة عقيم كأمها، وإذا تصادف وأنجبت لن تلد إلا معاقين، ووقع الطلاق ولم تكن نعيمة قد أكملت بعد العشرين.

كان الزوجان قد كتبا الأرض والدار لابنتهما، ورحل رمضان فظلت زينب تربى الماشية وتزرع الأرض على الذمة فيما الدار الفسيحة تغلق أبوابها على السكون، مع مطلع كل شهر كان عبد العاطى ينقل إلى دار رمضان ألواح الكسب وأجولة العلف، والزوجان يجزلان له العطاء، وبعد رحيل رمضان صار إلى جانب توصيل العلف ينقل محصول الأرض إلى الدار ويقوم من أجل المرأتين بأمور كثيرة، زينب من كثرة البكاءعلى حظ ابنتها مرضت، دعت أعمام ابنتها وطلبت منهم أن يزوجوها لأحد أبنائهم، والأعمام صمتوا، ولم تكن لترسل فى طلب أخوتها لتطلب منهم مثل هذا، فبعد طلاق ابنتها انقطعت صلاتها بهم، ورحلت زينب وهى مسكونة بآلام أبرح من آلام جسدها.

باستثناء أثرياء القرية وعمدتها القديم لم يكن أحد يعرف طريقه إلى البنك إلا نعيمة، بعد كل زرعة تجمع المال وتضعه فى حساب أنشأته لها أمها بعد رحيل أبيها، وما يتوفر من بيع الماشية يعرف طريقه إلى هناك أيضا، وتحدثت طنبارة عن مئات كثيرة تدخرها نعيمة فى البنك، لم تكن تأمن لأحد ليرافقها إلى البنك فكانت تستأجر سيارةلتأخذها إلى المدينة قبل شروق الشمس وتعود بها مع الضحى، وتعرضت ذات مرة لهجوم اللصوص فنظرت فيمن حولها، ولم تجد سوى عبد العاطى.

فى البداية فكرعبد العاطى فى أن يزوجها لأحد أبنائه، لكنه أشفق على ولده من انقطاع نسله، وأخيرا استقر على أن يتزوجها هو، وبرغم إدراكه أن هذا سيدخله فى عداء مع أهلها وهم يفوقون رهطه عددا وعدة راح ينسج على مهل خيوط مشروعه، وابتسم من طيف

خيال طاف به فرآها وقد أنجبت منه، وصارت ثروتها ملكا خالصا لأحد ذريته.

العمدة القديم الشيخ عبد المغنى سليمان رحل، وقدر عبد العاطى أن غضب فردوس من زواجه بنعيمة لن يتجاوز نطاق داره، لكنه إن فاتحها ستفضحه على الملأ، وسترد له صاع ما فعله فى زواج برسكال من ابنها صاعين، عزيزة وأبناؤها لن يقدموا له أى دعم، فهم لا يزالون غرباء على فردوس وطنبارة، ليس أمامه إذن سوى برسكال.

كانت برسكال قد وضعت طفلتها الأولى، وانتهز فرصة زيارتها والانفراد بها وأبلغها بعزمه، وجلست برسكال متشاغلة بإرضاع طفلتها فيما الغضب يلون ملامحها، وبعد وقت مر عليه كأنه دهر قالت:

- ألا يكفينى ما لاقيت حتى الآن من كره نسائك يا أبى؟ أنسيت أن فردوس حماتى؟ أتريد أن يطلقنى سليمان؟

اكفهر وجه عبد العاطى، كأنه لم يفكر فى هذا من قبل، وبعد صمت مريب قال:

- المرأة لديها ثلاثة أفدنة ودار وحظائر وحساب بالبنك فيه الشىء الفلانى

حرصت برسكال على إخفاض صوتها حتى لا يسمعهما أحد وقالت من بين أسنانها:

- الله الغنى، أبعدنى عن خططك وافعل ما تشاء، لا أريد أن يكرهنى أبناؤك أيضا

سقطت دموعها رغما عنها وهو يسألها:

- أبنائى من يا بنت؟

مدت رأسها إليه:

- فرسانك الثلاثة يا أبى، وأميراتك الثلاث، ورزق، ألن يغضبوا؟

تراجع عبد العاطى مبررا:
- أنا لا أطلب إلا المشورة يا ابنتى، فقط المشورة
وضعت ابنتها إلى جوارها وقالت:
- إن كانت المشورة فأنا لا أوافقك، الهجارسة أهل أبيها ربع البلد، والقضاة أهل أمها لا يقدر عليهم إلا الموت، ستدخل نفسك وتدخلنا فى عداء لا نقدر عليه، وإذا كنت تظن أن الأمر سيمر كغيره فلا تنسى أن العمدة كان واقفا فى ظهرك وأنت تتزوج فردوس، من سيكون فى ظهرك هذه المرة؟
قال متغلبا على غضبه:
- دعيك من الهجارسة والقضاة، المهم هو رأيك
قالت وهى تتظاهر بالانشغال بابنتها:
- رأيى قلته وليس عندى غيره
نظرت إليه متعجبة:
- ثم من أين عرفت أن نعيمة ستقبل؟ إنها فى عمر أولادك
غضب عبد العاطى، لكنه لم يكن يريد أن ينهى الحديث فقال:
- لا يصح أن تتركينى بعد كل ما فعلته من أجلك
لأول مرة تتجرأ عليه، مسحت بسبابتها على حاجبيها وسألته فى سخرية:
- وماذا فعلت لى أكثر مما يفعله أب لابنته؟
- أنت كالقطط يا بنت غايته، تأكلين وتنكرين
ولما لم تجبه قال:
- طوال كل تلك السنين كنت أبوك وأمك
- لا أنكر، كنت أبى وأمى، وأنا كنت شريكتك، أكلت منى العربة راقات وكنت أجوب الأسواق وأضع كل شىء فى حجرك
تمسكن:
- ومن زوجك من سليمان ليصونك ويستتك؟

شهقت:

- أنا من زوجت نفسى من سليمان، وأنت وضعت بصمتك، بدلا من أن تضعنى فى مواجهة أبنائك إعطنى ثمن دار أمى، أو اطلعنى على عقد الأرض لأرى إن كان اسمى فيه

انزعج عبد العاطى:

- أغلقى هذا الباب الآن

التفتت إليه، وكانت قد أدارت الأمر فى عقلها فقالت:

- دعك من نغمة النسوان هذه وخلص ضميرك، سلمنى مالى أو عقد بحصتى فى الأرض، لا تضيعنى مع أولادك، أنت كبرت وصرت جدا

داخله اليأس، لكنه تصنع الغضب وقال:

- من هو الذى كبر يا بنت؟ أنا أصبى منك ومن أخوتك، طيلة عمرى لم آخذ حبة دواء واحدة

ضحكت:

- كفاية عليك الأفيون

فشوح بيده و هو يقول:

- اصمتى، عشرون عفريتا يتنطظون فى وجهى الآن

ضحكت:

- حابس حابس، اتراك نسيت من أنا؟ عفاريتكم لو بلغوا ألفا سيجلسون عند قدمى ويهزون ذيولهم، أنا ابنة الشيخة غايته يا عم عبد العاطى

- قطيعة تقطعك وتقطع سيرتها

وغضبت برسكال:

- أهذه هى الرحمة التى ترسلها إليها؟

تراجع:

- أنت يا بنت الكلب تعصبينى

- عندما أنصحك وأطلب حقى أعصبك؟
أدرك أن الأمر سيفلت من يده فامسكها من كمها:
- فقط إسأليها، لن يعرف أحد شيئا، إن وافقت خير، وإن رفضت خير أيضا، أما فلوسك فأنت ست العارفين، اشتريت الأرض وكنت أيامها قاصرا، وبقدر فلوسك سأكتب لك حصتك
أصرت:
- عرفنى الآن قدر حصتى
أجابها فى استسلام:
- لك النصف
سكن عصفور صدرها، وحتى لا تتركه يمضى غاضبا قالت:
- وهذه الخرساء كيف ستجيبنى إن شاء الله؟
انتصر عبد العاطى، كانت تعرف أباها كما تعرف كف يدها، هو لم يسرق فردوس، ولا سطا على أرض ولديها، ولا احتل دارها كرها عنها، لكنه توارى خلف كل هذا ليؤسس وجوده فى طنبارة، ولو لم يفعل لما صار كما هو الآن، جرب هذا الأمر مع أمها، لكن الأقدار أفشلت خطته، وإذا كانت عزيزة تجلس فى دار "أبو" عويضة فى حمى أولادها، وإذا كانت فردوس أنجبت منه ولدا أخواله نصف القرية تقريبا، إلا أن الدار لم تعد كما كانت، والعمل فى الشونة لم يعد كما كان أيضا، والمرأة التى يريد أن يتزوجها وحيدة ومعطوبة، ولديها كل ما يقول، ما العيب أن يدخل السعادة عليها ويهنأ بمالها، لن يسرقه أو يبدده، فقط يسعدها وتسعده، ويؤكد وجوده فى طنبارة، وإذا استطاعت أن تخفى ما دار بينهما فبإمكانها سؤال المرأة وتلقى إشارتها، وبعدها تنسل من الموضوع كما تنسل الشعرة من العجين.
لا تعرف أن أباها بدأ مشروعه مبكرا، فعلى مدى أشهر كان يرسل إلى نعيمة إشارات تشى برغبته، يذهب إلى الدار حاملا فوق

عربته العلف، يطرق الباب وعندما تخرج يطرق إلى الأرض خجلا ويشرع فى حمل الأجولة وألواح الكسب إلى حيث يتم تخزينها، وعندما ينتهى يسألها إن كانت تطلب شيئا، وإذ يراها صامتة يتطوع بالدخول إلى الحظيرة والتأكد من إحكام ربط الماشية ووجود العلف فى مزاودها، فالعمال الذين يعملون لديها لم يعودوا ينشطون مثلما كانوا أيام أمها، لا يناديها إلا بست نعيمة، وفى وجوده لا يتركها تحمل بيديها حتى الياسمينة، وفى مطلع كل شهر يصحبها فى مشوار البنك، وذات مرة رآها ترقبه بإعجاب لم يغب عن فطنته فقال إن الوقت حان، لهذا فإن برسكال ما أن سألتها إن كانت تقبل الزواج منه حتى أطرقت إلى الأرض وهزت رأسها موافقة.

كيف علمت فردوس بعزمه؟ هذا ما لم يعرفه أحد، كل الأصابع راحت تشير إلى عبد الراضى، فأرض نعيمة مجاورة لأرض جودة، ولا بد أنه رأى زوج أمه هناك هو وأبناءه، فمنذ رحلت زينب صار هو وفرسانه الثلاثة يشرفون على زراعة الأرض والتعامل مع مستأجريها، وسواء كان عبد الراضى هو من أبلغها أو غيره فإنها علمت، واشتعلت النار فيها، وفاجأت الجميع بالخروج إلى الشارع، ولما أصبحت فى منتصفه راحت تسب اليوم الذى رأت فيه عبد العاطى، وحاولت الخضرة منعها فحرنت وتشبثت بالأرض وراحت تنثر التراب فوق رأسها، لم ينه الموقف إلا خروج عبد العاطى من الدار، وأمام الجميع قبض على شعرها وجرها إلى داخل الدار جرا، وظلت تصرخ فى عقب الدار حتى سقطت مغشيا عليها.

منذ تزوج غاية المنى ثم هجرها وتزوج من فردوس وأقام فى طنبارة رمت عزيزة طوبته، وعندما علمت بخبر انتوائه الزواج من جديد سخرت، ففردوس فى النهاية ستشرب من الكأس الذى سقتها منه، وستتجرع مرارته، لكن عبد العاطى نظر إلى الموضوع بطريقة حماته الراحلة، فوراء كل معركة خاسرة يبقى شيء،

والشيء الذى بقى بعد الفضيحة هو أن فردوس علمت، وأزاحت عن صدره هم إبلاغها، ولم يكن يعرف كيف سيزيحه، وبعد يومين لزم فيهما دار عزيزة دخل على فردوس فى عقر الدار وقال:

- سأتزوج نعيمة يا بنت الناس، إن أردت أن تظلى على ذمتى جعلتك الألفة بين زوجاتى، وإن أردت الطلاق سآخذ خلقاتى وأرحل

لما صمتت أردف:

- لا أتزوجها فراغة عين، أو لأنها أجمل منك أو أأصل، لا سـ... الله، أتزوجها لأن أرضها ودارها وحظيرتها تحتاج إلى من يرعاها، ونحن أولى برعايتها

واستدار لينصرف وهو يقول:

- وهذه آخر مرة نتحدث فيها فى هذا الموضوع

لم تبرئ فردوس برسكال، قالت إن الأسرار التى تجمعها بأبيها لا يمكن أن تكون قد خلت من بحث هذا الموضوع، وعزمت على أن تشكوها لسليمان، ولما أمعنت التفكير فى الأمر عدلت عنه، فهى إذا اتهمت برسكال لن تجنى إلا الندم، وإذا لام سليمان زوجته سيصل الأمر حتما لعبد العاطى، وليته سيكتفى بالغضب، فالشيطانة ابنته تركب رأسه كما يركب الرجل مطيته الوديعة، وهو منذ علمت بخبر انتوائه الزواج من نعيمة وفضحته على الملأ لم يرد على إهاناتها، وجمعتها جلسة مع عزيزة فتباحثتا فى الأمر، قالت عزيزة إنها توافقها على أن الشيطانة هى من دبرت هذه الزيجة، ونظرت كل منهما إلى الأخرى فكأن عيونهما تقول نفس الشيء، وتكرهها نفس الكره، وقالت عزيزة تسرى عن نفسها:

- أمى عرفته من أول يوم، فعندما شكوت لها زواجه من ابنة إبليس قالت إنه من الذين لا يقنعون بزريبة واحدة

كأنما مسحت على صدر فردوس التى قالت:

- ألله يرحمها كانت صائبة النظر، لو أعرف ما الذى يعجبه فى تلك الخرساء؟

أجابتها عزيزة:

- أصحيح لا تعرفين؟

انضمت نعيمة إلى نساء عبد العاطى وهو فوق الخمسين، دخلته عليها كانت يوم خميس، أنهى عمله مبكرا وتحمم فى دار عزيزة بصابونة معطرة ثم ارتدى أفخر ثيابه وخرج إلى مقهى النبوى، وبينما هو يمضغ فص الأفيون راح يرشف الشاى على مهل، كان مشوشا لكن بدون تردد، فما الفارق بين أن تكون خرساء أو تتكلم؟ شىء فى داخله يقول إنه لن يهنأ بها كما يجب، فهو رجل يحب أن تتجاوب معه امراته، تحدثه ويحدثها، وفردوس صعبت على كل النساء مهمة إرضائه، ولكن من ادراه، فربما تمتلك مواهب تفوق الكلام.

تزينت له كما لم تتزين زوجة من قبل، حتى غاية المنى، وكان جسدها الرائع محتشدا بأشواق قاتلة، ولما اقترب منها هجمت عليه، وبفضل فص الأفيون ظل يباشرها حتى صرخت مستنجدة بقوى غامضة، وشعر بأن همتها ورشاقتها عوضتا كل شىء، وعندما دخلت فى حضنه وقبضت على رقبته بعد فراغهما شعر بأنه يحبها كثيرا، فلا أحد لها فى الدنيا سواه.

سبق دخوله بها مناوشات مع أعمامها وأخوالها، لكنها لم تصل إلى شجار، كانوا يناوشونه على استحياء، فهم أول من يعرف أن غضبتهم مظنون فيها، فمن من أهل طنبارة نسى أن نعيمة طليقة ابن خالها؟ وأن كل حبال القربى بينهم تقطعت؟ ومن منهم نسى صمت أعمامها عندما طلبت منهم أمها وهى على فراش الموت أن يزوجوها لواحد من أبنائهم؟

عقد عليها فى المدينة بعيدا عن الأعين ثم أعلن الخبر، ولما جلس قضاة العرف ليفصلوا فى المسألة حكموا بأن ما فعلته نعيمة ليس فيه ما يغضب، تزوجته على سنة الله ورسوله، وكانت تجلس بين الناس ودموعها لا تكف عن الجريان، ولما سألها كبير القضاة إن كانت تزوجت برغبتها اتجهت إليه وأمسكت بذراعه، ثم أومأت بالإيجاب، وفى آخر الجلسة طلبت بلسان عبد العاطى أخذ التعهد عليهم بعدم التعرض لها ولزوجها، ووقعوا التعهد الذى أعدّه مسبقا لدى أحد الكتبة العموميين.

أخيرا ظهرت فى حياته الزوجة التى ترعاه حتى وهو فى العمل، فى ظهر كل يوم تعد له طعام الغذاء وتذهب إلى الشونة، إذا وجدته تعطيه غذاءه وتمضى معه بعض الوقت ثم تعود، وإذا كان فى مشوار تنتظره، وقد يراهما الناس وهى تطعمه بيديها، كل يوم يأكل مع الأرز لحما مسلوقا أو دجاجا، عوضا عن الخبز الجاف والجبن الذى تعده له فردوس وعزيزة.

لم يكد يمر شهر حتى حملت نعيمة، عم الخبر القرية كلها، وأكلت نار الحقد أقاربها فحاولوا التحرش بعبد العاطى، وإذ أدرك أن نعيمة صارت ملكه تعمد أن يقاتلهم وحده، كان التحرش فى حدود السب والتعريض به وبمهنته، لكنه كان مشتاقا لشجار حقيقى، ليس كشجاره مع دار الشبراوى، وإنما شجار يدافع فيه عن عرينه، يعلى فيه رايته وينتصر على هزائمه، قديمها وحديثها، تعمد الخروج إلى الغيط ومعه نعيمة، حتى يريهما نفسه، ورآهما أبناء أعمامها فهجموا عليه يريدون الفتك به، وظهر نبوته، طالته ضربات أسالت قطرات من دمه، لكنه أوسعهم ضربا، وطاردهم فى الغيطان حتى اختفوا عن ناظريه، وكانت بعض الضربات قد طالت نعيمة وهى تحاول نصرته، وتجمع الناس حوله وهو يصيح على الفارين بأعلى صوته:

- عودوا يا أبناء الهجرسى، عودوا لأعرفكم من يكون عبد العاطى ملش

وفى طريقه العودة إلى الدار وضع نعيمة فوق ظهر المطية وأجاب كل من يسأله بأن أعمامها وأبناءهم اعتدوا عليها ليسقطوا حملها.

أغلق من دونهما الباب ونحى عن نعيمة ملابسها، ولما أدرك أن الإصابات لا تتعدى بطحة فى الرأس هوى بفمه على بطنها ومصها بقوة فتجمع الدم، صار لونه أحمرا، وسرعان ما ازرقت حوافه فبدا ككدمة كبيرة، وملأه شعور بأن زواجه منها تدشن وصار أبديا، وحملها فى سيارة أجرة إلى المستشفى، وهناك تم حجزها، وحققت شرطة المستشفى، اتهمت على لسانه أبناء أعمامها بتعمد إسقاط حملها، طمعا فى مالها وأرضها، وبعد إتمام السؤال سقط عبد العاطى مغشيا عليه فحجزوهما معا فى المستشفى.

لما هرع أبناؤه إلى المستشفى طمأنهم، ونبه عليهم بعدم التصرف بحمق، كان المركز قد أبرق إلى نقطة الشرطة فى طنبارة للقبض على المعتدين، وأودعوا سجن المركز حتى يخرج الرجل وزوجته سالمين، وظل عبد العاطى ونعيمة فى المستشفى إلى أن بدأ قضاة العرف يمهدون لتحقيق لم يرض عبد العاطى إلا أن يكون مقابل مائتى جنيه، يدفعها المخطئ لمن له الحق، وصدر قرار النيابة بحبس أبناء العم أربعة أيام على ذمة التحقيق، ثم تجدد الحبس لمدة خمسة عشر يوما، وتضامن الأعمام فجمعوا المائتى جنيه بعد أن استدانوا معظمها، وجرى التحقيق فى غيبة المحبوسين فقضى بتغريم الأعمام المائتى جنيه بكاملها.

* * *

استيقظ عبد العاطي ذات يوم على حلم غريب، رأى نفسه مطروحا فى النعش والناس يحملونه ويمضون به، ورآهم يضعونه فى القبر ويغلقون عليه بالطوب والأسمنت، وفى ظلام القبر رأى وجه عمه، عيناه تتقدان كجمرتين، حاول النهوض والخروج من الكفن فلم يستطع، أعضاؤه كلها كانت عاجزة، وصرخ، لكن الصرخة لم تغادر حلقه، واستيقظ وهو يجاهد ليلتقط نسمة هواء تعيده إلى الحياة.

مد يده يتفقد الحجاب القديم الذى صنعته له غاية المنى، ولما تيقن من وجوده شعر بالخوف، فلقد مرت سنوات طويلة لم تهاجمه فيها الكوابيس، ولما مد يده ليوقظ فردوس لم يجدها، وتشوش ذهنه، لا يعرف إن كان ينام فى سريرها أم في سرير نعيمة، وبعد قليل استيقظ وأدرك أنه لا يزال مسترسلا فى الحلم، ورأى فردوس تضع فخذها السمين فوق خصره وتستغرق فى النوم.

وهو يطس وجهه بالماء تمنى أن لو كانت برسكال موجودة، لم يمنعه الشرود من الخروج، فبرغم أن العمل لم يعد كما كان، والشونة فارغة إلا من اجولة قمح متروكة للندى والعصافير وشكائر أسمدة قديمة جمدتها الرطوبة، وبرغم أن الفلاحين لم يعودوا يقصدونها إلا فيما ندر كان يواظب على الذهاب كل يوم، وفى معظم الأيام يعود دون الظفر بنقلة واحدة.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، أوقف العربة إلى جوار البوابة وربط المهرتين إلى عريشها ثم وضع أمامهما مخلاة التبن وجلس يدخن، الضباب يلف المكان فلا يرى لاكثر من أمتار، وعاد ليفكر فى الحلم، بدا له الموت شخصا يتعقبه، وبدا عمه كأنه يراقبه، وأخرجه ظهور أمين الشونة من أفكاره فقام ليصافحه، كان الأستاذ

ميشيل قد رحل وحل محله أمين جديد، وسأله عبد العاطى إن كان هناك عمل لهذا اليوم فقال الرجل إنها نقلة واحدة.

على الطريق ترك للمهرتين مهمة جر العربة وعاد ليفكر فى الحلم، هل كان كغيره بعضا من خرف النوم أم أن الحجاب القديم لم يعد يحصنه؟، الذين رأوه شاردا قالوا إنه ليس عبد العاطى الذى يعرفون، فهو لا يبادرهم بالمزاح كعادته، ولا يرفع يديه محييا أو يرد على تحياتهم بالصباح الجديد.

قرب الظهيرة عاد إلى الدار، ورأته فردوس فشهقت:

- مالك يا امرأة؟ أرأيت عزرائيل؟

أجابته وهى تتكلف الإبتسام:

- بعيد الشر عنك وعن السامعين

ولما غمغم بكلمات لم تتبينها أردفت:

- أصلك لم تفعلها من قبل

بعد قليل من الصمت قال:

- ها قد فعلتها فهل تمانعين؟

سألها إن كانت برسكال جاءت كعادتها كل يوم فأجابته بالنفى، وقبل أن يغلق عليه الباب قال:

- عندما تجىء أبلغيها أننى أريدها

ثم استدرك:

- أو ارسلى فى طلبها

ولما رأى الخوف يملأ ملامحها قال:

- لا أريد أن يزعجنى أحد حتى تجىء

اجتهدت فردوس لتخفى قلقها، وسمعها تقول:

- أنا أعرف، قدم الخرساء شؤم

طالت الجلسة بينه وبين برسكال إلى ما بعد العصر، هى تجلس عند حافة السرير وهو يحكى، حكى عن كل شىء إلا وجه عمه ذى

العينين المتقدتين، خشى أن تسأله عن سر ظهوره هو بالذات، وقد يزل لسانه، وابتسمت برسكال فى غموض، ثم ربتت على صدره ونادت على فردوس لتعد الموقد، فأبوها محسود ويجب رقوته، ويجب تبخير الدار، كانت تدارى حزنها وتتظاهر بالمرح، فلأول مرة ترى الجبل الذى لم يداخلها يوما الشك فى قوته ضعيفا وخائفا.

عندما قال لها ذات مرة إنه كان يتظاهر بالبأس فيما ركبتاه تصطكان من الخوف لم تصدقه، وهى الآن تصدقه، فلقد اقترب من الستين وصار عجوزا، فى الماضى كان يدارى الخوف وراء فتوته، وصخبه، ونزقه، وغنائه، ونسائه، الآن لم تعد فتوته مضطرمة، وصخبه القديم تبدد فى الهواء، لم يبق منه إلا أقل القليل، كأن يسهر فى مقهى إلى ما بعد صلاة العشاء، وبينما يتظاهر النبوى يهز رأسه كأنه يسمع فيما هو ساقط فى النوم يواصل عبد العاطى الحديث عن ذكرياته، أما نزقه الوحيد فهو أن يعود متأخرا فيتسلل إلى سرير فردوس، أو إلى دار نعيمة لينام على الكنبة فى الصالة أو فى سريره وحده، فمنذ فترة طويلة لم تعد نعيمة تنام إلا فى سرير ابنها، وقد تستيقظ كل ذكرياته فجأة فيسب زوجاته ويهددهن بالهجر، ثم يهدأ كأنه لم يفعل شيئا، وهو لم يعد يغنى، فقط يسرح فى الفضاء مخترقا بعينيه حجبا كثيفة أو يغمضهما، كأنه يبحث عن الغناء بداخله، كأن الأيام سرقته، فتحت كل أبوابها ثم انسحبت تاركة إياه للحقيقة العارية، وهى أنه يخاف الموت.

من حقه أن يقلق، هذا ما قالته لنفسها وهى تجهزه للرقيا، من حقه أن يحزن، وأن يضجر، فالرجال فى هذه السن يطرقون أبواب الطفولة فى خجل، ويحبون أن يعاملهم أبناؤهم كأطفال، ولكن بغير طلب، وهى الوحيدة التى تعرف ما به، وحتى تجعله سعيدا بالتفافهم حوله ولهفتهم عليه فلتجعله فى بؤرة اهتمامهم ولو لساعات، وهى على يقين من أنه لم يرسل فى طلبها إلا لأنه يريدها أن تدلله، تسمع

له وتدلله، بحثت عن ورقة وصنعت منها عروسا، وأخذت تمسح بها على رأسه وصدره وتتلو بصوت مسموع:

- رقيتك واسترقيتك، من عين من رأوك وحسدوك وما صلوا على الحبيب النبى، من عين المرة فيها شرشرة، من عين الراجل فيها مناجل، من عين الولد فيها وتد، ومن عين من رأوك وحسدوك ولا صلوا على الحبيب النبى

دخلت فردوس حاملة النار ومن خلفها عزيزة فأكملت الرقوة فى حضورهما، فيما أبوها يمتثل ليديها ويغلق عينيه، الطفل بداخله كان سعيدا بما تفعله، وجاءه صوتها العريض يكمل ما بدأ:

- سيدنا النبي رقى ناقته من رفاقته، كانت عليل صبحت تشيل الحمل الثقيل بإذن الله العلي القدير، سيدنا النبى شاف العين سارحة قال إلى أين يا غدارة؟ قالت إلى الولد فى كتابه والجاموس فى حلابه والمال وأصحابه والرجل فى شبابه، قال ارجعى يا ملعونة . . .

عبقت الدار برائحة البخور، وبعد أن انتهت الرقوة بحثت فى جيب صديريته عن مسلة وراحت تخزق بها عينى العروس وتتفل فى وجهها، ثم وضعت العروس فوق النار، وفوقها قطعة شبة، وفى لحظة تشكلت الشبة فى صورة امرأة جالسة، وانضمت إليها عزيزة وفردوس ليبحثن عمن تكون حسدته، وبان من نظراتهما أنهما تلمحان إلى نعيمة، ولما قالت فردوس:

- ما يحسد المال إلا أصحابه

وجاوبتها عزيزة:

- معلوم

شعر عبد العاطى بالضيق، وحتى لا ينفجر فيهما انتقلت برسكال إلى مرحلة جديدة:

- فص الشبة لا يكذب

وتهكمت فردوس:

- الشيخة برسكال جابت الذئب من ذيله
وهمست لعزيزة:
- البنت التى لم تركعها مرة ولا صامت يوما تقابل به وجه كريم عاملة فيها شيخة
انفجر فيهما عبد العاطى:
- شخيتى ولعة أنت وهى
واختص فردوس:
- غورى من وجهى يا أم فلايط
ثم التفت إلى عزيزة:
- وأنت يا أم جناخير
ضحكت برسكال:
- إعذرهما يا أبى، من لا يعرف يقول عدسا
ثم التفتت إليهما وهما تقفان عند الباب ومن خلفهما البنات وعبد المغنى، ولما رأتهم واقفين جميعا قالت لتمعن فى إسعاده:
- عبد العاطى مئش من أولياء الله الصالحين، كل ولى وله علامة، وعبد العاطى أمه آمنة، وأبوه مات وهو فى بطن أمه، وهو ابن خمس سنين تركته أمه فوضعه أعمامه فى زرائبهم، وظهر جبريل، أبوكم أرسل الله له فى ظلام غرفة التبن جبريل، علمه كما يعلم الأب إبنه، ورعاه كما ترعى الأم إبنها، أليست علامة؟ لم تنكشف عورته على امرأة غيرحلاله، لم ينهب أو يسرق أحد، ولا حسد أحدا على مال لديه، أو لد، أليست علامة؟
أمعنت النظر فى وجوههم وقالت:
- لو الأمر بيدى لأقمت له مقاما فوق الربوة، إلى جوار ستنا المحارزة

جاءت نعيمة مسرعة وخلفها ابنها الصغير رمضان، وتغامزت المرأتان، فردوس وعزيزة، ولما وجدته نعيمة ملقيا على السرير ارتمت فوق صدره وبكت، ونهرتها برسكال:

- ستفسدين الرقيا ببكائك يا امرأة

قال عبد العاطى فى تأثر:

- دعيها يا برسكال، دعيها يا ابنتى، إنها أرقهن قلبا، وكان حقى أن أذهب إلى دارها بدلا من وجودى بين هاتين العقربتين

فى الصباح قال ليونس إنه لن يقدر على الخروج، وخرج يونس بالعربة، وعبثا حاولت كل من فردوس وعزيزة معرفة السر الذى جمع بينه وبين برسكال، لكنه لم يبح بشىء، كل ما قاله إنه لم يعد قادرا على العمل كل يوم، ومن الآن فصاعدا لن يعمل فى الأسبوع سوى ثلاثة أيام، وفى الأيام الأخرى سينوب عنه يونس، واضطربت فردوس، لكن الفرحة غمرت قلب عزيزة، فأن ينوب ابنها عن أبيه يعنى أن الزمن ربما يكون قد بدأ فى العمل لصالحها.

كان عبد العاطى راضيا عما فعلته برسكال، وبرغم هذا تحسر فى داخله: "آه يا بنت الكلب لو تنسين ثمن دار أمك ونصيبك فى الأرض لصرت أجمل بنت حظى بها أب فى الدنيا"، انتصف النهار وهو نائم، ولما حاولت فردوس التقرب منه نهرها، وتقبلت خشونته، فهو ليس سيئا على طول الخط، إنه يغضب ويسب، وبعد دقائق يعود إلى صفائه، وإذا جاءت غضبته قوية تعقبها ليلة تجب ما قبلها، فهو يعرف كيف يحب النساء، حتى وهو فى هذه السن، لكن بقاء السر محبوسا بينه وبين ابنته يغيظها، وهى لن تستسلم، ستستدرج سليمان فربما حكت له برسكال شيئا.

قرب العصر أخذته سنة نوم فرأى نفسه فى مكان فسيح، ورأى رجلا ملفوفا فى كفنه وليس من حوله أحد، اقترب منه وكشف عن وجهه، وإذا به هو، ولكن بملامح عمه، وقف ينظر إلى نفسه والكفن

يضمه، هو على يقين من أنه هو، لكن الملامح الميتة هى ملامح عمه، تماما كما رآها وهو ينسل من تحته قبل أن يفر إلى عريشة الغيط القديمة، لم يكن قادرا على فعل شيء، حتى الصراخ، واستيقظ على صوت نحيبه.

أغْلِقَ عليهما الباب من جديد، واحتضنت برسكال رأسه، قبلتها وقالت إن ما يراه طبيعى تماما، ففى الحلم الأول كان مدفونا فى قبر ضيق، والآن فى جرن فسيح، بقى أن يمكث فى الدار يوما آخر لتنفك قيوده ويرمح فى المدحاية كما يرمح مهر صغير، وزغزغته تحت إبطيه فحاول التخلص منها وهو يمنع نفسه من الضحك، ثم نزعت حجابه القديم ووضعت بدلا منه حجابا أعدته بنفسها، وأرادت أن تمازحه لتسرى عنه فسألته:

- بعد أن تكتب لى نصف الأرض كما وعدت، وبعد عمرين طوال يا أبى، لو خيرت بين نسائك من منهن تريدها زوجة لك فى الجنة؟

تجاهل حديثها حول نصيبها فى الأرض وابتسم وهو يمسح عينيه:

- أختار فردوس

ضحكت:

- فى الجنة نساء بعدد براغيث الست يا شيخ عبد العاطى، ألا تجرب صنفا جديدا؟

نهرها فى مزاح:

- قومى يا بنت الكلب من هنا

- بنت كلب لأننى أقول الحق؟

- كسر حقك

وتصنعت الغضب فقالت وهى تتأهب للدورة الثانية من إطلاق البخور:

- برغم تجاهلك لموضوع الأرض لن أعاملك بمعاملتك يا شيخ عبد العاطى

ربت على كتفيها فى امتنان، ثم التمعت عيناه بفكرة أعادت إلى وجهه الشاحب نضارته:

- قولى لى يا بنت يا برسكال، هل سيكون للرجل فى الجنة امرأة واحدة؟

استغرقت فى الضحك واضعة كفها فوق فمها:

- فى الجنة لك منهن ما تشاء، هناك سيقولون لك جرب يا ابن آمنة الأنواع الجديدة، أنت تعرف طبعا أنهم لا ينادون الناس فى الجنة إلا بأسماء أمهاتهم

نظر إليها فى حنان:

- إذن سأختارهن جميعا

بعد قليل من الصمت قال:

- أنت حبيبة أبيك يا برسكال، وأنا لا أتحرج من الحديث معك

ثم رنا ببصره إلى بعيد وقال كأنه يحلم:

- فى خيالى امرأة يا بنت ليست ككل النساء

همست فى أذنه:

- خفض صوتك يا مولانا، سننال من زوجاتك ما لا يسرنا

فى اليوم الثالث خرج من الحجرة يتمطى، ذهبت عنه آلامه، لكن انشغاله بالأحلام جعله منحرف المزاج، وحتى لا يناكفه أحد أكمل ارتداء ملابسه وأخذ طريقه إلى دار نعيمة.

خطاه كانت قد تباطأت فى اتجاه الدار التى عمرها بوجوده، فمنذ أنجبت نعيمة وهى لا ترى إلا فى شرفة الدار تناغى إبنها، أو فى صالة الدار تطعمه، أو إلى جواره تهدهده ليروح فى النوم، ولما رأى أنها أهملت كل شىء دفع بيونس وأخويه ليباشروا الحظيرة إلى جانب الأرض، فكانوا يستيقظون مع الفجر ويقصدون إلى الدار لممارسة أعمالهم، ويباشرون الغيط مستفيدين من خبرات سليمان

وعبد الراضى، أما برسكال فكانت من نفسها تمر بالدار كل يوم لترى رمضان الصغير، وإن كان هناك ما تفعله.

رغم مرور سنوات على زواجها من سليمان لم تعد تلح عليه ليكتب نصيبها فى الأرض، فلقد أجلسها ذات يوم وحكى لها عن اقتراب تحقيق حلمهما الكبير، وبعد أن كانت ترى الحلم من بعيد صار متحققا كطفل صغير، وكانت وهى جالسة تبيع فى الأسواق ترى المصنع يفرد قلوعه كمركب كبير، وهى وزوجها وأبناؤها يقومون على أعمالهم فيه، وعندما يجهد الحلم روحها تنكفئ على نفسها وتشعر بالخوف، فماذا لو أن كل هذا توقف عند حدود الحلم؟ وذات مرة أخذتها الحماسة فقالت لأبيها:

- نذر على يا شيخ عبد العاطى لو أقمت من اجلنا هذا المصنع لأبنين لك مقاما إلى جوار ستنا المحارزة، ولأقيمن لك مولدا تأتيه الصوارى من أنحاء المديرية

استخفه الفرح فقال:

- وتزرعى حول المقام نبات الجنة

ابتسمت لفرحته:

- أتقول فيها، سأزرعه حول المقام وأبارك به كل قاصديك

شىء ما جعلها ترى فى رمضان الصغير أحد أبنائها، وتمنت لو أن نعيمة سمحت لها باصطحابه إلى دارها ليلعب مع أبنائها، فنعيمة تحيط به كما يحيط السوار بالمعصم، حتى المناغاة والمداعبة ممنوعة على أحد غيرها، وعندما يضعه عبد العاطى فوق كتفيه ويطوف به هنا وهناك كانت تلاحقه لتأخذه منه، لكنه كان يقاومها ويبتعد، ويظل يتحدث إلى الطفل عن أحلامه، وعن مستقبله فى مشروعه الكبير، وكان يرى نفسه جالسا أمام بوابة حلمه والماكينات تهدر، ورصات أجولة العلف تتهيأ للسفر.

ذات مرة وهو سارح بنظره إلى بعيد قال لبرسكال:

- سأفقد عقلى عما قريب يا بنت يا برسكال، المصنع الذى يسكننى لم أعد أعرف إن كان سيتحقق أم سيظل حلما، كل يوم أجد أن تحقيقه صار أصعب من اليوم الذى سبقه

تفلت فى عبها:

- فأل الله و لا فألك يا شيخ، أوقعت قلبى ألله يسامحك

اعتدل فى جلسته وقال:

- أتحدث بجد، اشترينا الأرض وقلنا حققنا نصف الحلم، وكلما سألت عن أسعار الماكينات وتكاليف البناء يصيبنى الرعب، تضاعفت يا بنت عبد العاطى

حتى لا يتمكن الخوف منها قالت مهونة الأمر:

- إذا كانت سعر الماكينات ارتفع مرة فثمن الأرض ارتفع مرات، وثمن العلف صار أضعافا

ورأى أنها تلمح لشىء فقال:

- ولكن الأرض لا تدش الحبوب ولا تعبئ الأجولة يا بنت عبد العاطى

وفهمت أنه يعرف ما تقصد فقالت:

- وكذلك الماكينات، فهى لا تركب فى الهواء يا شيخ عبد العاطى، وإذا كانت إقامة المصنع أصبحت مستحيلة نبيع الأرض ويأخذ كل منا حقه

إنطلق يقهقه فى عصبية:

- أبيع ماذا يا بنت غايته؟ أبيع حلمى؟

* * *

البحراوية هى آخر زيجات عبد العاطى.

كان قد عاد ليقضى معظم أيامه لدى نعيمة، لا يعود إلى دار فردوس إلا إذا غلبه الشوق إليها، فحتى تكسبه نعيمة فى صفها بدأت فى تقسيم ريع أرضها بينهما، الثلثين لها والثلث له، ففى غيابه تظل هى وابنها صامتين من أول اليوم إلى آخره، أما فى وجوده فالطفل يتحدث إليه ويسمع منه، ولأنه يدرك مبلغ قلقها على أبيها تسرب إليه القلق فقال إن الصغير - الذى أصر على إطلاق اسم شبان عليه فى أوراق الصحة وأصرت هى على تسميته رمضان على اسم أبيها - هو الأولى الآن برعايته، فكل أبنائه كبروا وتزوجوا.

كان قد عرف طريقه إلى البنك هو الآخر، لكن نعيمة لم تعد كما كانت، صارت لا تفعل شيئا إلا رعاية طفلها، ومع مرور الأعوام كبر الولد والتحق بالمدرسة الابتدائية الآن هرية بناء على طلبها، واستقدمت ترزيا خاط له جبة وكاكولة وقفطانا مقصبا، وارسلت من اشترى له من المنصورة طربوشا صغيرا وعمامات عدة، ولم تعد عيناها ترى سواه وهو يخب فى ملابسه الجميلة، وجلس عبد العاطى ذات يوم وقال لنفسه: "ها أنت يا سبع البرومبة متزوج من ثلاث نساء ولا تجد من بينهن من تشعرك بالبهجة، فعزيزة صارت عجوزا، وفردوس تشاركك الفراش بنفس مجروحة، ونعيمة كأنها لم تتزوجك إلا لتنجب"، ورآه الناس يطيل المكوث فى المقهى فمازحه أحدهم:

- ليلة من هذه يا عم عبد العاطى؟

أجاب ساخرا:

- الليلة نوم العازب يا ابن ستيتة العمشة

وتهكم السائل:

- ائت لهم بالرابعة، فلا يكيد المرأة إلا ضرة

أجابه متأملا:
- أتقول فيها؟
وناوشه آخر:
- لا تسمع كلامه يا عم عبد العاطى، لقد صرت عجوزا ولن تقدر على رابعة
نظر إليه متحديا:
- أنت لم تبلغ الثلاثين يا ابن صفية الهرارة وأنا فى الستين، فهل تلابط العجوز لنرى؟
وتجمع الرواد، شمر عبد العاطى عن ساعديه ثم رفع ذيل جلبابه وأحكم ربطه حول خصره، وكذلك فعل خصمه، ولما تيقن كل منهما من تثبيت قدميه فى الأرض اشتبكا، كل منهما يحاول الإمساك بالآخر وطرحه أرضا، وبعد محاولات تمكن عبد العاطى من جزع غريمه فأحاطه بذراعيه، وبينما الفتى يحاول الإفلات من بين يديه وضع عبد العاطى قدمه اليمنى خلفه ودفعه فسقط على الأرض وهو فوقه، وتعالى هتاف الجميع، وقال النبوى موجها الحديث إلى الحاضرين:
- هل من ملابط؟
عبد العاطى كان يشعر بالنشوة، طلب كوبا من الشاى وراح يشربه فى رضا، وأثناء استمتاعه بالشاى طلب ثلاثة شبان منازلته فقال متحديا:
- الخاسر يتحمل مشاريب المقهى
أحجم اثنان وتقدم الثالث، كان شابا فى العشرينيات، كفه غليظة وكتفه مثل كتف ثور، وقدماه الراسختان يعلوهما فخذان هائلان كفخذى فيل، وطال النزال، وكلما حاول عبد العاطى أن يدفع بقدمه ليعرقل الفتى تصطدم بساقين قويتين فيعود ليثبتها فى الأرض خشية قيام خصمه باستغلال ارتكازه على قدم واحدة، كل منهما يمسك

بتلابيب الآخر، وطال الصراع حتى أوشك عبد العاطى على الانهيار، وقام بمحاولة أخيرة فتمكن من الإحاطة بالفتى من تحت إبطيه، ورأى الناس عروقه تنتفخ عندما بدأ فى رفع خصمه وتطويحه يمينا ويسارا، ولم تجد محاولات الفتى العودة إلى الأرض فطوح به عبد العاطى، ووسط ذهول الحاضرين أوقعه وسقط فوقه.

رآها أول مرة عندما نقل بضاعتها من سوق السمارة إلى سوق طنبارة، فهى تبيع الخضر فى الأسواق، ثم ترسخت فى خياله أما طلبت منه أن يواظب على نقل بضاعتها، قالت إن طريقته فى النقل أعجبتها، وصار ينقلها ببضاعتها من سوق إلى سوق ثم يعيدها إلى قريتها فى نواحى دكرنس، حيث تقضى يومين أو ثلاثة لتبدأ دورة الأسواق من جديد، ولما ألفته وألفها صار يتطوع لينزل البضاعة ويرص الأقفاص بعناية، وعندما يعود إليها يرفع ما تبقى فوق العربة ويمضى إلى السوق الجديد، وطوال الطريق تأتنس بحديثه وحكاياته التى لا تنتهى، وذات مرة سألته مازحة:

- إن كنت عارفابالنساء كما تقول يا عم عبد العاطى فمن أكون؟

تحرك الدم فى جسده:

- أنت فريدة عصرك يا امرأة

كانت فى حوالى الثلاثين، خمرية متوسطة الطول، جدائلهاالفاحمة كقلب الليل ناعمة كالحرير، تنسدل فوق ظهر متين، وعيناهاالساحرتان ذات أهداب مشرعة، وشفتاها الشهوانيتان حمارهما مشرب بسمرة خفيفة، وذراعاها عندما تنحسر عنهما الأكمام تكشفان عن ليونة جسدها، وما يبين من صدرها وهى تخرج كيس النقود من كركتها يذهب العقل، أما عجيزتها فإن جلبابها لا ينسدل فوقها إلا إذا جذبته بيديها، تقوم فوق وركين طويلين طريين وساقين مصبوبتين مضيئتين كأعمدة الجنة، وكان اسمها جنات.

برغم عمره كان لا يزال متماسكا، أكتافه تشي بفتوة لم تفقد سحرها، وذراعاه القويتان تنتهيان بكفين كبيرين تقبضان على الأحمال كرافعة ضخمة، ومن طول مرافقتها كان يعرف كل شيء عنها، زوجها الذي مات تاركا في حجرها ولدين وبنتا، ورجالا يطاردونها، وضيق ذات اليد الذي ألجأها الأسواق، وهي الأخرى تعرف كل شيء عنه، طفولته البائسة، زوجاته وأبناءه، وعندما أدركت انه يفكر فيها كامرأة قللت من مجاذبته الحديث خشية أن تتطور علاقتهما إلى حد تحرص على عدم بلوغه.

في يوم سوق طنبارة يقصد إليها فيرى عجيزتها تفترش الأرض ككومة لحم شهي، ويكون قد جرع رطلين من البوظة والتهم بضعة سندويتشات طعمية ثم أعقبها بمص عودين من القصب فيجلب ما ابتاعه من السوق ويودعه لديها، وكانت تساعده في وضع مشترواته في قفة كبيرة تجيء بر سكال آخر اليوم لتأخذها.

لما سكنت روحه كان قد مر على ترملها أكثر من خمس سنوات، وفي احد أيام السوق عزم على مفاتحتها في الأمر، ألقى عليها تحية الصباح وظل واقفا إلى أن فرغت من زبائنها، ورأت في عينيه نظرة تغني عن أي سؤال فقالت متصنعة المزاح:

- ما لك يا رجل؟ بعد ما شاب ودوه الكتاب؟

كان قد حزم أمره:

- تزوجيني يا جنات، أجمعي شملنا ولك ما تريدين

نظرت إليه في دهشة، تعرف أن ما يقول ليس على سبيل المزاح:

- على ذمتك ثلاث نساء، ألا يكفينك؟

اقترب من أذنها:

- إذا قبلت عرضي سيكون فيك الكفاية

ضحكت في دلال ممزوج برائحة الرفض:

- تميز قوا الرجال!

لما جلس فى انتظار إجابتها قالت:
- أولادى صغاريا عم عبد العاطى، لا أقدر على تركهم
وأردفت تحدث نفسها:
- كنت عملتها من زمان
همس:
- من قال إنك ستتركينهم؟ أتزوجك وانت معهم
- تتزوجنى ماذا يا رجل يا خرفان، أنت فى عمز أبى
مال برأسه نحوها:
- جربينى ولن تندمى
تصنعت الاندهاش:
- وكيف أجربك يا رجل يا ناقص؟
- تزوجينى بالوهب، وإذا رأيتنى كما أقول إشرطى وشوفى
وعابثته لتوجج نيرانه:
- وإذا كنت من إياهم؟
ضحك فى ثقة وهو يضع كفه على رقبته:
- من هذه الناحية لا تخافى
وانفجرت ضاحكة فتثنت أعطافها، وضربت بكفها على فخذها فارتج وطير عقله، ثم اعتدلت فى جلستها وقالت:
- أنت فاجر
استعطفها:
- فكرى ثم أجيبينى
ولما أيقنت من عزمه أبدت نفاذ صبرها:
- شروطى لن تقدر عليها
مدت امرأة يدها لتختبر الطماطم فقبضت جنات على كفها وصرفتها، ودق قلبه، هى إذن لا ترفض الفكرة، وتريد أن تسمعه، وبعد أن انصرفت المرأة قالت:

- أول عام سأظل مع أولادى

- وثاني هاااااام؟

- تشترى لى دارا، أم تراك ستتزوجنى فى دار أولادى ثم تهجم علي بجيشك كما هجمت علي دار فردوس؟

وصعرت خدها ولم تأبه لغضبه:

- وأظل امارس تجارتي

وكأنما فتحت للفرج بابا:

- خلاص، تبيعين دارك هناك وأشترى لك دارا هنا

ولما أمعنت النظر فى عمق عينيه متشككة استدرك:

- لن أمس ثمن دارك

نظرت إليه بعينيها الساحرتين:

- والشرط الثانى؟

- سأحمل بنفسي تجارتك إلى أى سوق تريدين

تفصعت وهى تخترق عمق عينيه ثم قالت:

- إذا كان هذا فدعني افكر

- ولماذا التفكير يا بنت الحلال؟ خير البر عاجله

وشعرت بأن الحديث سرقها فصمتت برهة ثم قالت:

- كل إنسان يعرف من أين تطلع شمس داره يا عم عبد العاطى

لما جاءت برسكال لأخذ التسويقة رأت فى نظرات جنات شيئا أثار ريبتها، ورفعت القفة إلى رأسها كما يرفع الرجل طفلا ومضت تدق الأرض بقدميها القويتين وهى تقلب الأمر فى رأسها، كان عبد العاطى يدخن الجوزة فى مقهى متنقل عند أطراف السوق، فهذه أول مرة تمتنع عليه امرأة، تضع شروطها وتجعله فى حضورها كالطفل، وهى أول مرة أيضا يسبق فيها عزمه تفكيره، فماذا لو جاءت الإجابة بالموافقة؟

هو لا يأبه بفردوس، أو بعزيزة، الهم كله فى نعيمة، سيشمت فيها أهلها، وقد تطلب الطلاق فلا يمنعها أحد، وستكون طنبارة كلها فى صفها، ولما سأله صبي المقهى إن كان يريد حجر معسل جديد هز رأسه بالنفى، ثم ناوله الحساب وانصرف.

الناس على طول الطريق أنكروا عليه تجهمه ومضيه على غير هدى، لكن عقله كان يعمل بكل طاقته، كيف يتجنب غضبة نعيمة؟ من جديد ليس أمامه إلا برسكال، وكان قد خرج من نطاق القرية ليمعن التفكير ريثما تعود ابنته إلى دارها بعد توصيل التسويقتين.

فى الأيام الأخيرة وقعت بينه وبين نعيمة مشاحنات كثيرة بسبب عزوفها عن النوم معه، ولما هددها بالزواج عليها وأوأت وهى تقول بحركة يديها إن ما أخذته القرعة تأخذه أم الشعور، وضحك لأنه فهم قصدها دون عناء، الآن لم يعد الأمر مجرد كلام، الآن هناك جنات، وهو كلما فكر فيها انشرحت روحه وانتشت أعضاؤه، فهل تصلح مشاحنات صغيرة لأن تكون أساسا يبنى عليه أسباب زواجه الجديد؟

قرب العصر رأته برسكال قاصدا دارها فخرجت تستقبله، سألته إن كان تناول غذاءه فأجاب:

- نفسى مصدودة

إبنة أبيها أيقنت أنه يمهد لأمر ما، لم تستبعد أن يكون له علاقة بجنات، وحشدت قواها لتغلق عليه الطريق، بينها وبين نفسها قالت إن المرأة التى رأتها اليوم فيها كل ما يبعث الحياة فى الروح القاحلة، وهى فى الأيام الأخيرة تشعر بأن روحه آخذة فى النضوب، خطواته متثاقلة ونفسه مكسورة، وعلامات التقدم فى العمر تزحف عليه بإصرار، سألته:

- هل تريد الزواج يا شيخ عبد العاطى؟

نظر إليها وابتسامة تتسرب إلى ملامحه:

- وهل الزواج حُرّم يا بنت عبد العاطى؟

- لا لم يحرم، لكن إذا كان ما أظنه حقيقيا فأنت هذه المرة واقع فى بئر بلا قرار

استعاذ من الشيطان وقال:

- الملافظ سعد يا بنت غايته

بعد أن صببت له الشاى جلست فى مواجهته:

- أنظر يا شيخ عبد العاطى، ما أقوله الآن حديث رجل لرجل، شريك لشريكه، أنت الآن فى الستين، والمرأة التى تريدها أصغر منى، لن يأتيك من ورائها إلا الهُزْأ وقلة القيمة

ملأ الغيظ عينيه لكنها أردفت:

- أما حديث الإبنة لأبيها فإننى مشفقة عليك، جنات ليست كبقية نسائك، ليست عزيزة لترضيها بمزحة أو بتقريب يونس منك، وليست فردوس لترضيها بليلة أو ليلتين كل حين ومين، وليست نعيمة لتجلس إلى جوارها وتراقب صمتها، إنها امرأة، لا يكافئها إلا شاب فى سنها، سترهقك ثم تتلاعب بك

واصل النظر إليها بعينيه الصقريتين، ومع كل كلمة كان وجهه يزداد شحوبا، وافتعل سعالا خفيفا ليقدر على إخراج صوته:

- أنا لم أغضب الله فى شىء حتى يحدث لى كل هذا، أتقبلين أن يسقط أبوك فى كبيرة بعد هذا العمر؟

ابتسمت فى أسى:

- ربنا عرفوه بالعقل يا شيخ عبد العاطى، لن تتحمل مشقة التنقل بين هنا وهناك، وجنات لن تكون راضية، وستفعل بك ما تفعله أية امرأة صغيرة بزوجها العجوز

ولما ظل على صمته أردفت:

- أمى كانت تقول أبوك فيه شىء لله، لهذا شاركتك فى كل ما فعلت، إلا هذه المرة، قلبى يحدثنى بأنها ستكون أسوأ نهاية

أسرع يقول:

- إذا وافقت سأجعلها تبيع دارها وتنتقل إلى هنا
فأسرعت تسد الطريق عليه:
- ولو
ولما أدركت أن حديثها معه لن يثنيه عن عزمه قالت:
- افعل ما تريد يا أبى، فقط أبعدنى حتى لا أشارك فى جريمة أراها بعينى
كادت عيناه تستجديانها:
- فقط إسأليها، إما نعم وإما لا
علا صوتها وكادت تبكى:
- تاااااانى؟، إرحمنى مرة واحدة يا أبى، أنت تثقل على ولم أعد أحتمل
وسقطت الدموع رغما عنها:
- تزوجت أمى فكرهتنى عزيزة، وتزوجت فردوس فازدادت كراهية عزيزة لى وكرهتنى فردوس، وتزوجت نعيمة فازدادت كراهية الجميع لى، حتى رزق، والآن تدفع نعيمة لتكرهنى ويكرهنى طفلها؟
وتضرعت إليه بعينيها:
- إنهم يغفرون لك، يعودون إليك كما يعود الفرع لأصله، لكنهم لا يغفرون لى، فأنا المكروهة على طول الخط، أيكون هذا جزائى؟

* * *

تمنى لو يقضى الليل بعيدا حتى يتخلص من آثار حديث ابنته، وراه الناس شاردا فى الغيطان وعلى كتفيه شاله الكشميرى، المرأة التى ملكت عليه روحه تطغى على كل شىء، حتى على شعوره بالرضا عما قام به فى اتجاه حلمه، فلقد اشترى قطعة الأرض التى سيقيمه فوقها، لكن كل هذا يتوارى الآن خلف رغبته فى امرأة جبارة إسمها جنات.

الشونة التى صنعت مجده ومجد طنبارة زالت، وحلت سيارات النقل الخفيفة محل عربات الكارو فدفع فرسانه الثلاثة لشراء سيارة ربع نقل، وعندما يتحقق الحلم ستكون سيارتهم أولى لبنات أسطول النقل الذى سينقل الأعلاف من المنبع إلى المصب، كان يحلو له أن يبتعد عن الناس ويرى بعينى خياله الماكينات الضخمة وهى تدش الحبوب وتخلطها ثم تعبئها فى أجولة تخيط بنفسها فوهاتها، يتخيل كل هذا ويعيشه كحقيقة واقعة، فما يدخره من مال على ما تدخره نعيمة يكفى لأن يكون مقدمة تمكنه من البدء فى التنفيذ، فهل تتعارض رغبته فى جنات مع حلمه؟.

الدنيا صارت مختلفة، والناس الذين لا تعطيهم الأرض غلة مرضية هجروها بحثا عن رزق أوفر فى العراق وليبيا، وحتى الأردن واليمن، والقرية التى لم يكن فيها إلا بضعة دورمبنية بالحجر صارت كلها مبنية به، ومبكرا قبل أن تنتهى الحرب مع إسرائيل ذهب الروس وجاء الأمريكان، وانفتحت البلاد على تيارات الدنيا وبضائعها، وأغلقت المصانع أبوابها وأزيلت الشون، وسرح العمال، وصار المال معيار كل شىء، وهو يرفض أن يسافر أبناؤه إلى العراق أو ليبيا، أو الخليج، فرزقهم كما كان يقول دائما هنا، فى مصنع أبيهم وحلمه الكبير، سافر سليمان وعبد الراضى ابنا فردوس إلى العراق وعادا بأموال معقولة، وسافر أزواج بناته، لكن الطفل

الذى نشأ وحيدا فى داخله لم يسمح بانفضاض العزوة التى أقامها بعد مغالبة، رفض سفرهم حتى لو اضطروا إلى العيش بأنصاف بطون، وها هو حلمه يتربع فى جنبات روحه ويحل محل أى اهتمام آخر، إلا الولع بالنساء، فهل يكون زواجه من جنات خروجا على هذاالحلم؟.

حتى برسكال تعد نفسها لليوم الذى يتحقق فيه الحلم، وتضع القرش فوق القرش من تجارتها ومن تربية الرومى والضأن ومما عاد به زوجها من مشاوير الغربة انتظارا لليوم الموعود، فهل سيعطل زواجه من جنات كل هذا؟

هو لم يفرط لا فى العربة الكارو ولا فى المهرتين، تماما كما لم يفرط فى حلمه، ظل يتنقل بها بين الأسواق، وعندما لا يكون هناك عمل يتركها فى مدحاية دار فردوس شاهدة على الأيام الخوالى، وفى صباح يوم الجمعة يتفقدها ويزيت عجلاتها ويصلح ما يعطب منها، أما المهرتان فإن الناس كانوا يرونه وهو يركب إحداهما ويخرج إلى الطريق ليستعيد زمانه المفقود، وكذلك كان يفعل يونس وأخواه، رزق كان يركبهما بالتبادل ويرمح بهما فى شوارع القرية وفوق الطرق القريبة، وفى حفلات العرس وليالى المولد يرقصهما رقصا لم يره أحد من قبل، حتى صار معروفا فى المنطقة كلها، وبين الحين والحين كان يذهب إلى موضع الشونة ويقف هناك دقائق ليتنسم عبير الأيام القديمة ثم يعود إلى الدار دامع العينين، أليس فى زواجه من جنات حافزا على أن يكمل رحلته؟

كل هذا كان يفكر فيه وهو يمضى بين الغيطان، تواجهه الشمس الغاربة فيزداد حزنا، فعبد العاطى الذى يقدم على الزواج ولا يأبه لاعتراض أحد صار يحسب لواحدة من زوجاته ألف حساب، ويا ليتها كانت ممن يصرخن وينثرن التراب فوق رؤوسهن، إنها خرساء، لكنها تهزمه بخرسها، فهو يخشى غضبها ويتساءل: "لماذا

تغضب وهى التى عزفت عن تلبية رغباتى وانشغلت عنى بابنها؟"، فيوم أن تنطفئ رغبته فى النساء لن يكون وقتها على قيد الحياة، وما أحلام الموت التى يراها إلا نذير انطفاء شعلته، وجنات هى مرحلته الحاضرة فى بستان النساء، وليتها مرحلة كسابقاتها، إنها تملك عليه قلبه وعقله، وحتى أعضاءه التى لا تستعيد عافيتها إلا عندما يفكر فيها، فهل هو آثم لأنه يقاوم انطفاء روحه؟".

تأخرت عودته إلى ما بعد العشاء فقلقت نعيمة، وأرسلت من يتفقده، ولما عرفت بأنه ليس فى دار فردوس جابت القرية بحثا عنه، وكذلك فعل أبناؤه، واضطرت برسكال لإبلاغ يونس بما كان بينهما من حديث، وأخذتهما السيارة الربع نقل إلى قرية جنات البعيدة، لكنهما لم يجداه، وانتصف الليل دون أن يعثروا عليه، وأخيرا قال رجل إنه رآه يشق الغيطان قبل الغروب، فذهبوا إلى الموضع الذى ذكره ووجدوه تحت شجرة قديمة، متوسدا بلغته وملتحفا شاله الكشميرى وغارقا فى النوم.

فى الساعات التى لم تعثر عليه فيها شعرت برسكال بخوف لم تعرفه من قبل، أن تصير الدنيا خالية من أبيها، وأدركت أنه ما لم يكن هناك فإن كل ما فى الدنيا ليس له معنى، ولما وجدته أخذته إلى دارها، مضى معها مترددا، ولما جلس فى الصالة راحت تقرأ على جسده المرتجف أوراد أمها، هل تصل الرغبة فى امرأة برجل حد إرهاق الروح؟، وانفعل يونس لحاله فقال لبرسكال فى الخفاء:

- لندعه يفعل ما يشاء، تزوج على أمى مرتين، وتزوج على فردوس، لماذا نحرم عليه الزواج الآن؟ أمن أجل الخرساء وابنها المفعوص؟

ظل طريح الفراش أياما، استعانوا بطبيب واثنين وما قاله الأول قاله الثانى، ليس ما به داء وإنما حزن، وجاء موعد السوق فانتظرت جنات قدومه، لكنه لم يأت، وقبل أن يهدم السوق مرت بها برسكال،

وعرفت منها أنه مريض فتمنت له الشفاء، ولما سمع من برسكال ما دعت له به تألق نجم في عينيه، لكنه عاد للانسحاب لما رأى زوجاته يحطن به وهو مطروح على السرير في دار ابنته.

طوال أيام رقدته هجرت برسكال أعمالها وجلست تحت قدميه، تخدمه فيقبل في استسلام، وتلتقي عيونهما فتقول كل شيء، وعندما قبض على شعاع شفوق في عمق عينيها استسلم للنوم، فثقته في حسن تدبيرها كبيرة، وهي ستفعل أي شيء لتنقذه، وإن فعلت سينهض من رقدته كأنه يولد من جديد، أما إذا فشلت فسيبني في ركن قطعة الأرض دارا يقيم فيها بمفرده، تاركا الدار الكبيرة لفردوس وأبنائها، والأخرى لنعيمة وشبان الصغير، ودار "أبو" عويضة لمرعي ويحيي، فلقد ذهبت عزيزة لتقيم مع يونس في داره الجديدة.

طالت رقدته في دار برسكال، وطال إهمالها لتجارتها الصغيرة، كانت تقاتل لتستبقيه معها، فلا أحد من الذين يجيئون ويروحون يعرف ما بينهما، لا زوجاته ولا أبناؤه، في وجودهم تنظر في عينيه فيضيقهما ويقول ما يريد، وتغمض عينيها متفهمة، وإذا انفردا تدمع عيناه ويقول كأنه يحدث نفسه:

- أتمناها حتى لو كانت نهايتي

تنظر إليه فتلتقي عيونهما الزرقاء الدامعة:

- ليت الأمر بيدي يا برسكال، إذن لنزعت قلبي من بين ضلوعي وألقيت به لتدوسه الأقدام

سال دمعها:

- ألهذا الحد يا أبي؟

وقبل أن يعطيها ظهره قال:

- عدوني مستخدما كان يعمل من أجلكم بكل إخلاص، ألا يستحق مكافأة عن طول خدمته؟

ابتسمت إلا أن قلبها كان مفطورا من أجله، فمهما كان نزقه هو لا يعبر إلا عما يشعر به، وجنات مرضه وشفاؤه، نظرت فى أرجاء الدار فهان عليها كل شىء، حتى زوجها وابناؤها، ستحقق له ما يريد ولو سكن الكره كل قلوبهم، فلحظة أن رأته نائما تحت شجرة الغيطان القديمة تمنت أن لو عاد بهما الزمن ومالت برأسها فوق قدميه، ثم نامت على غنائه ووقع حوافر المهرتين.

اجتمع آل عبد العاطى فى دار يونس ليروا ما الذى يمكن عمله، كانت برسكال مندفعة، فأبوها تجرد أمامها من كل ادعاءات القوة، كطفل يريد شيئا وينفطر من أجله، فكيف تتركه منفطرا وهى أمه، ونظرت إلى الجمع وقالت بطريقة مؤثرة:

- ملك الطريق سقط، القابض على اللجام سقط، الضارب بالكرباج سقط، قلنا المرض وقال الأطباء إنها روحه، هى التى مرضت، هل نضع أكفنا على الخدود وهو يضيع منا؟

الجميع تمنوا لو أن الدنيا أصبحت فإذا بها خالية من هذه البنت التى تجلس منهم مجلس أبيها، إذن لصارت الحياة جميلة، حتى لا يفضحها صوتها صمتت فردوس، تشعر بأن ما وراء مرض زوجها شأنا متعلقا برغبته فى النساء، لكنها لا تستطيع الجزم، فالرجل الذى يفضح الدنيا إذا تأخر عليه الطعام صارت له أيام لم يذق فيها شيئا، وبعد أن طرحت أفكارها جانبا قالت:

- أيام كنت متزوجة من المرحوم جودة عرضناه على أطباء كبار ولم يبرأ، وقالت أمى إنه فى حاجة إلى ما يهدئ روحه، واهتدينا إلى رجل من طناح حسب طالعه وقال ان روحه مرضت، وكتب على أشياء لما فعلناها ذهب عنه الحزن

وانبرت عزيزة:

- لكن هذا الأمر له سنين طويلة يا أم سليمان، فهل يكون الرجل حيا؟

ابتلعت فردوس غمز ضرتها عن تقدمها فى السن، برسكال هى التى أجابت:

- ماذا سنخسر ان سألنا؟

جلست نعيمة بينهم تذرف الدموع، بينما رمضانها الصغير ينظر فى عينيها خائفا، وأردفت برسكال:

- اذا لم نجده سنذهب فى طلب امرأة من نزلة السمان، كانت تزوز أمى، وكنا نرى النور فى مواضع قدميها كأنه السندس

وأردفت:

- بختى لو وجدناها

لم تسمع نعيمة مما قالوا حرفا، لكنها قرأت شفاههم، وعرفت فيم يتحدثون، وأجهش رمضان بالبكاء، وضمته برسكال إلى صدرها فقاوم حضنها والتصق بأمه، ولما أرسل عبد العاطى ليحمله إلى دارها غمرتها الفرحة، وهناك سهرت تحت قدميه، ينام ويستيقظ وهى تحت قدميه، لكن محاولاتها لإثنائه عن الامتناع عن الطعام ذهبت سدى.

وكالمتوقع لم يجد يونس وبرسكال شيخ طناح، بالكاد تذكره الناس وقالوا إنه رحل من زمن بعيد. وحملتهما السيارة إلى نزلة السمان، وهناك وجدا المرأة وعرضا عليها الأمر، حاولا إقناعها بالذهاب معهما لكنها ترددت، ولما رأت برسكال تضع مالا فى الصندوق القائم فى ركن الحجرة تراجعت، ثم غابت عنهما ساعة أعدت فيها عدتها، ولما سبقهما يونس ليجهز السيارة مالت برسكال على أذنها وقالت:

- الرجل المنكود أبى، على ذمته ثلاث نساء ويريد أن يتزوج الرابعة، امرأة تبيع فى الأسواق تدعى جنات، همتك معنا يا ستنا

مكثت المرأة فى دار نعيمة ثلاثة أيام، فتحت المندل وقرأت الفنجال، وسحبت الأوراق ورشت الماء عند الأعتاب، ثم حفرت

تحت أعقاب الأبواب وأخرجت من تحت باب نعيمة أوراقا قالت إنها عمل سفلى وضعه الأشرار فى طريقه ليخطو فوقه ويصيب روحه، ووضعت الأوراق فى الإناء فتحول الماء إلى سائل أسود، قالت إنه دم أبيهم المتخثر، وامتلأت الدار بالبخور والهمس، وأخيرا جمعتهم المرأة وقالت إن رجلهم يسكنه جنى لا يخرج إلا أن يطأ امرأة من حلاله ويريق فوق بطنها ماءه، وجن الليل فأخذت برسكال رمضان الصغير وأدخلت أباها إلى حجرة نعيمة.

"براوة عليك يا بنت يا برسكال، إن أنا مت الآن سأرحل وأنا غير خائف عليك، لامنهم ولا من غيرهم"، هكذا قال عبد العاطى وهو يقاوم بصمته وسكونه محاولات نعيمة لإغرائه، وانبلج الصبح وهو منكفئ على نفسه، لا يتناول إلا عصائر قرأت عليها المرأة تعاويذها، وفى الليلة الثانية عرضوه على عزيزة فوضع رأسه فوق رجليها ونام حتى علا شخيره، وأخيرا جاء دور فردوس، ولما تأبت عليهم بكى أبناؤها،ودفعت بها برسكال إلى حجرتها لتتزين ثم أدخلته عليها، وخاب المسعى.

فى صبيحة اليوم الرابع استدعتهم الشيخة من جديد، أوقفت أمامها عزيزة وفردوس ونعيمة، ومن ورائهن وقف الأبناء، حتى رمضان الصغير، وقالت والألم يرهق ملامحها:

- الجنى الذى يسكن رجلكم واحد من أفراخ قبيلة تسكن واد فى جهنم، فر من النار بعد رشوة الحراس وسكن روحه، ولا طاقة لأحد من أهل الإيمان على إخراجه إلا أن تخرج روحه معه، ولما أعدت قراءة أوراقى وحسبت الطالع وجدت أن من لا يقدر الجنى على منع أبيكم عنها امرأة خمرية لم يطأها رجل فى الحرام، لها هيئة من تبيع فى الأسواق واسمها جنة

وبعد قليل من الصمت أردفت:

- أو جنات

ثم قالت وهى تجمع أشياءها:
- هذا قولى
خرجت من الدار لا تلوى على شيء، وتبعوها لتعود لكنها كانت قد اختفت، ذابت فى دروب طنبارة كما تذوب قطعة ثلج صغيرة فى بحيرة.
- أنا أعرف تلك المرأة، كل الأوصاف تنطبق عليها، لكنها ام لأبناء وتقيم فى نواحى دكرنس
هكذا قال يونس، وتصنعت برسكال الدهشة:
- أعرف الأسواق كلها فمن تكون؟
راح يونس يصفها، وكلما امعن فى الوصف تتضاءل نعيمة من الخوف، إلى أن قالت برسكال:
- المرأة التى تصف اسمها أم صلاح
وصوب لها يونس:
- نعم نعم، إسمها الحقيقى جنات
واستنكرت برسكال:
- المرأة متزوجة يا يونس
ضحك يونس من مكرها:
- زوجها مات يا برسكال، وترك لها أبناء أكبرهم صلاح الذى تنادى باسمه
اكفهر وجه يونس بالأسف ثم قال:
- لكننى أشك فى أن تقبل، فهى فى عمرك تقريبا
فى داخلها تهكمت برسكال: "أبوك لا تستعصى عليه امرأة يا ابن عزيزة".
لما بلغ عبد العاطى ما قالت الشيخة تظاهر بالغضب، وقام يضرب رأسه بيديه ويصرخ طالبا أن يتركوه لحاله، فالموت أهون عليه من أن يتزوج على نسائه، لكن أبناءه كانوا يندفعون فى اتجاه

ما أمرت به الشيخة، نعيمة انزوت فى ركنها، ولما أظهرت ترددا نظر إليها الجميع نظرة اتهام، فلقد حصلت على مطلوبها من الرجل فما حاجتها له الأن؟ حتى العمل السفلى أهلها هم من وضعوه تحت عقب بابها، وبكت نعيمة وهى تنظر إلى السماء باحثة عن مخرج.

فى صباح الجمعة قصدوا إلى سوق السمارة، يونس وبرسكال وعبد المغنى، وجدوها تقوم على البيع لزبائنها، ولما رأتهم أصابتها الدهشة، وخفت حركة السوق فاستجمعت برسكال شجاعتها وحدثتها فى الأمر، ونظرت إليها جنات متظاهرة بالغضب:

- ولماذا أنا بالذات؟ هل من خلقنى لم يخلق غيرى؟

أجابها يونس:

- الأوراق هى التى أمرت يا أم صلاح

نظرت إليه شذرا:

- وما شأنى بأوراقكم؟

فى داخلها كانت مذهولة من قدرة أبيهم على أن يحيل ضعفه إلى قوة، واستمراء للعبة قالت:

- لم أر من أبيكم إلا كل خير

ثم تساءلت:

- لكن ما الذى يجبرنى على الزواج من رجل فى عمر أبى؟

أدركت برسكال أنها تساومهم فقالت:

- اطلبى ما تشاءين وسيكون لك ما طلبت

وفى انتظار ردها أردفت:

- وأبى ليس كما تظنين، فحتى سقوطه مريضا كان يباشر نساءه جميعهن

أمام إلحاحهم طلبت أن يعطوها مهلة للتفكير.

لما عادوا إليها بعد أسبوع قالت إنها لن تغامر بمستقبل أبنائها، وقدمت شروطها التى سبق وعرضتها على أبيهم، وأضافت عليها أن يتكفل بمصروفات تعليم ولديها، ولما فغروا أفواههم قالت:

- دبلوم كأى دبلوم، فنية تجارة زراعة لا تفرق

ولما أظهروا موافقتهم أضافت:

- وإذا أراد الله وخرج "بسم الله الرحمن الرحيم" الذى يسكنه يأخذنى لأعمل عمرة

نظرت برسكال إلى يونس فأغمض عينيه حتى لا ينفجر، وفى طريق العودة قالت برسكال تحدث نفسها:

- والله ووقعت فى شر أعمالك يا شيخ عبد العاطى، والذى أكلته مع نسائك أوز أوز ستخراه هذه المرة بط بط

* * *

تركوا لبرسكال مهمة تجهيز الدار التى أقاموها فى ركن الأرض البعيد فجلبت المنجد وصنع للعروسين مرتبة جديدة، كما صنع وسادتين ولحافين بواجهة من الستان الأحمر، وحتى تنتهى الترتيبات ظل عبد العاطى ملازما الفراش فى دار برسكال، وبعد أن صارت الدار جاهزة أخذته برسكال إلى قرية جنات ليعقد عليها.

حملتهما سيارة أجرة وانتظر السائق حتى ينتهيا من غايتهما، وبينما المأذون منشغل بكتابة قسائمه أخرجت جنات من جيب جلبابها عقدا بالدار وطلبت من عبد العاطى التوقيع عليه مع عقد الزواج، وكان المأذون قد انتهى من كتابة القسائم فأمسك بإبهام عبد العاطى ووضعه فى الختامة وبصم به فوق القسائم، وقبل أن يبصم به على عقد الدار كان العقد قد أصبح فى يد برسكال، وقلب المأذون النظر في وجوه الحاضرين بينما برسكال تقرأ على مسمع من الحاضرين سطور العقد، وبعد أن انتهت من القراءة قالت موجهة الحديث إلى جنات:

- حتى لا تتهمينى بالغش أو بغيره هذا العقد ناقص، فأنا شريكة أبى فى الأرض التى أقيمت الدار فوق جزء منها، وحتى يكون البيع صحيحا لا بد من وضع اسمى فى العقد

ونظر الموجودون إلى عبد العاطى فأومأ مصدقا على ما قالت ابنته، خشيته من إفشال الزواج جعلته يبتلع غضبه ويصمت، وجلسوا ساعة فى انتظار رجل أعاد كتابة العقد من جديد، وكتب فى مقدمته إقرارا من عبد العاطى أن الأرض ملكية مشتركة بينه وبين برسكال كل بحق النصف، وأن مساحة الدار تخصم من نصيبه هو، وعندما انتهى الرجل طلبت برسكال نسختين أخريين لها ولأبيها، وبعد أن بصم عبد العاطى على النسخ الثلاث بصمت جنات، ووقعت برسكال كشاهدة.

المفاجأة والغضب أخرسا لسان عبد العاطى، وجلس يتابع ابنته وهى تتفق على أن يعودا فى الغد ليصحبا العروس إلى دارها، وفى الطريق جلست إلى جواره فى السيارة وقالت لتخرج ما فى صدره:

- إنه نصف قيراط لا راح ولا جاء، لا يستأهل منك كل هذا الغضب يا أبى

لكنه تجاهلها وانشغل بالنظر من النافذة فيما قلبه الغاضب يكاد ينفجر، فها هى علمت على الجميع لصالحه ثم علمت عليه، استغلت حاجته وحققت مرادها، لكنه بعد أن ابتعدت بهم السيارة لم يستطع أن يكتم كل هذا فى صدره فقال فى أذنها:

- لن أسامحك ما حييت يا بنت غايته

ابتسمت فى ظفر وهى تختار ألا تجادله، خشيت أن يثور فيضربها أو ينزل من السيارة ولا يعود معها إلى طنبارة، لكنه بعد أن قال ما قال اعتدل فى جلسته ونظر من النافذة إلى الغيطان الثاوية تحت الغروب، واعترف لنفسه أنها سبقته، من أول ليلة كانا فيها نقطتين ضائعين على الطريق كانا يتسابقان، ولم تسبقه مرة، واليوم فاجأته، قيدت قدميه وسبقته، إنه إذن ليس عبد العاطى الذى يعرفه، إنه عبد العاطى العجوز، ولها ألف حق أن تنبهه، وعندما مال على أذنها منذ برهة كان يريد أن يقول لها إنه لم ينتو يوما أكل حقها، وإنه أراد أن تظل معه، فلقد خرجا معا، ومن ليلتها وهما سائران معا، والطريق لم تنته بعد.

كلما ألح عليها سليمان لتنام تجلس فى السرير وتخرج العقد من تحت الوسادة وتعيد قراءته، وفوق الأسطر ترى وجه أبيها الغاضب، وتعجبت، كيف يغضب إن كان ينتوى بالفعل إعطاءها حقها؟ وفى الصباح ذهبت إليه فى الدار الجديدة لتصحبه لجلب عروسه فنظر إليها مليا ثم قال:

- ألم تحصلى على ما تريدين؟ اهنئى به واتركينى

اقتربت منه وربتت على كتفه، ولما ألحت قال إنه لن يصحبها وسيذهب بمفرده، نحت غضبها جانبا وقالت:

- لماذا كل هذا الغضب؟ أخذت حقي فقط، ثمن الدار التي تركتها لي أمي بعد ضياع أرضها ومصاغها، وإذا أردت أن تجعلنا كلنا فيك أنا لا أمانع، خذ ما لرزق من أموال واكتبه باسمك، وخذ أرض شبان وداره، ونصيب خضرة والناعسة والجازية في ميراث أمهم، ودور يونس ومرعي ويحيى أيضا، وأكون ابنة حرام لو لم أعطك العقد لتمزقه بيديك

لم يجبها بحرف، فما جدوى أن يعرفها أن كل هؤلاء ليسوا هي، وفيما هي تتأهب للمغادرة لمحت في عينيه مطلبا، تعرف أنه في أمس الحاجة لمن يرتب الدار قبل قدوم جنات ويعد لهما العشاء، وليس أمامه إلا هي، ومدت يدها في جيب صديريته وأخذت مفتاح الدار فلم يبعدها، ولما أصبح المفتاح في يدها قالت:

- عندي ديك رومي بلدي يستأهل بقك، سأعده لكما مع زوجين من الزغاليل كنت أزغطهما من أجل هذه الليلة، وسأظل في الدار إلى أن تعود بعروستك. وبعدها لن تراني إلا في ضحى الغد، فلقد صنعت لك بيدي كعكا وبسكويتا كما في الأيام الخوالي

عقب دخوله على جنات جلس فوق مصطبة الدار وقال إن ما رآه من المرأة يفوق حلم أي رجل، لأول مرة يرى عريا على هذه الروعة، أكمل من كل خيال، وكاد يبكي من السعادة، ومن الحسرة، فهو لم يعد الرجل الذي كان، بنت الكلب جاءت متأخرة عشرين عاما، لأول مرة يشعر بأن امرأة أقوى منه، ولولا خبرته الطويلة ورغبته الحارقة لما استطاع أن يجاريها، وعندما انتهى المشوار انسل من الدار وخرج، لم يحب أن تراه وهو يلهث كبقرة مذبوحة، وبعد أن هدأت أنفاسه وبرد جسده قام ودخل عليها، وعندما فردت ذراعيها تستقبله قال في حنو:

- سأنام فى حضنك فأنا لم أنم ليلة أمس

فى الصباح انتظرت برسكال حتى صعدت الشمس فى مدارجها وذهبت حاملة الصباحية، وعندما خرجت جنات لتسلم عليها ورفعت ذراعيها لتساعدها على إنزال الصينية رأتها تموج داخل قميصها المنزلى، "ما الذى ستقدر على فعله مع هذه المرأة يا شيخ عبد العاطى؟ أنها ستبتلعك كما تبتلع الحية فريستها"، تعرف أنه صياد، لكن الصياد القديم تحطمت أسنانه وشخشخ صدره وسكن الروماتيزم أوصاله، واستدارت المرأة لتدخل إلى حجرتها فرأت شعرها ينساب فوق ظهرها المتين ويصعد فوق ردفيها الجبارين فقالت من جديد: "لك الحق كل الحق يا شيخ عبد العاطى، فمن يعشق امرأة كهذه لا عجب أن يمرض إذا حرموه منها".

لم يستطع أن يعبس فى وجهها كما كان يرغب، فمن من أبنائه جاء ليطمئن عليه سواها؟ ومن جاءه بالصباحية كأنه عريس شاب إلا هى؟ ومن إذا ما حدث شىء ستخف لنجدته سواها؟ وهذا كله نقرة وملعوب العقد الذى حصلت عليه نقرة أخرى، سيهنأ بعروسه أولا ثم يفكر إن كان سيرد لها الصاع صاعين أم سيسامحها، ولهذا عندما سألته عن حاله رفع رأسه وفرد كتفيه وقال:

- يمب

وابتسمت فى إشفاق، فالشحوب الذى رأته فى وجهه وانطفاء لمعة عينيه يؤكدان عكس ما يقول، لكنها تظاهرت بالبهجة وسألت وهى تهم بالمغادرة:

- هل أمر مرة أخرى؟

نظر إليها متوسلا:

- ومن غيرك يمر بى يا ابنتى؟

بعد يومين جاء أبناء جنات، وبالغ عبد العاطى فى الترحيب بهم فغمزت جنات بعينها:

- جالك الفرج يا عبودة

كانت قد نادته بهذا الاسم وهما معا، وشعربالحرج، لكنه انتصر على حرجه وقال:

- يا واش يا واش يا بنت الناس، الدنيا خلقت في ستة أيام

وضحكت وهي تشاكسه:

- ستة ايام في الأسبوع؟ يا قلة عيبك

وبادلها الضحك:

- لاااا، ستة أيام في العمر

وضعت يدها فوق فمها لتخفي نخرة خرجت من أنفها ثم قالت:

- كنت ذبحتك وفرقت لحمك على الغلابة رحمة ونور

وفي اليوم الرابع فر إلى دار نعيمة، وهو في الطريق قال لنفسه إنها لو جاءت في الوقت المناسب لكان له معها شأن آخر، أما الآن فيكفيه ليلة أمس، كاد يسقط من الإعياء وارتخى، وبالكاد نجح في امتلاك ناصية أمره فأسرع لينجز المهمة، لكن المرأة لا تهدأ ولا تشبع، رأته نعيمة قادما فتعجبت، وتراوحت بين التهلل لقدومه وبين الإعراض عنه، رمضان كان في المدرسة، صعد سلمات الفراندة وألقى عليها السلام، ولما هزت رأسها ترد تحيته مال عليها وقبل وجنتها، ثم جلس قبالتها يقرأ كل ما تقوله عيناها.

استيقظت جنات فلم تجده، قالت ابنتها إنه طلب أن تبلغها بذهابه إلى دار نعيمة، رفعت حاجبيها وتعجبت، أيكون جزاء ما فعلته له طوال الليل أن يتركها قبل السبوع؟ وشعرت بأن الدار خالية إلا منها ومن أبنائها فجلست تفكر، هي لم تبع دار أبنائها في بلدها البعيد، أغلقتها وتركتها في حراسة أقاربها، لم تسمع لحديث أخوتها وهم يقولون إنها صامت صامت وأفطرت على بصلة، فمجرد كتابة الدار الصغيرة باسمها ليس ضمانة أكيدة، فربما مرض الرجل فلا تأخذ من مغامرتها إلا هم خدمته، لكنها لم تترك عقد الدار الجديدة معهم،

فميراثها فى أبيها وأمها لم تحصل منه على مليم واحد، وإن هى أعطتهم العقد ليحفظوه من يدرى ما الذى سيفعلونه معها.
بلغ فردوس أنه فى دار نعيمة فابتسمت ساخرة، قالت إن زوجها لو كان غارقا فى النعيم لما خرج بهذه السرعة، وهو قصد إلى نعيمة لأنها ليست عبئا عليه، وإذا كان ملعوب مرضه قد دخل عليها فانصاعت لما فعلته الساحرة إبنته فإنها من الآن وصاعدا ستعرف كيف تسترده بعد مغامرته اليائسة.
أما عزيزة فنخرت من أنفها وقالت: ليس هذا هو عبد العاطى الذى أعرفه، فهى من أول الأمر لم تنخدع بقصة مرضه، قالت إنها إحدى حيله، وطالما خرج فإن حياته مع زوجته الجديدة لن تطول كثيرا، يونس عندما شعر بأنفاسها الساخرة جاوبها بمثلها، فالنساء لا يفكرن إلا كما تفكر الضفادع، كيف تقفز وكيف تنق وكيف تدير أعينها فى محاجرها، لكنها أبدا لا تتجاوز ذاتها، وأمه لا يعنيها إلا الجلوس والانتظار، فالزمن هو الكفيل بالانتقام، وعندما سألته: "ألا تذهب لترى حال أبيك؟ بلغنى أنه ترك دار زوجته الجديدة وعاد إلى نعيمة"، ضحك فى نفسه، فلم يكن ليضحك مما تقول فى وجهها، وحتى لا تكره وجودها فى داره قال:
- لا تشغلى بالك يا أم البنين، فعبد العاطى ملش يعرف كيف يدير شؤونه
برسكال كانت تفكر على نحو آخر، طوال الليل كانت تقول لسليمان إنها تخشى أن تكون الخاتمة شؤما، فالمرأة شابة وقوية، ولا قبل لابيها وهو فى الستين بكل هذا، وضحك سليمان وهو يقول:
- هو صوت فى دماغه وقد أطلقه، دعينا نراقب من بعيد
لما عادت من السوق ووجدت الخبر فى انتظارها وضعت أغراضها وانطلقت إلى دار نعيمة، تعرف أنها لن تغفر لها أبدا زواجه من جنات، لكنه ابوها، وإذا كانوا لا يصدقون أنه كان

مريضا فهم مخطئون، كان مريضا بالفعل، مرض لأنه لم يكن يعرف كيف ينال المرأة التى تقتله الرغبة فيها، ورغبته ليست أبدا فراغة عين، إنه عبد العاطى القديم حبيس حجرة التبن الخانقة، وهو لا يشعر بتجدد الهواء إلا فى الانطلاق والرغبة فى النساء، ويرفض الاعتراف بشيخوخته، حتى لو ابيض شعره وسقطت قواطعه، الكارثة هى أن ينجب من جنات، لأنه إن فعل سيكون ابنه جِمْلها هى وليس جِمْلَ أحد.

لا يعرفون كم هو جميل أبوها، لم يروه وهو يضمها إليه ويغنى فى وجه الليل، ولم يسمعوه وهو يلقى حكايات الليل الساحرة، ولم يشاهدوه وهو يعامل المهرتين كامرأتين، ولم يروه وهو خائف، ولم يروا دموعه، هى شريكته كما قال، حتى أرض الدار الجديدة هى شريكته فيها، أيكون هذا مجرد صدفة؟ وقلبها المسكون بهم لم يعد فيه متسع لشيء جديد، يكفيها حبها لرزق وتعلقها بشبان وغفرانها ليونس ومرعى ويحيى، وتسامحها مع عزيزة وفردوس وعينى نعيمة اللائمة.

من لمعة عينيه عرفت كل شيء، ابتسم وهو مطرق إلى الأرض، مدت نعيمة إليها أطراف أصابعها ثم اختفت داخل الدار، وسمعت برسكال حركة شبان فى الداخل فلم تتطفل عليهما، فلو أراد أن يخرج ويسلم عليها فهى فى الانتظار، أما إذا منعته أمه فليبق حتى تتحدث إلى أبيها وتنصرف.

لم تطل جلستهما، ضيق عبد العاطى إحدى عينيه وهمس بأن تسبقه إلى دارها، كان يعرف أن مناجاته معها محل مراقبة، وبرغم أن نعيمة شعرت بأن وراء الجلسة مشكلة ما تتعلق بزوجته الجديدة إلا أنها لم تستطع أن ترحب بوجودها، ولما رأتها تنصرف انزاح كابوس من فوق صدرها، وشعر رمضان بأن الحصار المفروض عليه انفك.

كان سليمان فى أجازة من عمله فى العراق، سيمكث فى طنبارة شهرا ثم يعود، فعمله هناك ينتظر قدومه، وسبقت عودته حركة دؤوبة تغيرت فيها الدار تغيرا كبيرا، تركت حجرتين من الدار القديمة أقامت فيهما هى وأبناؤها وهدمت الباقى، وحافظت على التوتة القديمة التى زرعها سليمان بنفسه، ثم أقامت دارا بالأسمنت المسلح وجعلت لها شرفة واسعة تفرش التوتة ظلها أمام الدار وعليها وهى تنظر إلى طنبارة من الجانب الآخر للترعة، وحتى الليلة التى سبقت عودته كان عمال الطلاء يواصلون عملهم ويصلون الليل بالنهار لتكون الدار جاهزة، وفى صباح اليوم الذى عاد فيه غسلت الدار هى وبناتها، واشترك معهن ابنها عبد العاطى الصغير، وقبل أن يصل بساعة واحدة أتموا كل شىء، ووضعوا المنقولات الجديدة فى مكانها فصارت الدار عروسا تتهيأ لسيدها.

تحت ظل شجرة التوت جلست برسكال فى انتظار أبيها، لم يعد فى أجازة سليمان سوى أيام وبعدها سيعود ليمكث هناك سنة أخرى، فلقد استهلكت الدار الجديدة كل مدخراتهما، ونبهت على سليمان أن يسلم عليه ولا يمكث معهما طويلا، فبينها وبين أبيها حديث قد يطول، ولما رأته قادما من بعيد أدركت أن القادم ليس أباها، ليس عبد العاطى الذى كان يدق الأرض بقدميه الكبيرتين ويقفز فى الهواء كأنه يطير، القادم عجوز يمضى بهيكله الضخم فى تثاقل يغلفه اعتداد قديم.

- هات ما عندك يا شيخ عبد العاطى

- أنت بنت كلب تُكَرِّهِينى فى أى شىء، كأننى طفل وأنت أمه

- ولماذا لا تقول إنها العشرة الطويلة، فمن من كل من حولك رافقك كل هذا الزمن؟

- إذن أغلقى فمك واسمعينى

راح يشكو لها من رغبة جنات في ان تربطه إلى جوارها، وتظاهرت بمسايرته وهى تدرك أنه لا يتحمل أن تطالبه جنات بالنوم معها كل ليلة، بل وربما تريده أكثر من مرة فى اليوم، ورأت ألا تميل معه ضدها فقالت:

- أمن يومين أو ثلاثة تحكم عليها يا أبى؟ إنتظر حتى يمضى أسبوع على الأقل

ألقى بعقب سيجارته على الأرض وقال:

- ولا يوم واحد، إذهبى إليها وعرفيها أننى لن أكون معها إلا أسبوعا واحدا فى الشهر، هم أربعة ولكل واحدة منهن أسبوعا

كتمت ابتسامة كادت تغلبها وقالت:

- لك ما تشاء يا شيخ عبد العاطى

كانت هى الأخرى قد فكرت فى أن تحدثه فيما سيفعله مع زوجاته الأخريات، لكنها أرجأت الحديث إلى وقت مناسب، كانت تخشى عليه من فتوة المرأة وعنفوانها فرأت أن تتركه أسبوعا ثم تحدثه، وكان رأيها أن يختصها بأسبوع فى كل شهر، فهو لم يعد يذهب لعزيزة، ونعيمة تتأبى عليه، فقط فردوس هى من تجاوبه، وإذا كفلت له أسبوعين بعيدا عن جنات وفردوس سيمكنه أن يلتقط أنفاسه، وعندما طلب منها ما فكرت فيه برقت فى رأسها فكرة جديدة:

- عندى اقتراح آخر

ونظر إليها مستفسرا فأردفت:

- تخصص لها خميسين فى الشهر، وباقى الأيام تتنقل بين زوجاتك

سألها:

- هل تظنين أنهما كافيين؟

أجابته وهى تبحلق فيه:

- أنت الذى يعرف، وإذا شئت خصص لها ثلاثة، خميس عزيزة وخميس نعيمة وخميسها، أما خميس فردوس فلا أنصحك بحرمانها منه

ثم استدركت:

- وفى كل الأحوال ستكون معها معظم أيام الشهر، ألم تشترط عليها أن تحمل بضاعتها إلى الأسواق بنفسك؟

أجابها:

- وهذا أيضا، أنا أفكر فى منعها، فإذا كنت قادرا على كفالتها هى وأبنائها فما الداعى لأن تخرج إلى الأسواق؟

نظرت إليه بعينين خبيرتين:

- دعها تخرج يا شيخ عبد العاطى، أولا لأنها اشترطت عليك هذا وأنت قبلت، وثانيا لأن الخروج إلى الأسواق سيشغلها عنك، ستعود إلى الدار فى آخر اليوم مهدودة، وستضع رأسها على المخدة وتنام

فكر قليلا ثم هز رأسه موافقا.

* * *

عامان وهو يذهب إليها كل خميس عدا خميس فردوس، فى عصر كل خميس يأخذ نفسه إلى مقهى النبوى، وبينما يعد له الرجل الشاى يكون قد وضع سنة الأفيون فوق ضرسه ليستحلبها مع الشاى، وقد يتبادل الحديث مع النبوى حتى يعمل الأفيون أثره فينهض فى تثاقل وهو يقول:

- استعنا على الشقا بالله

ويضحك النبوى:

- هل شخت أم ماذا يا بطل؟ شد حيلك امّال

أبناؤها يذهبون إلى المدرسة وهى تخرج إلى الأسواق ببضاعتها، رافقها أشهر ثم كف، وعهد إلى ابنه يونس ليحملها ببضاعتها فى عربته الربع نقل إلى حيث تريد، ويتركها فى السوق إلى أن يحين موعد عودتها ثم يعود ليصحبها، وظلا هكذا حتى فاجأته ذات يوم:

- نفسى تزهد الطعام ومعدتى تؤلمنى يا عبودة

مرت أيام كانت تصحو فيها على ألم فى معدتها فتسارع بالخروج من الحجرة لتتقيأ فى الخارج، وانقبض صدره وهى تقول:

- يبدو أننى حامل

وراجعها مرات ليتأكد من مواعيد دورتها فقالت غاضبة:

- لا أراك فرحانا، ألا تريد ولدا منى يا رجل؟

تظاهر بالفرح وهو يجيبها:

- إتفلى من فمك يا امرأة، عبد العاطى يتمنى أن يملأ أولاده جنبات طنبارة

سألته فى دلال:

- لماذا تتجهم إذن؟

- بل هى الفرحة

مالت على كتفه وقالت:

- خذني إلى الطبيب إذن
وأخذ وقته ليقول:
- أنا لم أذهب بواحدة من نسائي إلى طبيب ابدا
تظاهرت بمجاراته ثم قالت:
- اذهب أنا في السر ولا نقول لأحد
حزم أمره وقال:
- لا يليق أن تذهبي وحدك، سترافقك برسكال -
وانفجرت فيه:
- يادي برسكال، ناقص تجلسها بيننا في السرير
وفي اليوم التالي جاءت برسكال، ولما عرفها بما دار بينهما أسرت إليه:
- زوجتك تكذب يا شيخ عبد العاطي، أنا أعرف وجه المرأة عندما تكون حاملا
راجعها:
- إنها مسألة أيام، ربما لم تظهر على وجهها علامات الحمل بعد
لكن الفتاة الخبيرة رفعت حاجبيها وقالت في يقين:
- ولو
في طريق العودة إلى دارها قالت لنفسها أما كان عليها أن تصبر حتى تتأكد من كذبها؟ وتركت اباها يقعي فوق المصطبة ويقلب الأمر هو الآخر في عقله، أي جحيم وضعته ابنته فيه؟ إنها لا تحب جنات، هو على يقين من هذا، ونظر إلى جنات وهي تجلس عند ركن المصطبة فرأى ملامحها الحلوة القاسية تضطرم بالغضب، وحتى يخرجها من حالتها قال:
- سنذهب أنا وأنت إلى الطبيب وليكن ما يكون
بعد قليل من الصمت قالت:
- دعنا يومين أو ثلاثة حتى أستعد

نظر إلى أقفاص الخضروات المرصوصة فى البراح والمغطاة بالقش لتحتفظ بطزاجتها وقال:

- اصرفى النظر إذن عن الخروج إلى السوق على الأقل السبت والأحد القادمين

أسرعت تجيبه:

- لا يمكن، ستتلف الخضروات التى دفعت ثمنها من حر مالى

ابتسم وهو يقول:

- أعطيك ثمنها واقعدى

اجابته:

- وأفقد زبائنى؟ لن يكون هذا أبدا

فى صباح الجمعة قبل أن يتوجه إلى دار نعيمة قصد دار برسكال، لم يعد قادرا على مطالب جنات، وحتى يرضيها صار يأخذ الأفيون مضاعفا فهزل جسده، وفى الطريق سخر من نفسه وقال إن جنته صارت جحيمه، وأعدت له برسكال الفطور ثم جلست معه تحت ظل التوتة، وبينما هى تصب الشاى فاجأها:

- من أين عرفت أنها تكذب يا برسكال؟

ناولته كوب الشاى وقالت ضاحكة:

- إبنتك تعرف كل شىء يا أبى، لكنكم جميعا تنسون، عزيزة وفردوس ونعيمة، وحتى جنات، وأنت

فغر فمه من الدهشة، لكم كان حتى هذه اللحظة مغفلا، هذه البنت تعرف كل شىء فعلا، وتشعر به قبل أن يشعر هو بنفسه، وطوال الوقت كان يكذب نفسه، وتتوالى المواقف وهو على عناده، وبعد أن فكر فى كل هذا قال:

- أريد أن أعرف

وبدأ في شرب الشاي، قرب فمه ونفخ في الكوب فتصاعد البخار إلى وجهه، وانغرست أطراف شاربه في الشاي الساخن، وبعد أن تلمظ بعد الرشفة الأولى قالت:

- زمان قلت لك إن فردوس ستلد "رزق"، وولدته، وقلت إن نعيمة حامل في شبان، وولدته، وعندما رزقني الله بعبد العاطي الصغير بعد البنات كنت أناديه باسمه وهو ابن شهر واحد في بطني، واليوم أقول لك إن جنات كاذبة

عاد ليرتشف الشاي ولم تعد أطراف شاربه تطال سطحه، وعرفت إنه يريد أن يسمع فقالت:

- المرأة لها واحدة من نظرتين يا شيخ عبد العاطي. نظرة للخارج تدقها في وجه محدثها ونظرة للداخل، والنظرة إلى الداخل نظرة الحامل، الفارغة لا ينشغل جسدها بشيء، لهذا تنظر إلى الخارج، أما الحامل فإنها تحدثك وعيناها تنظر داخلها، فهناك شيء يحدث يتجاوب له صدرها ونفسها وخمولها ونظرتها، وجنات كانت تنظر إلى نظرة المدقق

ما من سبيل ليكذبها، هو أيضا يشعر بأن المرأة ليست صادقة، وجزء من عقله يكذب نهوضها في الصباح وخروجها مندفعة من الحجرة لتتقيأ بعيدا عنه، فهي لم تفعلها أمامه مرة، ليس من خجل وإنما لأنها تكذب. فلكم جاصت في حضنه وضحكت ملء شدقيها، أتخجل من هذه ولا تخجل من تلك؟ وأخيرا حزم أمره وقال:

- إسمعي يا برسكال، أنا لم أعد أطيق النظر في وجه هذه المرأة، إنها تسرقني، لا تترك في جيوبي حتى ثمن الدخان

ثم صمت قليلا وأطلق قنبلته:

- سأطلقها

وقفت تحدق فى وجهه وعيناه تراوغانها، لا يقدر على وضعهما في عينيها، كطفل مذنب يقف فى حضرة أمه، وعندما يئست من صمته قالت:

- إن كنت عازما على ما تقول فالوقت ليس مناسبا أبدا

سألها:

- لماذا؟

أجابته:

- هى تقول إنها حامل، علينا أولا أن نثبت كذبها، وحتى نثبت هذا لا بد أن نعثر على عقد الدار، ثم تأخذ حقها الشرعى وتعود من حيث أتت

نظر إليها:

- العقد مع أخوتها

سألته فى خبث:

- هل تتذكر يوم أن عادت من عند أخوتها وهى مضروبة فى كل أنحاء جسدها وعندما سألتها قالت لك إنها تشاجرت فى السوق؟

- نعم

- لم تتشاجر فى السوق كما قالت، بل مع أخوتها، وزعوا على أنفسهم ميراث أبيها وحرموها

- من أين عرفت؟

- شىء لله قال لى إنها تكذب، وعندما حاصرتها بأسئلتى عجزت عن أن تدلنى على من تشاجر معها، هى فى السوق وأنا فى السوق، وفى السوق التالى استدرجت امرأة من بلدها فحكت لى كل شىء

عبد العاطى كان مذهولا وهى تسأل:

- هل تأمن إذن على ترك العقد لديهم؟

نظر إليها وهو لا يزال مذهولا:

- لا

- المرأة أكدت أنها منذ أخذت العلقة لم تعد إلى دار أخوتها، العقد معها إذن
- ليس لها أحد غير أخوتها لنتركه عندهم
- إذن هو في الدار
- أنا في الدار طوال الوقت، لا شيء هناك
ضحكت في ظفر:
- الرجل لا يعثر على شيء تخبئه امرأة يا شيخ عبد العاطي، امرأة فقط هي من تستطيع
استغلا وجودها في السوق وغياب أبنائها في المدرسة وشرعا في البحث، في البداية جلست برسكال تفكر من أين تبدأ، سألت نفسها: "لو أنني أخفي شيئا عن سليمان أين سأخبئه؟ سأخبئه في آخر مكان يمكن أن يبحث فيه"، بالطبع لن تضعه في الدولاب، فالدولاب أول شيء سيجري البحث فيه، ولن تضعه أسفل المرتبة أو الحشيات، ولا في حفرة في الأرض أو في الجدار، إين إذن؟ فلتبحث اليوم في دورة المياه، إنها أقرب إلى أن تكون مظلمة، ويمكنها أن تضعها في أي مكان هناك، خلف السيفون أو حتى في السيفون نفسه.
جلس في الصالة عينه على الطريق وأذنه معها، ولما لم تجد شيئا عادت لتجلس قبالته:
- فتشنا الحمام ولم نجد شيئا، هل نؤجل الباقي للغد أم نبحث في مكان آخر؟
أجابها والإثارة تهز أوصاله:
- من يدرينا إن كانت ستتاح لنا فرصة أخرى؟
وحتى تطمئنه قالت:
- حتى لو لم نجده، سنجبرها على التوقيع على تنازل عن العقد
فاعترض على ما قالت:
- قد تقاومنا ويحدث شيء فندخل السجن يا بنت عبد العاطي

وبعد تفكير هزت رأسها مرارا ثم قالت:
- سيكون هذا أخر حل نلجأ إليه
في اليوم التالي عادت، وكما فعلت بالأمس جلست تفكر، ثم صعدت إلى السطح وتفقدته، وبينما هي تهبط السلم قالت بصوت مسموع:
- لم افتش المرتبة، ولا الوسادات
أجابها بقلق:
- فتشتها كلها ولم أعثر على شيء
ابتسمت وهي تتجه إلى حجرة النوم:
- المرأة لا تخفي شيئا عن زوجها أسفل المرتبة أو الوسادات يا شيخ عبد العاطي، المرأة تخفيه داخلها
وكانت قد أصبحت داخل الحجرة فقالت:
- اخرج واجلس على المصطبة حتى لا يفاجئنا أحد
وبينما هو جالس واليأس يراوده سمع صرختها:
- وجدته، وجدته
اندفع الى داخل الحجرة فإذا بيديها فارغتين، ونظر إليها متسائلا، أخذته من يده إلى حافة المرتبة الداخلية وقالت:
- أنظر هنا
قال متشككا:
- لا أرى شيئا
قالت:
- طبيعي ألا ترى، فكيف تخبئه إذا كنت ستراه؟
وسحبته من يده فانطرح فوق السرير:
- تامل خياطة المرتبة من الراس الى الذيل
واشارت إلى موضع في المرتبة ثم قالت:
- هذا الجزء بالذات ليس خياطة حلمي المنجد

وانتصبت منتصرة:
- عقد دارك هنا يا شيخ عبد العاطى
نظر فى ساعة جيبه ثم قال:
- أمامنا أقل من ساعة
صمتت قليلا ثم سألته:
- أهنا إبرة وخيط؟
أجابها مرتبكا:
- ربما
بحثت فى الدلاب فعثرت على ضالتها ووضعتها فى جيبها وقالت:
- أخرج إلى المصطبة وراقب الموقف، لا تدخل على إلا عندما أناديك

وقبل أن يخرج ساعدها فى سحب المرتبة ووضعها على الأرض، ثم راحت تفك بأسنانها خياطة الموضع المختار، وأدخلت يدها وتحسست القطن فلم تجد شيئا، وعندما بحثت داخل القطن على طول ذراعها شعرت به، كان مطويا بين لفائف القطن فأخرجته، فردته أمام عينيها وقرأت ما فيه، ونازعتها نفسها لتناديه لكنها رأت أن تكمل عملها، فأخرجت الإبرة والخيط وراحت تعيد المرتبة إلى ما كانت عليه، وبعد أن انتهت رفعت المرتبة فوق السرير بمفردها وفرشت فوقها الملاءة، ثم وضعت الوسادة وسوت اللحاف، وخرجت إليه وهو ينفث دخان سيجارته فى توتر، وعندما علق بصره بوجهها أخرجت العقد وفردته أمام عينيه:
- ها هو يا شيخ عبد العاطى

دفعها داخل الدار، ثم هجم عليها واستخلص العقد من يدها، هو لا يقرأ ولا يكتب لكنه يعرفه، فهذا هو العقد الذى أمسك المأذون بإبهامه وبصم به عليه، ولما أعاد تطبيقه وهم بوضعه فى جيب صديريته اختطفته منه:

- هذا العقد سيكون معى، وستعطينى نسختك أيضا، وإلا كأننا نعطيه لها مرة أخرى

ووقفت فى انتظار نسخته فأخرج محفظته وسلمها لها، وهمت بالخروج من الدار فصرخ فيها:

- والمرتبة؟

اجابته وهى تسرع الخطى فى اتجاه الطريق:

- كل شىء أعيد لأصله

* * *

والليل يدخل عادت جنات، وجدته جالسا على المصطبة، ووجدت أبناءها يلعبون أمام الدار، كانت شاحبة ومضطربة، فهو منذ أبلغته بحملها لم يترك الدار لحظة، وصار يبيت لديها كل ليلة، وعندما رأته ارتمت فوق صدره وانخرطت في البكاء:

- نزل على دم كثير اليوم

أخذ رأسها بين يديه وقال متظاهرا بالغضب:

- هذا ما كنت أخشاه، قلت لك لا تخرجي وأصررت على رأيك

وأسندها بين يديه حتى أوصلها إلى السرير، وهو يهم بالخروج حذرته:

- أظنك ستخبر برسكال؟

التفت إليها وقال في تأثر:

- فقط لو أعرف ما سر عدائك لها؟ إنها الوحيدة التي تزورك وتفعل، من أجلك الكثير

اسرعت تجيبه:

- أنت تظلمني، فقط اريد أن أندبر أمرى فلا تدخل عني وأنا غارقة في دمي

عندما حل الليل كانت قد تخلصت من ملابسها في الحمام وارتدت أخرى، ثم استلقت فوق السرير ونادت على ابنها ليعد العشاء، فهي لا تقدر على صلب طولها، وبحث الولد عن الخبز وأحضر طبق الجبن واخرج من الثلاجة حبات طماطم وخيار وجلسوا يتناولون الطعام.

تعرف أنه لا يحب النوم إلى جوار نسائه عندما ينزل عليهن الدم فقالت بصوت رأت أن تكسّره ليصير فتاتا:

- الليلة ستنام على الكنبة في الصالة فالدم لا يزال ينزف

تظاهر بالانزعاج وقال:

- دعيني آخذك إلى المستشفى فأنت هكذا تصفين دمك
وتوسلت إليه:
- سيعرف الجميع مصيبتي، وسيلقون اللوم علي، إتركني وسأكون في الغد أحسن
حتى تقنعه قالت:
- إنه يقل باستمرار، وعلى الصباح سيكون قد انقطع
تمتم وهو يتظاهر بالانصياع:
- إن شاء الله
فكر في الذهاب إلى دار فردوس لكنه تراجع، ظل جالسا على المصطبة، إنه إن ترك الدار ستكتشف الأمر قبل الأوان، فتح باب الحجرة وقال:
- سأدع الباب مفتوحا حتى إذا ناديتني أسمعك
تظاهرت بالنوم فجلس فوق الكنبة في الصالة، على بعد متر واحد من باب الحجرة، ثم أمال المسند ووضع رأسه عليه واستلقى، وراح يحدق في السقف، أي شيطان جعلها تفعل ما فعلت؟ هكذا راح يسأل، ادعت شيئا سيكتشف زيفه إن عاجلا أو آجلا، فلماذا فعلت؟ وظل مستيقظا وباب الحجرة مفتوح، وعندما أطلقت مكبرات الصوت صفاراتها لتنقل صلاة الفجر سعل ليشعرها بأنه مستيقظ، وظل على هذا الحال حتى طلعت الشمس، ووجدها تتسلل خارجة، جلس وسألها عن الحال فقالت:
- الحمد لله أحسن كثيرا
- انقطع النزيف
أجابته وهي متوجهة إلى الحمام:
- أشعر بأنه انقطع، فأنا لم أغير الحفاض منذ سمعتك تسعل وقت صلاة الفجر

فاجأ يونس برسكال فى دارها، قال إنه يشعر بشىء مريب فى دار جنات، فالمرأة بالأمس وهما عائدين كانت تجلس منكفئة على نفسها وتتألم، وأنكرت برسكال معرفتها بشىء فقال:

- أتكون حاملا؟

مطت شفتيها ورفعت أكتافها وقالت:

- علمى علمك

وحتى تصرفه لتذهب إلى هناك قالت:

- سأنتهى من أعمال الدار وأذهب لأرى

عند مشارف الدار لمحت أباها على المصطبة، ألقت التحية وتعلقت نظراتها بعينيه فعرفت كل شىء، دلفت إلى الحجرة ورأت جنات فوق السرير، ملفوفة باللحاف رغم الحر، كان جسدها الفتى ينضح العرق، اقتربت منها، وبحثت عن جلباب فوق شماعة الركن وراحت تمسح العرق من وجهها، وكلما حاولت أن تنظر إلى عينيها تلتفت جنات عنها، ولما اطمأنت إلى خلودها متظاهرة بالاستغراق فى النوم خرجت، ثم عادت ومعها قالب من العجوة، وفاحت الدار بالرائحة الطيبة، فلقد وضعت ملعقة كبيرة من السمن على النار وراحت تقلى العجوة، لم يكن فى الدار سوى ثلاثتهم، ولما انتهت دخلت عليها وأيقظتها، وتظاهرت بالاستيقاظ فأطعمتها العجوة المحمرة بيديها، وأعقبتها بكوب كبير من الحلبة وهى تقول:

- السقط مثل الولادة يا امرأة أبى، دواؤه العجوة المقلية فى السمن والحلبة

بكت المرأة متظاهرة بالانكسار، وبعد أن انتهت من شرب الحلبة قالت:

- أشعر كأننى وقعت من فوق جبل يا أم عبد العاطى، سأعود إلى النوم

ظلا يحرسانها طوال اليوم، كانت فى أمس الحاجة إلى نصف ساعة فقط بعيدا عن رقابتهما، لكنهما لم يمكناها، وعند مدخل الأرض بعيدا عن الدار قالت برسكال لأبيها وهى عائدة إلى دارها:

- زوجتك تخطط للهرب يا شيخ عبد العاطى

كانت جنات قد راحت فى النوم، إذ لم تكن قد نامت طوال الليل، وعندما استيقظت لم تجد برسكال، خرجت من الحجرة متظاهرة بالوهن وقالت:

- خذنى إلى دارى فى بلدنا يا "أبو" يونس، أمكث هناك أياما ثم أعود

تظاهر بالغضب وهو يقول:

- أتفضحينى عند أخوتك يا جنات؟ يقولون إننى رميتك لما مرضت؟

مالت برأسها فوق كتفه وقالت:

- كل الناس يفعلون هذا، فمن أولى بالمريضة من أهلها؟

كانت تتقن دورها فجاوبها بإتقان دوره هو أيضا، وتظاهر بالحزن وهو يقول:

- قلت إنك صرت أحسن؟

أجابته بزهق:

- قلت، ولكنى لا أطيق البقاء وأنا على هذا الحال

سألها:

- والأولاد؟ والمدرسة؟

- سآخذهم معى فأنا لا أستغنى عنهم

وحتى تهون عليه الأمر قالت:

- كلها أيام وسأعود

قال كمن يبرئ ذمته:

- إذن آخذك إلى الطبيب وأشترى لك الدواء وأحملك إلى هناك

رفعت رأسها من فوق كتفه وقالت:

- عندما نصل إلى هناك إعطني نقودا أمامهم وأنا سأرى إن كنت أذهب إلى الطبيب أم إلى شيخة أعرفها

عندما عاد إلى دار فردوس رأى شماتة فى عينيها، كان قد أوصل جنات إلى بلدها البعيد بعد أن أحكم الرقابة عليها حتى خرجت معه، وجاءت جاراتها فأخرج حافظته واستل منها أوراقا بعشرة وأعطاها إياها، وطوال الطريق كان يفكر، إلى أين سيعود؟ إلى نعيمة أم فردوس؟ أخذ الطريق إلى دار فردوس، كان لا يريد أن يرى أسئلة عينى نعيمة، وها هى فردوس تشمت، وفى عبارات قاطعة قال ردا على شماتتها:

- حين أنتهى مما أنا فيه سأحاسبك حسابا عسيرا يا بنت نعمان

ولما اقتربت منه معتذرة انتفض واقفا:

- على الطلاق بالثلاثة لو لم تلزمى مكانك يا بنت نعمان لأخرجن من دارك ولا أعود إليها أبدا، وفى الغد تصلك ورقتك

نظرت إليه مندهشة، فبرغم حدته عيناه تقولان شيئا آخر، كان عبد المغنى قد سافر إلى السعودية ولم يعد فى الدار سواها، فبناتها فى دور أزواجهن، وعبد الراضى منذ سافر إلى الأردن لا يعود إلا مرتين فى العام، وأثناء غيابه تلزم زوجته دار أهلها، فهذا هو الحل الذى استقرت عليه الزوجة للحد من تفاقم الخلاف بينها وبين حماتها، كان العم عبد العاطى قد هدأ فمسحت فردوس على ظهره بيدها، واهتز لحمها الشهى وهى تجلس عند قدميه وتزيح عنهما بلغته، وراحت تفرك أصابع قدميه ثم سألته فى دلال:

- حذر ماذا؟

نظر إليها متعجبا، فمزاجه لا يتحمل ألاعيبها، لكنها أجابت:

- الحاج عبد المغنى اتصل، قال إنه ينهى أوراق دعوة لنا لنحج

كانت طائرة من الفرح فاضطر للتظاهر بالفرح أيضا، فيما هو يفكر في خطوات التخلص من جنات، وقضى ليلته يفكر، ما الذى تريده جنات؟ إن كانت تفكر فى الهرب فلماذا لم تخرج العقد من مخبئه قبل ذلك؟ وعندما علم بعودة برسكال من عملها ذهب إليها ليشركها فى حيرته، نظرت فى عمق عينيه وقالت:

- أظنك تسأل أمن تريد الدار تتركها وتهرب؟ امرأتك لا تريد الدار يا شيخ عبد العاطى، امرأتك تريد ثمنها، وبعد يومين أو ثلاثة إذهب لتعودها وستفاتحك فى الأمر، وإذا لم تفعل ستفاتحك فى المرة الثانية

انزعج من قولها، وطفا الانزعاج فوق ملامحه الشائخة:

- ويتكاثرون على هناك ويبصمونى على عقد جديد؟

أجابته:

- ومن أين لها أن تعرف أن العقد معنا؟ لم تغب عن أعيننا لحظة منذ عثرنا عليه؟

قال متحفظا:

- ولو، ربما لا تريد أن تعود فتجدها فرصة للحصول على عقد جديد

تمعنت برسكال فى قوله ثم قالت:

- جنات اتفقت مع أبناء عم نعيمة لتبيعهم الدار يا شيخ عبد العاطى، أعطوها ألف جنيه ربط كلام

انهارت يداه فسقط كوب الشاى على جلبابه، وأسرعت لتمنعه فلم تلحق، وسمعته يسأل فى وهن:

- ولماذا يفعلون؟ كان خلاف بيننا وذهب لحاله، ما الذى سيكسبونه إذا اشتروها؟ إنها مجرد نصف قيراط

ابتسمت متأسية ثم قالت:

- هى النفوس يا شيخ عبد العاطى، حرب جديدة، فقط إعطنى ألف جنيه وسأجلب زوجتك إلى هنا

هم بسؤالها عن قصدها فقالت:

- إفعل كما أقول ولا تناقشنى

فى دار جنات جلست برسكال فى الصالة، برفقتها مخبر تعرفت عليه فى أحد الأسواق، وبعد أن اطمأنت إلى أن جنات لا تفكر فى شىء مما تخافه أطلقت خبرها:

- الحاج عبد العاطى ذاهب للحج هو وأمه فردوس، وأرسلنى لأعودك وأسأل إن كنت ستعودين لتسلمى عليه قبل الذهاب أم لا؟

ورأت البشر فى ملامح المرأة فطرقت الحديد وهو ساخن:

- عندما بلغه خبر الدعوة التى أرسلها لهما الحاج عبد المغنى قال: فى رقبتى دين لجنات لن أحج إلا إذا أديته، ووافقه الجميع على ما قال فأعطانى ألف جنيه لتكون تكلفة أدائك للعمرة

وأخرجت المبلغ من صدرها ملفوفا فى منديل صغير، ناولتها إياه وهى تقول:

- خذيه ودبرى أمرك، إن كان هنا من يخرجك للعمرة فلك ما تشاءين، وإن أردت أن تخرجى مع محسن للسياحة فى طنبارة هذا فى رأيى أفضل، فأنت صغيرة ولا يمكنك الذهاب إلا مع محرم، ومحسن يعرف كيف يدبر الأمر

لم تصدق جنات نفسها وهى تقبض على المنديل المنتفخ بالنقود، هى إذن كانت تسىء الظن بهما، عبد العاطى وبرسكال، ولو أنهما يفطنان إلى خطتها أو يقصدان منعها من شىء لما أعطياها هذا المبلغ، وكان نهار أحد أيام رمضان فتعللت بالصيام لأنها لم تقدم لها واجبا، وعندما وعدت بالمجىء إلى طنبارة بعد يوم أو اثنين أقسمت برسكال ألا تدعها تعود بمفردها، فإذا كان أبوها مشغولا حتى قمة رأسه فى استخراج الأوراق وعمل الباسبور وغيره فإنها تحل

محله، ثم سألتها عن الموعد الذى يمكنها أن تعود فيه لترافقها فقالت وأصابعها تتفقد المبلغ فى المنديل:

- بعد الغد إن شاء الله

فى الموعد المحدد تركت الأولاد مع إحدى قريباتها بحجة رغبتهم في قضاء العيد هناك وعادت مع برسكال بمفردها، ولما تفقدت الدار اطمأنت إلى أن كل شيء على ما تركته، وانتصف الليل فراحت فى سبات عميق، فلقد دست لها برسكال منوما فى الشاى، ولم تشعر بعده بشيء، وعندما استيقظت قرب الظهر شعرت برأسها خالية، وحاولت النهوض فعجزت، ونظرت فى يديها فشكت أن هناك أثرا ما فوق إبهامها، كانا قد حاولا إزالة الحبر منه حتى خشيا أن يزيلا جلده، ولم يعد هناك إلا ظل فى ركنى إظفرها، ووجدتهما جالسين حولها، وحاولت النهوض من جديد فرأت النبوت فى يد عبد العاطى، ورأت برسكال تضع طرف السكين فى نار الشالية والشرر يتطاير من نصله، وخشيت إن هى صرخت أن يقتلاها فانخرطت فى البكاء:

- يخونك العيش والملح يا عبد العاطى

اعتدل عبد العاطى وهو يحدثها:

- لن يخوننى يا جنات، أنت من خنت العيش، قلت يا ولد يا عبد العاطى هى كأية واحدة من زوجاتك، إعطها ثلاث كذبات، فكذبت وادعيت أنك حامل منى، ثم كذبت وادعيت السقط، وأخيرا كذبت لما اتفقت مع دار الهجرسى على بيع الدار من وراء ظهرى، وانتهت فرصتك، فلما كذبت للمرة الرابعة وتعللت بالمرض وفررت إلى بلدك خرجت من عداد نسائى، ليتك جئتنى يا جنات وقلت إن عيشنا انقطع عند هذا الحد يا عبودة، إذن لرأيت من عبد العاطى قلبا غافرا ونفسا راضية، لكنك انتويت الغدر

قالت وهى ترتجف:

- الغدر هو ما انتويته أنت، كنت تتركنى أخرج إلى الاسواق وتنبش كل ركن فى الدار بحثا عن العقد، ولما حصلت عليه فعلت بى هذا

قال بوجه آسف:

- دعك من كل هذا، فلا فائدة مما تقولين، أنت رسبت فى الامتحان يا جنات، إحسبى ما لك عندى وأنا سأسلمه لك وكل واحد يذهب إلى حاله

ولما صمتت والدموع تسيل من عينيها قال:

- مؤخرك فى العقد مائة جنيه، ولك نفقة سنة سأجعلها اكراما لما بيننا مائتين وأربعين جنيها، بواقع عشرين جنيها فى الشهر، مثل بنات الذوات، ولك سنتين متعة فى قانون جيهان، برغم أنك من كنت تسعين إلى الطلاق وليس أنا، وعفش الدار كله لا يساوى مائتى جنيه، إن كنت تريدينه أرسله إلى باب دارك، وإن أردت ثمنه يكون لك فى ذمتى ألف وعشرون جنيها، وصلك منهم ألف يتبقى عشرون، أعطيها لك مائة واخرجى من هذه الدار كما دخلتها

طوال حديثه لم تكف عيناها عن ذرف الدموع، ولولا وجود برسكال لأخذها فى حضنه شفقة عليها، وحانت من المرأة التفاتة إلى برسكال وقالت:

- أتقبلين أن يأكل أبوك حق ولية يا برسكال؟

واحتد عبد العاطى:

- دعى برسكال لحالها وحدثينى أنا

وأخرج حافظته وسحب منها نقودا أحصاهم أمامها مائة، وناولهم لها فلم تمد يدها، وضعهم إلى جوارها فوق السرير وهو يقول:

- إن شئت تخرجين الآن سأرسل فى طلب سيارة توصلك إلى بلدك، وإذا رأيت أن ننتظر إلى الليل فلك ما ترين، وبعد الغد بالكثير ستصلك ورقتك

وتخبطت وهى تنهض من السرير وتقول:

- لا أريد أن أبقى فى هذا المكان دقيقة واحدة

* * *

ماتت نعيمة ورمضان مقبل على امتحانات الثانوية الأزهرية، سقطت مريضة فحملها العم عبد العاطى إلى الطبيب، وحاولت برسكال أن تذهب معهما لكن نعيمة رفضت باصرار، وكذلك رفضت أن يصاحبهما رمضان، كانت تحارب معركتها الأخيرة فى تجنيبه الألم، لم تكن تعرف أن بقاءه فى الدار سيؤلمه بأكثر مما لو رافقها، وهناك أجروا فحوصا وأشعات وقال الطبيب إن لديها ورم فى الرحم انتشر فى كل مكان، ولن يجدى معه علاج، عبد العاطى عاد بها إلى الدار، كانت تعرف أن أيامها معدودة فأمسكت بيد زوجها وأشارت إلى ابنها، وعندما رأت برسكال انها ملهوفة على ابنها بكت رغما عنها، وهمت باحتضانه فجفل منها، وفى المرة الأخيرة تشبثت نعيمة بيد العم عبد العاطى وهى تشير إلى ابنها حتى سكنت.

مبكرا كانوا يعرفون أن رمضان ولد مختلف، كلهم إلا برسكال، فيوم أن علمت بحمل نعيمة شعرت بأن ما فى بطنها إبنها هى، وأحبته قبل ان يتحقق، ومن أول يوم نظرت إليه كما تنظر الأم لابنها، والأب إلى ابنه، لكن نعيمة تعلقت به تعلقا كبيرا. ولما تعلم الحبو والمناغاة صار لها وحدها، وحتى لا تغضبها كانت برسكال تباشره من بعيد، وإذا اقتربت منه تقترب فى حذر، لكن الطفل الذى اعتاد أمه لم يكن يسلم نفسه لها ولا لغيرها، فروحه دائما كانت لدى أمه، يشعر باللوعة إذا أخذه أحد منها، أرجعت برسكال هذا إلى حياة الصمت التى فرضتها نعيمة عليه.

لكن هذا كان نصف الحقيقة، فنعيمة كانت تدفع به إلى الجارات ليتعلم الكلام مع أقرانه، وفى كل مرة يعود غاضبا، لم يكن يشعر بسعادة إلا فى صمتها المطبق، وفى عينيها المترعتين بكل المعانى، ومبكرا أدرك أنها تنظر إلى برسكال فى حذر، كأنها ستسرق منها

شيئا، ولما كبر قليلا سألها عن سر نظرتها، ومن حزن عينيها أدرك كل شيء، فبرسكال ليست إلا صورة أخرى من أبيه، وإذا كان أبوه قد آلمها إلا أنها غفرت له، لأنه كان يتألم لألمها، أما برسكال، فقد آلمتها ولم تكترث، ومع الوقت كان الطفل هو الآخر دائم البحث عن مبرر لأبيه، لكنه لم يجرب البحث عن مبرر لبرسكال.

من لغة الصمت تعلم كيف يتبادل مع الاخرين أقل الكلمات، واعتاد على أن ينظر إلى أفكاره نظرة من يدرك جوهرها، لا يعنيه إن كان الآخرون يقدرونها، أو حتى يدركون وجودها وقيمتها، فهم لا يعرفون لغة الصمت، ولا المعانى التى تحملها النظرات، ومن كثرة إيمانه بأفكاره كان الصمت حبيبه ورفيق دربه، ويشيح بوجهه حتى عن أمه إذا ألحت عليه نظراتها.

حلمت به أمه شيخا أزهريا، ولما أصرت على أن ترسله إلى المدرسة الأزهرية صمت عبد العاطى، كان يريد أن يستشير جاره القديم الأستاذ عبد المطلب، وكان قد تزوج واستقر فى طنبارة وصار مديرا لمدرستها الإعدادية، وقال له الأستاذ عبد المطلب إنه لا ينصح بهذا، ففى المدارس الأزهرية لا يتعلم التلاميذ فنون الحياة، ولا يرونها إلا عقبة كبيرة تعترض طريقهم نحو هدف أسمى، وهو العودة إلى زمان الخلافة، ولم يفهم عبد العاطى مما قال سوى أن الأستاذ يعترض، وحتى لا يغضب نعيمة وافق على طلبها، وفى أول يوم رافقها إلى المدرسة، كانت كأنها تودع حاجا، فعندما عبر الطفل بوابة المدرسة وغاب عن نظرها بكت بدموع غزيرة.

انتهى رمضان من الإعدادية وحفظ القرآن كله، ودرس الكثير فى صحيح البخارى، وفى الثانوية ألم كما ينبغى لتلميذ نجيب بالصحاح الستة، وقرأ فى الطبرى وفى أشهر كتب السيرة، فى الثانوية اختاروه ليلقى حديث الصباح فى ميكروفون المدرسة، ثم دفعه

أساتذته ليخطب فى الجنازات وبين فواصل التجويد فى المآتم، حتى صار معجزة طنبارة والقرى المجاورة.

ذات مرة جاء إلى طنبارة شيخ خطب الجمعة فى المسجد الكبير، وأتبع الصلاة بحديث أوقع رمضان فى سحره، كل شيء فى الرجل أحبه، هيأته، ملابسه، ذقنه التى تفترش صدره فى جمال، صوته الحنون المتوسل، الناصح الصادق، وتباكيه، ومن شدة انبهاره به قرر أن يقلده.

أول مرة ارتقى فيها المنبر كانت قبل رحيل أمه بأشهر، سافر شيخ المسجد لأداء العمرة فأوكل الناس اليه خطبة الجمعة حتى يعود، وقضى الليل كله يجهز للخطبة، وبرغم مرضها سهرت نعيمة أمامه، ورأته وهو يلقى الخطبة أمام المرآة على طريقة شيخه، وعندما طلبت منه أن ينام ساعة أو ساعتين امتثل لطلبها، ونامت إلى جواره وظلت ترقيه بصمتها إلى أن خلد إلى النوم، وعندما رفع أذان الجمعة جلست على إحدى المصاطب القريبة لتقرأ الخطبة فى وجوه النساء اللائى كن يشاركنها الاحتفال.

قبل أن تموت أمه تكونت لديه آراء لا تحتمل الشك، فالناس من حوله يعيشون حياة فيها من المروق عن ربقة الدين أكثر مما فيها من الالتزام، وانطلق يسأل، ما قيمة الدنيا إذا لم تكن منضبطة على أنموذج الإيمان؟ كان منشطرا دون أن يدرى، شطر لا يرى إلا النقص وشطر حزين، شطر يقاتل بضراوة وشطر يتسامح ويأسف، وعندما حضرتها الوفاة نظرت فى عينيه توصيه ألا تحضر برسكال غسلها، ولما رآها ميتة أصابه الخوف، من الرسالة التى حملته أمانتها، ومن عالمه الجديد بدون أمه، ومن الصخب الذى سيحدثه الجميع فى حياته الهادئة، لم يكن قد وصل بعد إلى طريق يأخذه بعيدا عن العواطف.

وهو يمنعها من حضور الغسل نظرت برسكال إلى أبيها مستنجدة به فتظاهر أبوها بالاستغراق فى الحزن، لأول مرة لا تجاوب عيناه عينيها، وبعد أن دفنوا نعيمة نظرت برسكال إلى آل أبيها بنفس مكسورة وتعجبت، كلهن غفرن لكلهن، حتى عزيزة وزوجات يونس ومرعى ويحيى كن يستقبلن المعزيات، وفردوس لا تكف عن استعراض ربربتها وتخطر بين المعزيات هنا وهناك هى وبناتها، فيما هى منبوذة فى ركن حزنها، وعندما عادت إلى دارها بعد انفضاض العزاء رات زوجها يجلس فى شرفة الدار، كانت حزينة إلى درجة أفزعته، ونظرت إليه فبادلها نظرات حزينة، لم يكونا فى حاجة لحديث.

كل ما بقى فى رأسها وهى مؤرقة طوال الليل صورة أبيها وهو يغض الطرف عما فعله رمضان، ليته لم يكن موجودا ولم تستنجد به، لقد خذلها، بعد كل ما فعلته من أجله ومن أجلهم جميعا خذلها، ولما طلع عليها الصبح وإلى جوارها سليمان يغط فى النوم قالت:

- يا بختك يا سليمان، ليتنى أكون مثلك، أضع راسى على المخدة وأنام

قضت اليوم فى دارها ولم تذهب إلى دار نعيمة، وحاولت منع سليمان من الذهاب، وعندما رأته يتهيأ للخروج انفجرت فى البكاء:

- لا أحد منهم يريدنا يا سليمان، حتى أبى، إجلس ودعنا من قلة القيمة، يكفينا ما لاقيناه منهم، أمك، وأخواتك البنات، وعزيزة وفرسانها، والولد الذى لا يستحق الإسم الذى أناديه به، شبان من الساعة هو رمضان، كما يناديه الجميع أناديه

ربت سليمان على ظهرها:

- لهم ثلاثة أيام يا أم عبد العاطى يأخذونهم وفوقهم بوسة، وبعدها كل طير ينعى خليله

اعترضته:

- ولا حتى هذه، فلننشغل بشئوننا وربنا يهنئ سعيدا بسعيدة وحتى تتركه يذهب مازحها:

- لا يكون قلبك أسود هكذا يا ست الكل

كانما كانت في انتظار ما قال فارتمت على الأرض وراحت تهيل التراب على رأسها:

- وأنت أيضا تقول كما يقولون؟

وشعر بخطئه فانهال على رأسها يقبلها، وأخذها في حضنه فشـ... بالنار تخرج من رأسها، وتحلق أبناؤهما من حولهما وعيونهم تغرورق بالدمع، يعرفون أنها حزينة إلى درجة الفجيعة، وبعد ساعة هدأت ونامت في مكانها.

شعرت بهم وهم يحملونها ليضعوها في السرير، كانت تتمنى لو أنها ماتت وارتاحت من حزنها وغضبها، وعندما سمعت لغط أبنائها ولهاث سليمان وهم يمضون بها بكت من جديد، إنها صاحبة حمل ثقيل وأحلام كبيرة، فكيف تتركها وتمضي؟ الآن لم يعد في رأسها إلا أبوها، يجلس في صدرها ويضغط على كل خلية فيه، ويؤلمها، كانت مجرد طفلة فمن أين يعرفون أنها حتى في تلك الليلة البعيدة كانت أم أبيها؟ لا أحد منهم نام معهما في حجرة دار الجارحي ولا رأى الليل كوحش كبير، لا أحد يعرف كل شيء ويصعر خده سوى أبوها.

اقترب الضحى ونظر عبد العاطي في الدار فلم يرها، في الليلة الفائتة افتقدها عندما غادر الجميع ونظر فلم يجد أحدا من حوله هو ورمضان، أين برسكال؟ أين شريكته؟ فمنذ انفضاض العزاء لم يتحدث إلى رمضان أو يسمع منه، كان يريد أن يعاتبه على ما فعله بأخته الكبرى، التي لن يكون له من اليوم إلا هي، لكن صمت رمضان كان مخيفا، ظل كلاهما جالسا في ركنه مستغرقا في أفكاره، هو يعرف أفكاره، لكنه لا يعرف أفكار ابنه، ولما سمع

صوت مكبرات الصوت تمهد للفجر تمنى أن لو كانت برسكال معه، إذن لملأت الدار بحضورها، ولكن كيف كانت ستمكث معهما وابنه خذلها أمام نساء القرية؟ ليته لم يتغافل عن نجدتها.

فوجئوا به يطرق الباب، ورأوه واقفا يمص آخر نفس فى سيجارته ويلقيها بعيدا، وخرج سليمان ليدعوه للدخول فسأله عن برسكال، كأنه لا يعرف سر غيابها، ولا غياب سليمان أيضا، وعندما أبلغه أنها بعافية قليلا ولم تنم إلا من ساعة ضرب جبهته بكفه وتحسر:

- ألم تجد إلا الوقت الذى احتاجها فيه لتمرض؟

شعر بفداحة ما قال فانهار فوق اول مقعد فى الصالة، وعند باب حجرتها وجدها امامه، مشعثة واثار التراب فوق شعرها، كانت تغلى كمرجل فأسرع سليمان ليمنعها من الانفجار فى وجه أبيها.

تطوحت كنخلة وسليمان يسندها ويربت على كتفها حتى جلست فى مواجهة ابيها، ولاذت بآخر حصون الصمت، سألها ابوها عما بها فلم تجبه، اجاب عنها سليمان، ولما لم يتبادلا كلمة واحدة قال ممهدا للانصراف:

- أقوم انا فلقد تركت رمضان وحده والدار تضرب تقلب كما تعرفون

ثم وجه حديثه إليها:

- سأعود لأراك بعد انصراف المعزين

أين ما كانت تقوله له طوال الليل؟ وكيف ستتركه يمضى فكأن شيئا لم يكن؟ وعندما أسند يده على حلق الباب ليغادر قالت:

- إذا كنت تريد شيئا يا أبى قله الآن

استدار ليواجهها وعيناه تخفيان حزنه:

- أريدك بخير يا ابنتى، قلقت لغيابك فجئت لأطمئن عليك

سمعت وقع عصاه يبتعد فى الشارع فاغرورقت عيناها وعادت إلى سريرها.

طوال الطريق إلى دار نعيمة كان العم عبد العاطى يعنف نفسه، ليته نهر ابنه وهو يمنعها من الدخول على أمه، حتى وإن خشى ردة فعله، حتى لو أحرجه ابنه أمام الناس، وعندما وصل وجد الجميع فى انتظاره، ولامه يونس سائلا أين كان والناس يتوافدون ولا يجدونه، واكتفى بالنظر إليه، ثم صعد إلى الشرفة وكتفاه يتقوضان كمنزل قديم.

ما الذى سيفعله كل هؤلاء عندما يأتى الليل من جديد؟ سيتركونه مع إبنه للصمت والأفكار الغامضة، وإذا جاءه النوم فما يدريه أين يختبئ وجه عمه؟ من يدفن خوفه فى وجودها سواها؟ ومن سيعينه فى تولى شئون هذا الولد؟ ليس إلا هى، برسكال، كل الذين يربتون على كتف ابنه ويستدرون الدمع لن يقدموا شيئا، برسكال وحدها هى من ستقوم بكل هذا، ولو أنه وقف فى وجه مؤامرتهم وناصرها لما كان فى هذا الموقف الآن، وقال لنفسه وهو يتظاهر باستقبال الناس: "أمامى الغد أيضا، وبعد انصراف المعزين وانفضاض المأتم سأذهب إليها وأسترضيها، وستغفر لى"، واقتربت منه فردوس فقال بصوت كأزيز النار:

- غورى من وجهى الآن

تصنعت الابتسام الحزين ثم تركته وانصرفت.

فى مساء اليوم التالى فتحت برسكال البئر على اتساعه:

- أهل دارك كلهم يكرهوننى يا شيخ عبد العاطى

صمت لا يعرف كيف يجيب فأردفت:

- فى كل مرة كنت أقول لك أخرجنى من خططك يا أبى، لكنك تماديت، وها هى النتيجة، تزوجت أمى وأنجبتنى فكرهتنى عزيزة، وكرهنى فرسانها الثلاثة، ولما ماتت أمى كانوا يريدونك وحدك

فكرهوني أكثر، وكرهتني فردوس لأنها أيضا كانت تريدك وحدك، وكرهني عبد المغنى، لن أناديه بعد اليوم إلا بعبد المغنى، لم أكن أعرف أنني فررت من جحيم عزيزة إلى جحيم فردوس، وتزوجت نعيمة فكرهتني فردوس أكثر، ثم هددتني بالجنون حتى تتزوج جنات، وتزوجتها فازدادت كراهيتهم وكرهتني نعيمة، وأرضعت ابنها كراهيتي، كلهم غفروا لك، لكنهم لم يغفروا لي، وها هو رمضان، لعلمك، لن أناديه بعد اليوم إلا برمضان، الولد الذى كنت أعتبره واحدا من أبنائي يطردني من غسل أمه، كأنه يطرد كلبا ضالا، وأنت واقف هناك، وأستنجد بك فلا تنجدني، ولهم ألف حق، فلقد آذيتهم من أجلك، والآن تسألني ما الذى سنفعله لرمضان؟ لا يا شيخ عبد العاطي

خرج عن صمته وقال:

- ولا أنا يا برسكال، لن أنادى أحدا منهما باسمه الذى اخترناه له، لا رزق ولا شبان، هما كما تقولين

احتدت ساخرة:

- يا فرحتي

سألها:

- ماذا تريدين؟، قولي وسأفعل

جمدت نظرتها في عينيه ثم قالت:

- أريد ثمن دار أمي، ومالي الذى كنت أدور في الأسواق وأضعه في حجرك

ابتسم في أسف وهو يسأل:

- وأين ذهب ثمن دار أمك؟ أليست الأرض قائمة هناك ومعك بدل العقد ثلاثة؟

أسرعت تجيبه:

- نعم قائمة، وعلى ركنها دار جنات، لكنك تركتها لأبنائك يرمحون فيها، لم تسألنى إن كنت أوافق على هذا أم لا، ليتهم حتى أحبونى، أنا التى يحتلون دارها ويخزنون كراكيبهم فى أرضها

سألها بصبر بدأ ينفذ:

- ما الذى تريدينه الآن؟

- أريد أرضى، مالى

تهكم فى أسى:

- تريدين ثمن أنك ابنتى؟

بحلقت فى وجهه كالمجنونة:

- إسمعوا يا أهل العقل ما الذى يقوله هذا الرجل، إسمعوا ما الذى يقوله الشيخ عبد العاطى ملش لشريكته التى شقت معه ظلام الليل ذات ليلة، إسمعوا كيف يدينها لأنها كانت تشاركه الحلم وتأتى بالرزق من فم الوحوش وتضعه فى حجره، وبدلا من أن يطلب من زوجاته وأبنائه أن يوقروها زرع كراهيتها فى نفوسهم

لم يصدق العم عبد العاطى ما يسمع، ولم يعثر على كلمات ليجيبها، ولما فرغت من حديثها وظلت تبحلق فى وجهه سألها:

- هل تريدين شيئا آخر؟

- نعم، أريد أن تبعدنى عن أى شىء له صلة بأبنائك، صحيح أن الوقت فات لأكون موقرة بينهم، لكنه لم يفت بعد لأفلت من مؤامراتهم ضدى

برقت عيناها بكل أطياف الشر:

- لأنك إذا تركتنى ضائعة وسط هذا البحر من الكراهية سيكون يوم رحيلك هو يوم المقتلة، سأقتلهم أو يقتلونى

لأول مرة تدخل سليمان:

- لا تقولى كلاما تندمين عليه يا أم عبد العاطى

نظر إليها معاتبا:

- تركتك تعرضين بأمى وأخوتى وقلت إنها غاضبة، أما أن تتحدثى عن قتل ودم وخراب فهذا ما لا أقرك عليه

احتقن وجهها وتقلصت ملامحها وقفزت الدموع من عينيها:

- نار تشتعل فىَّ يا سليمان، حقى فى بطن هذا الرجل منذ أكثر من عشرين عاما ولا يريد إعطاءه لى، يريد أن يتركنى لهوى زوجاته وأبنائه وهم يكرهوننى

هبت واقفة وهى تشد جدائلها:

- اقتلونى الآن حتى أرتاح

سقطت على الأرض فاقدة الوعى، وهرع أبناؤها إليها، وامتلأت الدار بالصراخ واللوعة، ولأول مرة تخذل العم عبد العاطى قدماه، تمنى لو قام وأخذها فى حضنه وضمها إلى صدره، لكنه لم يستطع، وسقطت الدموع من عينيه وهو مطرق، فيما سليمان وأبناؤها يحملونها ويضعونها فوق سريرها، ظل جالسا حتى استعادت وعيها ونظرت إليهم فى دهشة:

- ماذا حدث؟

ربت سليمان على صدرها وقال والبكاء يخنقه:

- لا شىء يا حبيبتى، دخت قليلا وها أنتى والحمد لله أفقت

بكى عبد العاطى الصغير وقال موجها الحديث إلى جده:

- لماذا تكرهونها؟ ما الذى فعلته بكم؟

وأمسكت برأسها وقالت:

- رأسى فيه وابور زلط

أسرعت ابنتها فأحضرت دواء الضغط ووضعته فى فمها، كانت منذ فترة تعالج من ارتفاع الضغط، ولم يكن عبد العاطى يعرف، ولا سليمان، بعد أن هدأت سعل عبد العاطى سعلة يزيل بها احتباس صوته ثم قال:

- بعد أن تقومى بالسلامة اجلبى المساح ليقيس الأرض ويحدد نصيبك يا ابنتى، وما تقولين إنه مالك لدى احسبيه كما تشاءين، وسأعطيه لك على داير القرش، كل ما هنالك أننى كنت أريدك معى حتى النهاية، فكما بدأنا المشوار معا ننهيه معا، أنا وانت، لم أتخيل أبدا أنك ستسلكين طريقا غير الطريق الذى أسلكه

انفجرت ببكاء جاوبه بكاءهم، حتى سليمان توارى عن أبنائه وبكى فى صمت.

* * *

اندلعت الحرب بين آل عبد العاطى، عندما صحبت برسكال المساح ليقيس نصيبها جاء الفرسان الثلاثة أبناء عزيزة ليروا ما الذى تفعله، وجاءت زوجاتهم، وأقسمت فردوس على بناتها ما لم يذهبن ليرين ما الذى تفعله الشيطانة لتحرمهن على نفسها، عندما علمت بعزم زوجها على تسليم الأرض لبرسكال هاتفت عبد المغنى فى السعودية، وصدمها قوله إن الأمر لا يخصه. تريثت برسكال حتى يمر أربعين نعيمة، ثم مرضت عزيزة فأرجأت الأمر إلى ما بعد قيامها من المرض، ولما رحلت انتظرت مرور الأربعين، وأخيرا أرسلت لأبيها ليكون حاضرا القسمة، لكنه أناب القياس عنه، فقط طلب أن تقسم الأرض بالعرض، وتترك له النصف المطل على الطريق العمومى ليقيم فوقه حلمه القديم، حتى لو خصم مقاس الشارع الذى سينزل لنصيبها من نصيبه.

بينما هى والقياس يناقشان طلب العم عبد العاطى فوجئت برسكال بأخوتها وزوجاتهم، حتى بنات فردوس رأتهن واقفات عند بداية الطريق، كأنها خطة مرسومة، لم يكن معها إلا أبناؤها، هجم الفرسان الثلاثة على القياس وأعوانه وحملوا أدواتهم وألقوها بعيدا، وطردوهم من الأرض، وفى غمرة اندفاعهم حطموا أكواب الشاى وأوقعوا أبناء أختهم تحت أرجلهم.

المفاجأة عقدت لسان برسكال، جلست عند ركن الأرض تبحث عن عقلها، لم يدعوا لها أية فرصة، ونظرت إليهم فوجدتهم سعداء بانتصارهم، كانت كالمذبوح الذى يفرغ دمه، روحها تسوخ وتفر منها، للحظات لم تصدق ما يجرى، ولما تمالكت قامت مستندة إلى أذرع أبنائها، وقبل أن تنصرف عائدة إلى دارها قالت موجهة الحديث ليونس:

- هل هذا هو ما قضيتم الليل تخططون من أجله يا كبير أخوتك؟ تستحلون حقى؟

أجابها يونس بفظاظة:

- أى حق تقصدين يا بنت غايته؟ تريدين ميراثك فى أبيك وهو حى؟

أجابته:

- بل آخذ ثمن دار أمى، سل أباك وهو يعرفك -

سألها متهكما:

- من تظنين نفسك؟ أبوك بجلالة قدره لا يقدر على فعل هذا

همت بالانصراف قائلة:

- أشوف فيك يوما يا ابن عزيزة

انقضت عليها زوجته فوقعتا معا على الأرض، واجتمع عليها أبناء يونس وزوجتا مرعى ويحيى وبناتهما، ولم يعد أحد من الذين تقاطروا ليمنعوا الشجاريعرف من يضرب من، وفى لمح البصر انفض الشجار، ووقف الجميع مذهولين، فلقد أصيبت زوجة يونس بطعنة نفذت إلى داخل بطنها، وانطلق الصراخ فجمع طنبارة من أقصاها إلى أقصاها.

حملوا المرأة بين الحياة والموت إلى مستشفى طنبارة، وكانت الإصابة بالغة ودقيقة فحملها الإسعاف إلى المستشفى الجامعى فى المنصورة، وفى صالة الدار جلست برسكال لا تعرف كيف ستدبر أمرها، فبعد قليل ستأتى الشرطة، لا بد من ترتيب بعض الأوضاع قبل حبسها، كان شعرها مشعثا وآثار الضرب والعقر تملأ جسدها، عبد العاطى الصغير انطلق ليبلغ جده لكنه لم يجده، لا فى دار نعيمة ولا فى دار فردوس.

ما أن علم العم عبد العاطى بما حدث حتى أخذته قدماه إلى خارج القرية، وحبس نفسه فى إحدى عرائش الغيطان البعيدة، هل

وصل الأمر إلى هذا الحد؟ لطالما أصم أذنيه عن شكوى ابنته، كانت على حق، فلا يفعل ما فعل يونس وأخواه إلا من تسكنه الكراهية، عاد إليه خوفه القديم، ورأى ملامح عمه خلف غمامات الخريف فتساءل فى خوف، أيكون موعد الانتقام قد حل؟ أيقتل أبناؤه بعضهم؟

ظهر عبد الراضى فى دار أخيه الغائب فى العراق، قال إنهم لا يجب أن يظلوا جالسين فى انتظار ما سيكون، لا بد من تحرير محضر بالاعتداء، والاستشهاد بالقياس ومعاونيه، بل وبالعم عبد العاطى نفسه، ونظرت برسكال فيما يقول وأحكمت أمرها، وضعت طرحتها فوق رأسها وخرجت دون أن تصرح إلى أين هى ذاهبة.

لم تكن قد مرت ساعة على سقوط زوجة يونس مصابة حتى وجدها المأمور تستأذن فى الدخول عليه، حالها أغنى عن سؤالها، وعندما طلب منها الجلوس افترشت السجادة وطفقت تحكى له وتبكى، قبل دخولها عليه ذهبت إلى الاستراحة وبكت بين يدى زوجته، فطلبته الزوجة ليستقبلها، وكان صديقها مخبر المنطقة قد أبلغ رئيس المباحث أيضا، وبعد أن فرغت من الحكى استدعى المأمور رئيس المباحث وطلب منه تحرير محضر بما تقول.

فى المحضر الذى حرره رئيس المباحث بنفسه اتهمت برسكال أخوتها الثلاثة وزوجاتهم بإحداث إصاباتها، واستشهدت بأبيها وبالقياس ومعاونيه، وقبل أن تخرج من المركز لتذهب إلى المستشفى لتوقيع الكشف الطبى عليها وإعداد تقرير بإصاباتها جاءوا بالشهود، القياس وأعوانه، أما أبوها فلم يجدوه، وشهد القياس بما كلفه به العم عبد العاطى وبما جرى، وعرض المحضر على النيابة بحجة أن المشكو فى حقهم لم يمتثلوا لطلب الحضور فصدر الأمر بضبطهم جميعا وإحضارهم، وباستيفاء المحضر بسؤال العم

عبد العاطى، كل هذا والزوجة المصابة فى غرفة العمليات تجرى عملية لاستئصال الطحال الذى مزقه النصل المجهول.

أخيرا ظهر العم عبد العاطى، لم يكن بعد أن اختبأ فى عريشة الغيط البعيدة على يقين من أن أحدا سيبحث عنه، فمن كانت ستبحث عنه غارقة فى مصيبتها، وأخذته قدماه فى طريق العودة، لا يعرف إلى أين سيتجه، فإن هو ذهب إلى دار نعيمة أو دار فردوس سيتهمه الجميع بالتسبب فى الكارثة وتصعير خده، وإن هو ذهب إلى دار يونس أو أحد أخويه سيأخذ الجميع تصرفه على أنه إعلان بالانحياز إليهم، وإذا ذهب إلى دار برسكال سيبدو كأنه موافق على ما حدث فى حق زوجة ابنه، وكان الليل قد هبط على طنبارة والناس يجتمعون فى الأركان وينتظرون قدوم الشرطة، وعندما مر بمقهى النبوى نظر فى وجوه الجالسين وسقط من طوله، وأسرع الجميع إليه فوجدوه غائبا عن الوعى.

حملوه إلى دار فردوس فرقعت بالصوت لمرآه وهم يحملونه، كل شىء كان أمام عينيه غائما، حتى فردوس بشحمها الكثير ووجهها المرتعب، وجلست بناته بسقينه العصير، وعندما سرى الدم فى عروقه أرسل فى استدعاء رمضان، فهو الوحيد الذى لم يشترك فى الحرب، كان فى أجازة من كليته، جاء متثاقلا، فما الذى يعنيه فى صراع بين أناس لا يعرفون دينهم؟ إنها معركة ضالة، ولما علق أبوه فيه نظره قال فى جرأة غريبة:

- المال الحرام نهايته كما ترى

احتد عبد العاطى:

- حرمت على عيشتك، كلكم ضالعون فى هذا الأمر يا ابن نعيمة، وأنت أولهم

صعر رمضان خده:

- لا يعنينى ما تظن، لكن المال الذى تبحث عنه ابنتك حرام، ألم تجمعه أمها من أعمال السحر؟

كاد الرجل يصعق:

- إنها أختك يا بنى، منذ رحلت أمك هى من تسهر عليك وتخدمك

قطب رمضان وجهه، ونقل بصره بين فردوس وبناتها ثم قال:

- إذا أردت أن ترضى الله بع هذه الأرض وخذ مالك الحلال وأخرج الباقى ليصرف على مصالح المسلمين، وإذا كانت ابنتك فى حاجة للمال إعطها منه كما تعطى غيرها

برسكال على حق، هذا ما تيقن منه العم عبد العاطى، هو الذى أوقعها فى براثنهم، حتى الولد الذى تسهر عليه وتنظف داره وتطهو له الطعام وتغسل ملابسه يكرهها، ولما خلت الدار ولم يعد هناك سواه هو وفردوس نظر إليها غاضبا:

- دلونى على خطأ واحد ارتكبته برسكال فى حقكم، هى من تصلكم حتى وأنتم تقاطعونها، الولد الذى تفنى صحتها من أجله يقول إن مالها حرام، إبنك فى السعودية يقبض الأموال ويدخرها لنفسه، وكذلك يفعل يونس ومرعى ويحيى، أتستحلون مالها وتكرهونها؟

برغم امتعاضها مما يقول اختارت فردوس ألا تعارضه، ولما انكفأ على نفسه رأت أن تخرجه من حالته فقالت:

- أنا لا أكرهها يا "أبو" يونس، ولم أكرهها يوما، أنا فقط آخذ عليها أنها قماصة

ثم اقتربت منه وقالت:

- دعنا من هذا الآن وقل لى، ما الذى سنفعله فى هذه المصيبة؟ ألا يجب أن نسأل عن زوجة يونس؟

لكنه كان مرابطا فى الدائرة التى اختارها لحديثه فسألها:

- ما الذى كانت بناتك تفعلنه هناك يا فردوس؟ من أرسلهن؟

استشعرت الخطر فهبت تدافع:

- كن هناك كما كانت البلد كلها، لا تدخلن ولا فعلن شيئا
أعاد السؤال عليها وهو يحد نظره فى عينيها:
- من أرسلهن يا فردوس؟
أجابته متنصلة من الأمر كله:
- ومن أدرانى يا رجل؟ كن هنا من ساعة فلماذا لم تسألهن بنفسك؟ الخيبة أن تظن أننى من أرسلت بهن

كل شيء جرى ترتيبه قبل أن يضع يونس كلمة واحدة فى المحضر الذى حررته نقطة المستشفى عن أسباب إصابة زوجته، لم تكن الزوجة فى حال تسمح بسؤالها فسألوا يونس، واتهم برسكال بطعنها بسكين بقصد قتلها، وأغلقت نقطة المستشفى المحضر مرفقا به التقرير الطبى بحالتها وأرسلته إلى القسم الذى أرسله بدوره إلى مركز السنبلاوين، وكانت برسكال بعد توقيع الكشف الطبى عليها قد عادت إلى دارها.

فى الصباح ذهبت بقدميها إلى المركز لتسلم نفسها، لم تبلغ أحدا بمقصدها سوى ابنها عبد العاطى، كان محضر نقطة المستشفى قد ورد حسبما أخبرها مخبر المنطقة فذهبت لتسأل فيه وجرى عرضها على النيابة، ودون فى المحضر أنها حضرت من تلقاء نفسها، وقبل أن يعود يونس من المنصورة كانت النيابة قد سألتها وسمعت إنكارها ثم أمرت بإخلاء سبيلها مؤقتا لحين سماع أقوال المجنى عليها، ونتيجة لمسعى المأمور ورئيس المباحث أرسلت النيابة القضية إلى النيابة الكلية لتتولى نيابة قسم أول المنصورة التى يقع المستشفى فى دائرتها سؤال المجنى عليها بعد أن كلفت المباحث بإعداد تحريات عن حقيقة الواقعة، وطمأنها رئيس المباحث وهم يخلون سبيلها فقال إنه سيجرى التحريات بنفسه، وعادت إلى طنبارة دون أن يعرف أحد بما فعلت فيما الناس يتعجبون كيف لم يقبض عليها.

يونس هو الذى قبض عليه تنفيذا لأمر النيابة التى أخلت سبيله بكفالة مالية، بات ليلته فى الحبس، وفى الصباح عرضوه على الشعبة لمعرفة ما إذا كان مطلوبا لسبب آخر، وتبين أن عليه أحكاما غيابية بالحبس عن أقساط لم يتم سدادها من ثمن السيارة النقل الكبيرة التى اشتراها هو وأخواه، واستدعى هذا حجزه ليومين آخرين حتى يقرر فيها بالمعارضة، وجد البحث عن باقى المطلوبين ففر مرعى ويحيى من طنبارة حتى لا ينالهما ما نال أخيهما، كما فرت زوجتاهما حتى لا يقبض عليهما وتلاقيا نفس المصير.

لم يعد أمام العم عبد العاطى عائق للدخول على الموضوع من أوسع الأبواب، ذهب ليرى يونس فى سجن المركز فعرف محامى برسكال بوجوده وأبلغ رئيس المباحث، وساقه الرجل إلى النيابة حيث سمعت أقواله فقال إنه هو من أوكل إلى القياس فرز نصيب ابنته فى الأرض وتعيين الحد بين الملكين، ولما سئل عن صلة برسكال بالأرض التى جرى فيها الاعتداء قال إنها تملك نصفها على المشاع معه، وعن صلة المجنى عليها بالأرض نفى أية صلة لها بها، كما نفى صلة يونس وأخويه وزوجتيهما بها، وعن معلوماته عن واقعة الشروع فى قتل زوجة يونس نفى أن يكون قد رأى أو علم شيئا، وأدرك وهم يسألونه أن ابنته تدبرت أمرها، فقد بدا واضحا أن الجميع يتعاطفون معها.

قبل أن يخرج يونس من محبسه ذهب العم عبد العاطى إلى المنصورة ليطمئن على زوجة ابنه المصابة، وهناك ترك لأبنائها ألف جنيه لمصاريف الدواء، وبناء على سعى خفى منه نشط رجال العرف لعقد جلسة عرفية بين الطرفين، يونس عاد إلى طنباره قبل أن يطمئن على زوجته، قصد من فوره إلى أبيه، ووجده نائما فى سرير فردوس فبادره بالصراخ:

- أتنام هنا يا كبير العائلة وزوجتى تموت فى المستشفى؟

بهدوء أجابه العم عبد العاطى:
- ما شأن زوجتك بأرضى لتذهب إلى هناك يا كبير الأنجال؟ وما شأنك أنت وأخويك؟
احتد يونس:
- نحن المقتولون يقبض علينا والقاتلة تروح وتجىء حرة؟
إعتدل العم عبد العاطى وقال ملتزما الهدوء:
- إسمع يا بنى، إن كنت تريد أن تحقق فى الأمر فأمامك لجنة القرية
لطم يونس خديه:
- أأجلس للتحقيق العرفى وزوجتى بين الحياة والموت؟
أجابه محافظا على هدوئه:
- إنتظر حتى تقوم بالسلامة ثم اجلس للتحقيق
لما هم يونس بالحديث حمر العم عبد العاطى عينيه وقال:
- لكن ورحمة أبى وأمى إن فعلتم شيئا دون علمى أنت وأخواك لأضربنكم ببلغتى أمام طنبارة كلها
ولما رأى أن تهديده أتى ثماره أردف:
- ألم يكفكم ما فعلتموه بها فى مأتم أمكم ومن قبل فى مأتم نعيمة؟ أم تظنون أننى شخت وصرت أخرى على نفسى ولا أعرف خططكم؟
صاح صيحة ارتجت لها الدار وأعطاف فردوس:
- لا، أفق يا ابن عزيزة، عبد العاطى ملش من هذه اللحظة هو من سيكون بينكم وبينها، لها نصف الأرض وسأقيسه بنفسى وأسلمه لها، ومالها الذى وضعته فى حجرى وحجر هذه المرأة المجرمة . . مشيرا لفردوس.
وتابع:
- من الجرى فى الأسواق واللف على الدور سأعطيه لها بالمليم

وأسعده رعب فردوس فقال:
- ولا تنسى أن أرزاق الساحرة هى من جعلت لك هذه الأكتاف التى تهزها أمامى كأنك تخيفنى
هم يونس بالمغادرة فزعق فيه:
- أنا لم أنته من حديثى، إجلس لنرى كيف سنخرجك من الورطة التى وضعت نفسك وأخويك فيها، أم تظن أن أختك لا تعرف كيف تدبر أمورها؟ لعلمك، أختك ذهبت إلى النيابة وسئلت فى المحضر الذى اتهمتها فيه بالشروع فى قتل زوجتك وأخلت النيابة سبيلها بدون كفالة، ولو ظللتم راكبين رؤوسكم أنت وأخواك ستُقَلِّب عليكم القديم والجديد، فأنتم لا تعرفونها، ولا هذه المرأة المجرمة تعرفها
نظر إلى فردوس:
- أنا الذى أعرفها، تركتكم فى حضن أمكم وأخذتها وهى بنت خمس سنين فى طريق لا أعرف أوله من آخره، كانت ونسى، نبحت علينا الكلاب وعوت الذئاب وأنتم نائمون فى أسرتكم، وإذا خالفتنى أنت وأخواك وأردتم الحرب سأحاربكم بنفسى، ولن تروا من ورائى مليما أحمر، وسأذهب إلى النيابة وأشهد ضدكم
كان يونس قد انطفأ نجمه فقال والبكاء يخنقه:
- كأنك تقول إن قتل زوجتى ليس جريمة، إنك حتى لم تراع صورتى أمام أنسبائى
اهتز العم عبد العاطى من كسرته فعاد إليه هدوؤه:
- من قال هذا؟ سنجلس للتحقيق وكل طرف يأخذ حقه، لن أتدخل فى التحقيق، سأترككم تعرضون مسألتكم على القضاة، وستعرض هى الأخرى مسألتها، وما يقضون به سينفذ، سواء لكم أو عليكم
لكنه لما التفت إلى فردوس عاد لبعض الحدة:
- أما هذه المرأة وبناتها فأنا أعرف كيف سأحاسبهن، ليس عبد العاطى هو من يجلس على مقعدته ونساؤه يتآمرن على ابنته

نظرة برسكال المستنجدة يوم غسل نعيمة لا تزال منطبعة فى ذهنه، لا يزال يشعر بالخجل لتغافله عن نجدتها، وحتى لا يرتكب حماقة قد يندم عليها أمر فردوس بتجهيز ملابسه، فحتى تنعقد اللجنة العرفية ويرسو قارب الحرب إلى شاطئ سينتقل للإقامة فى دار جنات المهجورة، همت بمعارضته فرأت فى عينيه بريقا لم تره من قبل، حتى يوم أن علم بما قاله الناس عن فجر ابنها بابنته.

* * *

رغم أن الأمور عادت إلى حالها بعد انعقاد جلسة الصلح وتكفل العم عبد العاطى بمصاريف علاج زوجة يونس ظلت الأرض على حالها، وعندما أرادت برسكال أن تعود لما بدأته حذرها أبوها:

- هذه المرة سيُقْتَل واحد منكم، أخوتك لن يتركوك تأخذين الأرض وقد سقطت فوقها الدماء

سليمان وافقه على رأيه، وحتى لا يتركها العم عبد العاطى نهبا للإحساس بالظلم قال:

- ما صدقنا أن حفظت القضية فلا تفتحى علينا أبوابا أخرى، هذه الأرض سأبيعها وأعطيك نصف ثمنها، ولكن هذا لن يكون بين يوم وليلة

وأردف:

- أرض عليها هذه المشاكل لن تباع بسعرها الحقيقى الآن

استدعاها لتقوم على خدمة رمضان أثناء عطلته، لم يعد يناديه إلا برمضان، قابلها الفتى بفتور، حرص على ألا يبادلها الحديث فصارت تذهب إليه وهى مكسورة النفس، وحتى تتفادى الحزن قالت إن غضبته ليست إلا رجولة مبكرة، كانت تبحث عن سعادة تعادل بها ما تبقى من كسرتها، فما فعله أبوها رد إليها كثيرا من اليقين كانت فى أمس الحاجة إليه، حتى أنها هى من هوت على قدميه تقبلهما ليترك دار جنات المهجورة ويعود إلى دار فردوس، وذات مرة أرادت أن تتقرب من رمضان فقالت:

- أختك جاهلة يا شيخ رمضان، أبى لم يرسلنى للمدرسة كما تعرف، ولا علم لى بما هو مكتوب فى الكتب، وأنت المتعلم فقل لى ما الصح وما الخطأ

لم يجبها، ونظر إليها فرأت فى نظرته كل ما يريد أن يقوله.

كان يجرب الانتصار على عواطفه، فقبل عودته إلى طنبارة فى الأجازة ذهب مع أقرانه إلى مرسى مطروح، وكانت الرحلة الفاصلة فى حياته، عاد منها تاركا لحيته تنمو، يحك شاربه بالموسى ويطلقها، وفى أول ليلة استقر فيها فى الدار طلب من أبيه ألا يتركه مع أخته وحدهما، وصعق عبد العاطى:

- أعوذ بالله من الشيطان، إنها أختك يا بنى وفى عمر أمك، ابنتها أكبر منك!

قال فى حسم:

- لا أحب أن أفعل شيئا يكرهه ربى أوأحد مشايخى

كان قد بدأ يرتدى جلابيب بيضاء قصيرة ويضع الشال سائبا فوق رأسه كما يفعل شيخه، ويتباكى وهو يقرأ القرآن كما يتباكى، ولم لا وقدقال له شيخه:

- المسلمون يا شيخ رمضان صنفان، مسلمو العاطفة ومسلمو الشريعة، الأخيرون هم المسلمون بحق، مسلمو العاطفة يتجاوزون، ويتعاطفون، ويقبلون بشىء من الشرك، أقله شرك عواطفهم، أما مسلمو الشريعة فهم الرجال، هم المؤمنون، يقتلعون قلوبهم من صدورهم ويلقون بها بعيدا، لا يكون فى داخلهم إلا الإسلام، لا أب، لا أم، لا أخ، لا أخت، لا إبن، لا قبيلة، لا جيرة، ولا وطن

أخيرا عرف خلاصه، وانتصر فى داخله على كل ضعف، عدا ضعفه تجاه عبد المغنى، فكل ما يعرفه عنه أنه يصلى ويصوم ويتصدق، وحتى عندما عرف بأنه لم يرتد قطعة واحدة من الملابس التى يجلبها له لم يتوقف عن إهدائه غيرها، وهو بدوره لم يلق بها بعيدا، ظل يحتفظ بها فى دولاب ملابسه ويشعر تجاهها بحنين غامض، حنين الأخ لأخيه الواقف على الجانب الآخر من النهر.

لم تفطن برسكال إلى ما قال إلا عندما لاحظت أن أباها يتعمد المبيت معهما عندما تكون فى دار نعيمة، كل مرة بحجة مختلفة،

ولهذا قل مبيتها هناك، وشيئا فشيئا صارت تذهب إليه بعد الغروب ثم تعود إلى دارها بعد إعداد كل شىء، وشعرت بألم فى صدرها لم تخبره من قبل، ألم الأم التى اكتشفت أن ابنها قد أصابه العطب وليس فى مقدورها فعل شىء لتصلحه.

لو أنها اقتربت منه فى حياة نعيمة لوجدت بابا تدخل إليه منه، لكن نعيمة استغرقته ولا تزال تستغرقه حتى بعد رحيلها، فهو لا يرى إلا ما كانت ترى، ولا يشعر إلا بما كانت تشعر به، هو ابن الصمت، وابن العيون التى تقول كل شىء فيما الأفواه مطبقة، وإذا كان قد وصل إلى درجة أنه يعدها أجنبية عنه ولا يصح أن يجتمع بها فى مكان وحدهما فما أبأسها، إنها لا تملك إلا قلبها، وقلبها يقول إن أخاها لم يذهب بعيدا فقط، بل لم يعد ممكنا إرجاعه.

لم يكد يمر شهران حتى وصلهم خبر القبض عليه ضمن مجموعة من الطلاب كانوا يقفون فى شوارع المنصورة ويسألون الرجل عن علاقته بالمرأة التى يمشى معها، ويسبون السافرات ويدخلون المارين إلى المساجد بالقوة، ولما ضج الناس منهم هاجمتهم مباحث أمن الدولة.

ذهبت مع أبيها لزيارته، ولما رآها هاج طالبا من الحارس أن يعيده إلى محبسه، وغلبها الحزن فبكت، وقالت تحدث نفسها وهما فى طريق العودة:

- كل هذا يطلع منك يا ابن نعيمة؟ يا خسارة الحب الذى أحببته لك، والليالى التى سهرتها من أجلك

خرج من السجن وتخرج، وعين خطيبا للمسجد الكبير فى طنبارة، وفاجأ الجميع ببيع دار أمه، واشترى قطعة أرض كبيرة فى مدخل القرية وشرع فى تأسيس دار عظيمة، وقبل أن يكتمل البناء فاجأهم بالسفر إلى السعودية، ولما يئست من إقدام أبيها على بيع

الأرض تحدثت إليه من جديد، وفهمت من تردده أن أخوتها هم من يريدون شراءها.

لتدعها من بيع الأرض، فهى لن تذهب بعيدا، وإذا أصر أخوتها على الشراء ستأخذ حقها فيها وتبيعه بمعرفتها، المهم هو حلمها الجديد، فابنة الأحلام لم تكف يوما عن الحلم، فى حضن أمها كانت تحلم، فى طريق الليل الطويل إلى طنبارة كانت تحلم، وظلت تحلم وتحلم حتى صارت كجرن كبير من الأحلام؛ حلم يذهب وحلم يجىء، وإذا كان حلم المصنع قد اندثر فحلم تعيين ابنها فى النيابة سرعان ما حل محله، فقط يكمل آخر سنوات دراسته فى كلية الحقوق ويحافظ على تفوقه، وراحت تجوب الأسواق البعيدة وتوسع فى تجارتها فى انتظار ذلك اليوم، وفى أيام امتحانات الليسانس عاشت مع ابنها فى الحجرة التى يستأجرها فى المنصورة، تنام معه وتستيقظ معه، وتقرأ فى وجهه أمارات أدائه فى الامتحان، إلى أن نجح بالتفوق المطلوب.

حملت إلى دار رئيس القلم الجنائى فى المحكمة شيئا من بضاعتها فتعرفت عليه، وتجاذبت معه أطراف الحديث فأبلغها أن فرصة ابنها فى اللحاق بالنيابة كبيرة، فتفوقه يشفع له، وبفطنتها أدركت ما وراء الكلام، فهى مجرد بائعة فى الأسواق وزوجها لا يمتلك إلا بضعة قراريط ودارا، وتفوق ابنها سيكون شفيعه، المهم – هكذا قال الرجل– هو ألا يكون لأحد من أفراد الأسرة سوابق.

كان لزاما عليها أن تهدئ اللعب، وأن تنسى أمر الأرض حتى لا تعكر صفو الماء تحت قارب حلمها، فإما تنشغل بابنها ومصيره وإما تجرى وراء حقها، وسابقت الزمن للحصول على كل المستندات المطلوبة،لا يقلقها إلا حديث مخبر المنطقة عن خشيته أن تعوق سيرة الشيخ رمضان وصول ابنها لمبتغاه، فأمن الدولة قد يعترض على تعيينه، ولما قالت إن علاقة أخيها بأمن الدولة متينة

قال المخبر إن ألاعيب السياسة شىء وشغل المناصب الهامة شىء آخر.

كلهم اختاروا لأنفسهم ولم يعبأوا بما سيحدث لغيرهم، أبوها اختار أن يحب النساء والعزوة، ولم يكن إلى جواره غيرها ليشركها فى نزواته، ويونس ومرعى ويحيى اختاروا طريقهم، وعبد المغنى الذى كانت لا تدخر وسعا لإسعاده اختار طريقه، ولم يمد يده ليسعفها وهى جريحة ومظلومة، رمضان الذى أحبته وهو مجرد نطفة فى بطن أمه اختار طريقا لن ينفجر إلا فى وجهها، هكذا قالت وهى تقتل نفسها بحثا عن طريق لتتفادى اعتراض أمن الدولة.

فى عائلة سليمان أخوال زوجها مستشار كبير فى محكمة النقض، ذهبت إليه وعرضت عليه الأمر، وطمأنها الرجل، فابنها حاصل على شهادته بتفوق، ومن حيث الوضع الاجتماعى فإنها يجب ألا تخاف، فتفوق ابنها يجب كل شىء، عدا الاعتراضات الأمنية، ووجدت نفسها فى النهاية تصطدم بسيرة رمضان.

لكن مرتضى مخبر أمن الدولة قال إن أخاها من السلفية وليس من الأخوان المسلمين، وهو لا يظن أن سيرته ستعوق تعيين ابنها، وحتى يصنع لنفسه حظا لديها قال إنه ما أن يجد الجد سيتابع الأمر ويوافيها بالأخبار أولا بأول.

باب التقدم للنيابة لم يكن قد فتح بعد، لكنها كانت تستبق الأيام حتى لا تفاجأ بما لم تحسب حسابه، وكان أول هم هو أن يتسرب خبر ما تفعله إلى أخوتها فيضعوا العقبات فى طريقها، فيونس وأخواه برغم الصلح ومرور السنوات لم ينسوا ما حدث، اجتنبوها وحبسوا ما فى قلوبهم، لكنها تقرأ كل شىء فى عيونهم، وزوجاتهم وأبناؤهم يفرون من أمامها حتى لا يضطرون إلى السلام عليها، حبست نفسها هى وسليمان وأقسما معا على ألا يبوح أى منهما بشىء لأحد، من طرفها أو من طرفه، وحده العم عبد العاطى هو من سيعرف، قالت

لسليمان إنها لا تفعل شيئا أبدا دون مشورته ومباركته، وإمعانا فى إخفاء الأمر أشاعت أن ابنها سيسافر إلى خاله فى السعودية بعد أداء خدمته العسكرية.

طوال الليل راحت تذيب أصباغها فى الماء وتطلق البخور وتقرأ الأوراد، فعلت هذا وهى ذاهبة لتقابل مستشار آل سليمان، وهى تتلصص على التحريات عن طريق أصدقائها، وهى تصاحب ابنها إلى القاهرة ليقدم الطلب، وتعددت الأحجبة، تخملها لتيسر أمرها، ويحملها عبد العاطى الصغير، ويحملها سليمان وهو ذاهب إلى دار أخيه أو عند أمه، وحملت فى جيوب عباءتها زجاجات الماء المقروء عليه ورشته فوق الأعتاب التى تجتازها أو يجتازها إبنها، وأخيرا جلست وقالت: ها أنا فعلت كل شىء، لم أترك بابا إلا وطرقته، ولا دعاءً إلا دعيته، والباقى على الله.

كلما تمر بالأرض تعض على أسنانها، فلولا أن موضوع ابنها يتطلب الابتعاد عن أى شىء يعكر الصفو لكان لها تصرف آخر، وأغضبها اعتقاد أخوتها بأنها استسلمت، وتهكمت من اعتقادهم، فلو كان الاستسلام من طبعها لاستسلمت وهى طفلة بائسة، ولاستسلمت وهى عربجية يتندر على عملها الجميع، لكنها لن تحارب كل المعارك فى وقت واحد، ومعركة تعيين ابنها فى النيابة هى الأولى الآن.

فى دار القضاء العالى انتظرت قرب المبنى المهيب ريثما ينتهى ابنها من تقديم أوراقه، تمنت لو أنها رافقته وخطت بقدميها فى الأماكن التى ستأخذ ابنها إلى الطريق، ولم تتركه إلا بعد ان اطمأنت إلى أن الحجاب الذى أعدته خصيصا لهذه المناسبة قابع بين طيات ملابسه، وعندما أقبل عليها بعد تقديم الأوراق كادت تطلق زغرودة، فوجهه كان متهللا بالفرح، وقال ليرد لهفتها إن تقديره يضعه ضمن

الشريحة الأولى للمتقدمين، حتى أن الموظف الذى تلقى الأوراق وراجعها ورقة ورقة هنأه مقدما.

أرهقت نفسها وصرفت بغير حساب، وفى السر أعطاها أبوها مبلغا لتستعين به على حالها، وفى صبيحة أحد الأيام جاءها مخبر المنطقة وقال إن تحريات ابنها وصلت، من المركز كله لم يرسلوا إلا لثلاثة إبنها أولهم، من فرحتها كاد يطيش صوابها، وقبل أن ترسل التحريات فى صورتها النهائية حمل إليها المخبرون فحواها، لا شىء يعوق ابنها فيها، بقى أن تعرف تحريات أمن الدولة، ودونها وهذا أهوال، فالمخبر مرتضى لا يقدم لها معلومة تشفى غليلها، فقط يطمئنها بعبارات عامة، وبرغم هذا يقبض منها ما يشاء، وذات مساء أنهى إليها أن التحريات أرسلت، وأنها لم تعترض على تعيينه، وبرغم أنها لم تشعر بالراحة إلا أنها تمسكت بأذيال بالفرح، ودست فى جيبه مبلغا محترما.

تسرب الحديث عن قرب تعيين ابنها فى النيابة ثم انتشر فى طنبارة كلها، وكانت كلما سألها أحد تقول إنها لا تعرف شيئا، وهاتفت أبيها من تليفون المحل الذى افتتحته فى الشارع الكبير لتحذره حتى لا تفلت من فمه كلمة، ثم تعود إلى الدار وتغلق النوافذ والأبواب وتطلق البخور من جديد، وتقرأ الأوراد، وحتى لا يقتلها الانتظار استمعت إلى نصيحة أبيها وصحبت سليمان وعبد العاطى وسافرت إلى القاهرة، وطمأنها مستشار آل سليمان، فطالما أرسلت إدارة النيابات أوراقه للتحرى فهذا يعنى أنه من حيث المبدأ مقبول، وطالما أن التحريات لم تعترض فإنه يستطيع أن يبارك لهم مقدما، وعادت من القاهرة منصوبة الظهر لأول مرة منذ خاضت هذا المشوار الطويل.

لم لا؟ فالبنت التى استحقروا شأنها ونازعوها حقها هى من سترفعهم إلى ذرى لم يعرفها من قبل آل عبد العاطى، سيكون منهم

قاض، وبعدها لن يكونوامجرد أناس قدموا من بعيد واستوطنوا طنبارة، ستكون لهم فى السلطة ذراع، ونسيت غضبها القديم، ورأتهم فى خيالها يتوافدون على الدار ليهنؤوها، ووجوههم مملوءة بالأسف، لم تطردهم كما طردوها، وأكرمت وفادتهم، يكفيها أن النصر كان حليفها فى النهاية.

وصل الخبر إلى السعودية فهاتفها عبد المغنى مهنئا، وقالت إن قرار التعيين قد يصدر بين لحظة وأخرى، هلل فى التليفون، واستسمحها ليشترى لعبد العاطى الصغير البدلة التى سيرتديها وهو ذاهب لأداء القسم، واغرورقت عيناها، وانشطرت فردوس نصفين، نصف يفرح لحفيدها، ونصف يستكثر على الشيطانة فرحتها وتيهها عليهم بابنها.

أخواتها من فردوس هنأنها، وتقبلت تهنئتهن باقتضاب، فهى لن تطمئن إلا إذا رأت بعينيها اسمه ضمن المختارين، لكن يونس وأخواه لم يأبهوا، لم يشغلهم بأكثر من الحديث فيه على نحو عابر، وقال يونس مشككا:

- ما للدنيا والأمنيات؟

أجابه مرعى:

- يقولون إنه من الأوائل، أيتخطونه؟

أفهمه يونس:

- الأوائل ليسوا من ينجحوا بتفوق، الأوائل هم من لديهم المال ولهم ضلع فى الحكومة

وصمت يحيى.

الشيخ رمضان لما سمع من أتباعه الخبر قال إن تعيين ابن أخته فى النيابة لا يعنى شيئا، فالحكومة لا يملأ جنباتها إلا الشرك، ووصلها ما قال وتجاهلته، قالت إن ابنها مقبل على وضع خطير وهى لن تعكر صفوه بالجرى وراء هذا القول أو ذاك، تمنت لو

ارتمت فى حضن أبيها لتبكى طول مشوارها، وتمنت لو كانت أمها موجودة، ورأتها تطل عليها من غياهب الموت مبتسمة، موفورة الصحة، لكن صمت أبيها يحزنها، ويجعلها متوجسة، وكلما تضج الفرحة فى داخلها يكتمها الخوف.

فى الليلة التى سبقت إعلان القرار أغلقت باب الدار بعد انصراف أبيها وأطلقت البخور، وجلست إلى إنائها تستجلب الأرواح الخيرة، يقينها ليس كاملا. هناك شيء ما يدب فى صدرها ويحرمها الراحة، وهدأت الدنيا فى قلب الليل فازداد خوفها، فى الأيام القليلة الماضية كانت تقف فى المحل ساهمة، لا تشاكس زبائنها كما اعتادت، ولا تنصت لحكاياتهم، واستشرت نار الخوف فى نفسها فلم تعرف كيف تطفئها، ولما طال الهدوء فكرت، إذا لم يصدر القرار فى الغد كما يقولون ستسافر إلى القاهرة.

اللطمة جاءتها فى الصباح الساخن، بعض زملاء إبنها أبلغوه أنهم فوجئوا برجال يتبعون الأمن القومى جاءوا ليكملوا التحريات، ولأنه لم يظهر منهم أحد فى دارها طغى الخوف، وجلست فى الدار تقرأ الأوراد وتوسط الأولياء، وترتعد، فى كل ما مر بها كانت تضع لكل شيء احتمالاته، وتوطن النفس على التعامل مع أى احتمال، أما هذه المرة فإن أى احتمال غير أن يحظى ابنها بالوظيفة لا يمكن تحمله.

فى هذا الصباح تناثرت أقاويل عن أن قرار تعيين دفعة ابنها فى النيابة صدر خلوا من اسمه، جاءها الخبر بعد أن شاخت فى يومين بأكثر مما فعلت فى سنواتها الأخيرة، ورأت سليمان وهو قادم فى اتجاه الدار مطرق الرأس وفى يده الجريدة مطوية، قلبها المضطرب يبحث عن خيط أمل، لكن سليمان الذى تفادى النظر فى وجهها رمى الجريدة على المنضدة وقال:

- النصيب يا أم عبد العاطى، وابننا ليس له نصيب

شعرت بانطفاء عينيها، كأن الأشياء كلها اختفت، وكأنهم يقتلعون قلبها من صدرها، وبينما سليمان يواصل حديث المواساة سقطت من فوق المقعد الذى تجلس إليه.

وهى طريحة الفراش لم تعرف من جاءوا ليعودها، جلسوا صامتين ورحلوا صامتين، كانت قد أصيبت بجلطة منذرة، مرت بها كما تمر الغمامة، كل ما تعرفه أنها كلما فتحت عينيها ترى أباها إلى جوارها، لم يغب عن عينيها مرة، لم يكن يعرف كيف يواسيها، فقط يجلس عند قدميها ويعلق عينيه فيها، إذا بكت يبكى، وإذا سرحت يسرح، وإذا أخذتها سنة من النوم يسقط رأسه فوق صدره ويتعالى شخيره.

لا المصنع قام وشاركت فيه، ولا ابنها حصل على الوظيفة المرموقة، ونظرت إلى الدار التى لا تزال تعبق برائحة البخور وقالت تخاطب أباها:

- لا تقل لى النصيب كما يقول سليمان، النصيب شيء آخر غير هذا يا أبى

خشى أن تسقط من جديد فجاهد ليقترب منها ويداه ترتعشان:

- بل هو الظلم، هو الظلم يا ابنتى

فى داخله كان مدركا أن الانتقام قد لا يأتى فى صورة بعينها، واستثناء حفيده من التعيين فى النيابة ربما يكون واحدا من تجلياته، كم يشعر بالندم وهو يقرها على ما قالت، لم يكن أمام عينيه إلا ذلك الوجه الذى لا يرحم، عمه بملامحه الميتة، ما الذى سيفعله أيضا؟ وما ذنب ابنته وحفيده؟ لكن ابنته رفعت رأسها، ومن بين آلامها قالت:

- سمعت الأستاذ عبد المطلب ذات مرة يقول إن الضربة التى لا تميت تزيد الإنسان قوة، لا تظلم نفسك بذنب أنت لم ترتكبه، ولا

أكون بنت عبد العاطى ملش وغاية المنى إبليس إن لم أحصل على حق ولدى وزيادة

* * *

في صباح أحد الأيام أرسل رمضان في استدعاء أبيه، كان قد عاد من السعودية بعد أن أكمل داره الجديدة، وأقام من حولها سورا عاليا حتى لا يطلع أحد على أسرار حريمه، ولما جاء أبوه طلب منه أن يبيعه قطعة الأرض التي يملكها، قال إنه سيقيم فوقها مصنعا للأعلاف وشركة للاستيراد والتصدير، تهلل وجه العم عبد العاطي، فالحلم الذي أكل عمره ولم يتحقق يعود، وتخيل أنّ رمضان سيقبل بشراكة أخوته، لكن رمضان قال إن المشروع سيكون إسلاميا، ولما رأى الدهشة في وجه أبيه ناور، قال إن الشراكة بين الأخوة لا تجلب إلا الفرقة، وطمأنه العم عبد العاطي، فهو من سيشاركه، وصمت رمضان قليلا ثم قال إنه يقدم عرضه كما هو، يبيعه الأرض وهو حر في إقامة ما يشاء عليها دون شراكة مع أحد، كان قد نجح في اقتلاع قلبه من بين أضلعه وألقاه بعيدا، أفيعود بعد كل هذا ويشاركهم؟

عاد العم عبد العاطي إلى دار فردوس غاضبا، فمنذ شب رمضان لم يستطع أن يلزمه بشيء، وها هو يضعه أمام اختيار لا يمكن قبوله، حاولت فردوس أن تعرف سر استدعاء رمضان له فنهرها، وتمتمت بعبارات غامضة ثم تركت له المكان.

يونس ومرعي ويحيى كانوا قد اشتروا سيارة نقل كبيرة بمقطورة، يعملون عليها بالتناوب ويدفعون أقساطها بانتظام، يخرجون مع الفجر ولا يعودون إلا في جوف الليل، وقال العم عبد العاطي إنه إذا حدثهم في طلب أخيهم سينقلبون عليه وتعود الحرب من جديد، ورأى أن يتحدث إلى عبد المغني، تلكأ في الرد على رمضان حتى جاء عبد المغني في أجازة من السعودية، لكن عبد المغني لم يبد اهتماما، فهو ليس أحد أبناء حلم أبيه الكبير، أحلامه

شكلها بنفسه، وليس من بينها أن يكون شريكا لأخوته فى شىء، وللمرة الألف لم يكن أمامه إلا برسكال.

كانت قد قامت من مرضها وعادت لتمارس تجارتها، لم تعد تذهب إلى زبائنها الكبار إلا يوما واحدا فى الأسبوع، زوجت بناتها كلهن ولم يعد فى الدار إلا هى وسليمان وعبد المعطى الصغير، لما طال صمتها سألها:

- أصحيح يا بنت يا برسكال ما قلته يوما إننى واحد من أولياء الله؟

ابتسمت:

- بل أكثر من هذا يا أبى، روحك تسكننى

لكنه ألح عليها، ولما أصر قالت:

- باستثناء حقى الذى لم أحصل منه على مليم حتى الآن . . .

لم يدعها تكمل:

- يا بنت الكلب أنا لم أبدد حقك، إنه هناك فى الأرض، حقى وحقك معا، وعندما أبيعها بالثمن الذى يروق لى سأفتح حسابا فى البنك باسمك، ولن يعرف أحد به إلا أنا وأنت، حتى سليمان لا يجب أن يعرف

وقاطعته:

- ساعتها يتهمنى أولادك بأننى سرقتك؟ أليس هذا ما سيقولون؟

جاوبها مستهينا:

- طز فيهم كلهم، المهم هو أنك ستظلين معى حتى النهاية

تمعنت فى قوله وهى مطرقة فنبهها:

- لم تجيبينى

رفعت عينيها فى عينيه وقالت:

- طالما قلت هذا سأقول لك ما نفسى

اعتدل فى مقعده ليسمع:

- أمى هى أول من نبهتنى، ومن ساعتها وأنا أنظر إليك لا كما ينظر الناس، حتى زوجاتك وأبناؤك، طوال الوقت كنت أفكر، قد لا تكون مصليا، وقد تعجز عن الصوم طوال الشهر، لكنك يتيم لم ير أباه، ومن علمك هو جبريل، أتذكر؟ وخرجت من بلدك فى قلب الليل فارا وجئت إلى هنا ولم يكن معك إلا أنا، طفلة بائسة لا حول لها ولا قوة، وبضعفنا معا أنا وأنت بنينا فى طنبارة عزوة تسد عين الشمس

قاطعها ضاحكا:

- ناقص تقولين إنك صديقة

أجابته جادة:

- أتقول فيها؟ أنا بالفعل صديقتك، أم عندك شك فى هذا؟

هز رأسه موافقا لتكمل:

- الرجل الذى لم يسرق مال أحد، الذى أودع الله فى قلبه حب النسوان ليتزوجهن ويتحصن فلا يطلع على امرأة ليست حلاله، الذى ظل يتحمل قلقلة الطريق حتى صار شيخا، لم يركن إلى الراحة ويعيش من كد أبنائه ومال زوجاته كما يفعل غيره، بماذا تسميه ؟

أجابها متأسيا:

- واحد من ملايين الرجال الذين خلقهم الله

وفى داخله قال: "آه لو تعرفى حقيقة أبيك يا برسكال، أبوك قاتل، وضحيته يراقب أحلامه، وما أنت فيه ليس إلا حصاد جريمتى"، رفعت سبابتها فى وجهه وقالت:

- لا يا أبى، أنت رجل جميل، سليمان أيضا جميل، لكنك من بين الرجال الأجمل، فيك الكثير من العيوب لكنها لم تؤذ أحدا إلا أنت، ثم وأنت تمضى فى طريقك لم تنس أحدا، لم تتغمس فى ملذاتك وتنسانا، حلمت لنا جميعا وحلمنا معك، وإذا كانوا يرفضون الشراكة فليس ذنبك

اغرورقت عيناها بدموع الامتنان وقالت:

- لكم تمنيت أن يكون لى زوج مثلك، حتى لو تزوج على كل يوم امرأة

نزلت دموعه وقال:

- لكنهم ظلموا ابنك ظلم الحسين يا ابنتى

ابتسمت فى حزن:

- ومن قبله ظلموك، وظلمونى، الظلم لا ينتهى من العالم يا أبى

انتفض وهو يقول:

- قلبناها محزنة وأنسيتنى ما جئت أحدثك بشأنه يا بنت عبد العاطى

عاد ليجلس وهو يحك ذقنه ويمسد شاربه الأشيب، لكنه خشى أن يحدثها فى طلب رمضان حتى لا يفسد أمانها وأرجاءه، فهو فى حاجة إلى التفكير فيه من جديد، مال برأسه نحوها وقال:

- أيصح أن يكون أبوك بلا قبر يا بنت عمرى؟

أقام ظهره ثم أردف:

- عندما حلمت بالموت قبل زواجى من جنات سألت نفسى، أين سيدفنونك يا عبد العاطى؟ وفكرت فى بناء مقبرة، لكننى خفت، كنت أتشبث بالحياة حتى آخر نفس، واليوم أسألك أنت وليس أحدا منهم، أين ستدفنينى؟

اغرورقت عيناه من جديد:

- أنا أحب فردوس، وأحببت نعيمة، لكنى لا أحب أن أدفن فى مقابرآل سليمان ولا آل الهجرسى، فعندما دفنا عزيزة إلى جوار نعيمة خجلت من نفسى، أما كان أجدر أن يكون لى مقابر أدفنها فيها؟ لهذا أنا أقول لك، لا أريد أن أدفن إلا فى قبرى يا بنت عبد العاطى

وضحك ساخرا:

- لا أريده على قمة الربوة إلى جوار ستنا المحارزة كما قلتِ يوما، أريد قبرا عاديا تكتبون على رخامته بخط محفور، مقابر آل عبد العاطى

جاوبت سخريته بمثلها:

- كأنها مقابر آل البيت

"حتى فى هذه أنت ولى يا شيخ عبد العاطى"، تساءلت: "ما الذى يجعلك تفكر فى الموت هذه الأيام؟ أهو الحزن؟ هيأتك ليست هيأة الحزين، وسخريتك ليست سخريته، أنا أقول لك، أنت واقع فى مأزق كبير،لم تعد تحلم بالمرأة التى لم يخلق مثلها، حتى حلم المصنع القديم لم تعد تأتى على ذكره، وعندما حدثتك عنه لم تلمع عيناك كما كنت تفعل، لكننى وبرغم حزنى كله لازلت أحلم، منذ حلمت معك بالخروج من الريدانية وأنا مسكونة بالأحلام، وها أنا أدرك أننى لم أكن أحلم بالمصنع، ولا بتعيين ابنى فى النيابة، كنت أحلم بالاعتبار، نعم هو الاعتبار، ليس كبنات العمدة كما كنت تقول، ولكن كواحدة من سيدات طنبارة، كالحاجة تيسير زوجة الحاج صالح سليمان، أو كالحاجة صابرين زوجة الحاج عبد الفتاح الدرداح، وإلى جوارى زوجى، بملابسه الفخيمة وعمامته البيضاء كالثلج، ومن حولى أبنائى، أرزاقهم موفورة ودورهم مستورة، الحاجة برسكال زوجة الحاج سليمان القصاص، ربما ألحق به إذا بعت الأرض وأعطيتنى نصيبى، ولكنى إذا فعلت سأكون قد حرمتك من آخر حلم لك، أن نكون معا حتى النهاية، فقط لو أعرف ما الذى تخفيه عنى"، ثم وقفت تودعه وهو عائد إلى دار فردوس.

وجد الدار معكورة وفردوس تضع رأسها بين يديها، لم يعهدها أبدا على هذا الحال، أدرك أن أمرا كبيرا لا قبل لها به حدث، وعندما دخل إلى الحجرة ليغير ملابسه وقفت بجسدها المهيب عند الباب وقالت:

- يونس كان هنا

انتظر حتى تكمل حديثها فقالت:

- ملأ الدنيا زعيقا وخرج هو وأخواه ليضعوا أيديهم على الأرض، قال إنك تبيعها للشيخ رمضان

نظر إليها وشبح ابتسامة تطوف بوجهه:

- ما رمضان وما يونس ومرعى ويحيى، كلهم أبنائى

تعجبت:

- وبرسكال؟

قال وهو يسوى الفراش ليستلقى عليه:

- هى أيضا ابنتى، لكنها تخصنى وحدى

استلقى على السرير وقال بصوت ألقى فيه كل عجزه:

- سأنام ساعة أو ساعتين ثم أيقظينى لأتناول الطعام

شعر بارتياح كبير لما قال، أى شيطان ذلك الذى جعله يعتقد أن سعادة ابنته ستكون فى مشاركة أخوتها؟ إنها أنقى من أن تكون واحدة منهم، وقال فى نفسه: "أنا وهى لم نأخذ من أمى لون عينيها فقط، أخذنا منها الروح التى تشعر بالجميع، وأبنائى لا يملكون هذا، ربما لو لم تكن ابنة غاية المنى لأعجزتها الهزائم، على الأقل أمدها آل إبليس بشىء من التمرد جعلها أكثر قوة، لست أنا الولى يا بنت عبد العاطى بل أنت، يا لجمال هذه البنت، إنها فى أحلك الظروف تعرف كيف تحلم".

رآه يونس وهو قادم من بعيد فنبه أخويه، كانوا قد احتلوا الأرض وانتقل مرعى بزوجته وأبنائه ليقيم فى دار جنات، وكانت المنقولات لا تزال أمام الدار فمر إلى جوارها حتى وصل إليهم، طلب مقعدا فأسرعت زوجة مرعى لتحضره، ابتسم فى نفسه وهو يتذكر ما قالته برسكال لنسائه وأولاده عندما مرض بعشق جنات، القابض على اللجام الضارب بالكرباج، نقلتها له فردوس فكتم فرحته بما قالت،

"وأنت أيضا يا ابنتى القابضة على اللجام والضاربة بالكرباج"، ونادى على يونس فجلسوا ثلاثتهم عند قدميه، سألهم:

- ماذا لديكم لتشتروا نصف هذه الأرض يا أبناء عزيزة؟

تركهم ينظرون لبعضهم البعض في دهشة ثم قال:

- هى الآن تساوى مليونين، لكن أخاكم طلبها بمليون، فهل لديكم نصف مليون لتأخذوا نصفها؟

اندفع يحيى:

- ندفعه على أقساط

لامه يونس على اندفاعه فقال العم عبد العاطى:

- دعوكم من حكاية الأقساط هذه، إن كان لديكم ثمن النصف أخبرونى

وقف متثاقلا فوقفوا جميعهم، وعندما هم بالانصراف قال يونس:

- إعطنا شهرا ويكون المبلغ جاهزا

استدار ليواجهه واضعا سبابته المرتعشة فوق شاربه:

- لا تنقص مليما

ووقف عند بوابة دار رمضان الشاهقة وضغط على زر الجرس، وسمع صوتا أنثويا قادما من الديكتافون يقول:

- السلام عليكم

ولما رد السلام سمع صوت طقطقة الباب وهو يفتح، ورأى رمضان خارجا من باب الدار والقلق يلون وجهه، جلس على مقعد إلى جوار شجرة بونسيانا وارفة، وما أن جلس حتى بادره رمضان:

- أنظر، أنا لا شأن لى بأبنائك، أنا أدفع الثمن وأنت تخرجهم من الأرض كما دخلوها

نظر إليه العم عبد العاطى مبتسما:

- أأخرجهم من أرضهم يا ابن نعيمة؟ لهم فيها مثل ما لك، أنت النصف وهم النصف، إن قبلت أمامك شهر لتجهز فلوسك

قال رمضان فى أسف:
- كنت أريدها كلها
ظل على ابتسامه:
- النصف حلو، هم ثلاثة رجال وأنت واحد
اندفع رمضان:
- فلوسى جاهزة، نكتب العقد وأسلمها لك وتسلمنى نصيبى
قام من على المقعد واستند إلى عصاه:
- لكن فلوس أخوتك ليست جاهزة، أمامهم شهر فكن جاهزا
لم يعبأ حتى بدخول الدار التى بناها ابنه ومعه فيه ثلاث زوجات، لا يعرف شكل واحدة منهن، ورأى أطفالا يرتدون جلابيب بيضاء قصيرة وبنات يتعلمن المشى وعلى رؤوسهن أحجبة بيضاء فهز رأسه ومضى.
فى الموعد المحدد باعهم الأرض وتسلم الثمن، قسمها بينهم بالطول حتى يطلوا جميعا على الأسفلت، وقبل أن يغادر قال:
- ها أنا بعتكم الأرض بنصف ثمنها، النصف الذى عرقت فيه أنا وابنتى، أما النصف الذى هو من مال الساحرة فقد استحللتموه لأنفسكم، بؤتم به فهنيئا لكم
باتت النقود فى دار فردوس ليلتين، وقلقت المرأة من وجودها فى الدار فاستنهضته ليأخذها إلى البنك، ولما سألته إن كانت برسكال قد أخذت نصيبها نهرها:
- ألم أقل لك يا امرأة إن برسكال تخصنى وحدى؟
فى صباح اليوم التالى حملته سيارة أجرة ومعه جوال النقود ودفتر حسابه فى البنك، وبدلا من ان توصله السيارة إلى السنبلاوين حملته إلى المنصورة، لم يشأ أن يفتح حسابا فى البنك الذى فيه حسابه فى السنبلاوين، حتى لا يعرف به أحد، وهناك وجد برسكال

فى انتظاره، أودعا المبلغ فى حساب باسمها ثم حررت له توكيلا داخليا بصرف أى شىء منه، وقبل أن يفترقا قال:

- إسمعى يا ابنتى، الآن خرجت من قبضات أخوتك، من اليوم لن تكونى محط سخطهم، سيرون أنفسهم بعد هذا على حقيقتها، ولن يخرج صفر اليدين من كل هذا إلا الخضرة والجازية والناعسة، لهن فى ذمتك مائتين وخمسين ألفا، تسلميه لهن بعد رحيلى

ثم عاد من طريق وعادت من طريق.

* * *

صار العم عبد العاطى معلما من معالم طنبارة، تجاوز عمره الثمانين ورحل معظم أقرانه، ظل يصارع الأيام ويجتر الذكريات وحده، لكن حياته انشطرت، نصف يعيشه بين الناس ونصف يقابله فى الليل، عندما يهجع إلى سريره يخشى النوم، فلم يعد وجه عمه يفارقه، من قبل كان مشغولا بأمور كثيرة، عزيزة وأبنائها، هزيمته من آل إبليس، مغامرته هو وابنته فى قلب الليل، صراعه مع الجمالين، رغبته فى فردوس ولياليها الجميلة، حبه لنعيمة، خوفه على رمضان، وأخيرا عشقه لجنات، ثم طلاق جنات ورحيل نعيمة وعزيزة واستقلال رمضان، مع كل هذا كان الوجه الحزين مجرد جزء من المشهد، أما الآن فلا شىء يشغله سوى خوفه، وهذا الوجه الذى نزع عن ملامحه قناع الموت وجاء ليشاركه حياته.

لا يزال قادرا على الخروج متوكئا على عصاه واضعا فوق عينيه نظارته الطبية، يمشى فى الطرقات القديمة ويرى الناس الذين عرفهم والدور التى رحلت، تأخذه قدماه إلى دار نعيمة فيقف ويتأمل معالمها المحفورة فى ذاكرته، وعندما يدعوه بعضهم للدخول يبتسم فى غموض ويمضى، وكان من اشتروا الدار قد أقاموا فى موضعها عمارة تطل بطوابقها الخمسة على حديقة صغيرة محاطة بسور عال فوقه أسلاك شائكة، لكنه لا يرى كل هذا، فقط يرى نعيمة جالسة فوق مصطبة الدار تناغى طفلها وتقبل قدميه الصغيرتين، ثم يمر على مقهى النبوى فيخرج سكان العمارة التى أقيمت فى المكان ليتأملوه وهو يبتسم من لغط الرواد وحديث النبوى إليهم فى السياسة، وقرب العصر يأخذ طريقه إلى مصنع الأعلاف، يجلس على أحد جانبى البوابة الكبيرة ويرنو من خلف نظارته صوب الأيام البعيدة.

لم يعد فى الدار إلا الحاجة فردوس، وعندما أرسل إليهما ابنه الحاج عبد المغنى دعوة لزيارة السعودية ليؤديا فريضة الحج للمرة

الثانية عادا محملين بالهدايا، وكان عبد المغنى قد خصص لهما شقة صغيرة فى الطابق الأرضى من العمارة التى أقامها فى موضع الدار القديمة، وجعل لها عقبا تربى أمه فيه طيورها، منها يجنبهما مشقة صعود السلم، ومنها يحرسان محل تجارة الأسمدة والمبيدات والبذور الذى أقامه أسفل العمارة، سليمان وعبد الراضى باعاه نصيبهما فى الدار وكذلك فعلت أمه، وما توفر لديها من أموال هى وزوجها وضعاه فى حسابى توفير فى البنك، كل بما معه.

الحاجة فردوس لا تزال كثيرة اللحم، يعطى وجهها عمرا أقل من عمرها الذى يربو على الخامسة والستين، وبعد أن عادا من الحجازواظبت على الصلاة، تغمض عينيها وتتخيل أنها تصلى فى الحرم فتغرورق بالدموع، وتشفق على زوجها لأنه لا يصلى، فبعد العودة من الحجاز عاد إلى سيرته الأولى، يصلى ركعتى الصبح قضاء وقد لا يصلى، واقتربت منه ذات ليلة وطلبت أن يواظب على الصلاة حتى لا يفسد حِجَّتَه، ودب أول خلاف بينهما بعد أداء الفريضة، قال والغضب يأكله:

- ما شأنك أنت يا بوز الإخص؟ أترينه يحتاج إلى صلاتى ليعرف ما فى قلبى

وتهكمت منه:

- مال الصلاة وما تقول يا رجل؟ إنها فريضة، غرمنا فى الحج الشىء الفلانى، أتريد أن تفسده بعنادك؟

أجابها مندهشا:

- غرمت ماذا يا ضلالية؟، الحاج عبد المغنى إبنى تكفل بكل بشىء

وتعجبت:

- أليس ابنى أنا الأخرى؟

لم يجبها، وحتى تبرئ ذمتها قالت:

- القبر إما جنة وإما نار، وأنا لن أدخل القبر معك
انطلق يسبها:
- نار لما تشوى جسدك وجسد أهلك يا بنت الكلب يا جاموسة
فكر فى أن يقذف بلغته فى وجهها لكنه أحجم فى اللحظة الأخيرة، وكعادتها رأت أن تعيد عليه القول فهددته:
- إن لم تواظب على الصلاة سأخبر الشيخ رمضان
انفجر فيها:
- . . امك و. . أم الشيخ رمضان
أقسم إن عادت لما تقول ليطلقنها ويرميها إلى كلاب السكك، وضحكت:
- ترمى من يا رجل يا خرفان؟ ترمينى من دارى ودار ابنى؟
هاج هياجا عظيما، لكنها صمتت حتى لا يتفاقم الأمر ويخرج إلى عمال المحل والجيران.
فى عصر اليوم التالى توضأ قبل الخروج فأدركت فردوس أن حديثها معه أتى ثماره، وفى الطريق إلى المسجد طفق يتحدث بصوت مسموع: "وها أنا يا سيدى ذاهب إلى المسجد لأصلى، أتصدقنى الآن؟"
كانت صلاة العصر قد أوشكت، ورآه المصلون فابتسموا فى الخفاء، فالرجل لم يدخل المسجد من قبل إلا فى بعض صلوات الجمعة، جلس فى الصف الأول وجاء جلوسه خلف الإمام، وأقيمت الصلاة فسمعه المصلون يهدر بسباب لم يتبينوه، وتجاهلوا ما يقول وانخرطوا فى الصلاة، وعندما حان وقت الركوع ركع معهم، وسرعان ما آلمه ظهره وآلمته ركبتاه فانتصب واقفا قبل الإمام، وكتم المصلون ضحكاتهم، ولما سجد الإمام وكان رجلا بدينا قامت مؤخرته العظيمة فى مواجهته فنظر إليها العم عبد العاطى فى

ارتياب، وقبل أن يكمل السجدة انتفض جالسا وقال يسب الإمام والمصلين:

- أف، لعنة الله عليك وعلى من يصلى خلفك يا ابن فضيلة ام جياص

انفجر المصلون بالضحك وهم سجود فقال وهو مرتبك:

- إبن الجزمة فسا فى وجهى فسوة أزهقت روحى

فقد المصلون وقارهم، ووقعوا على أجنابهم، توجه وهو يهدر بالسباب إلى الجزامة القائمة قرب الباب وأخذ بلغته وانصرف، وبعد انصرافه انتشروا فى أرجاء المسجد وصلوا فرادى وصدورهم لا تزال ترتج بالضحك.

لم يتوجه إلى المصنع ليقضى فترة الأصيل كالمعتاد، ولما قابلته فردوس متهللة تفل فى وجهها ولعنها، ثم لعن الإمام والمصلين الذين يظنون أنهم قادرون على خداع ربهم بينما هم ينفثون فى بيته الخراء، وكان مرتادو المسجد قد خرجوا بعد الصلاة وتوجهوا وبرفقتهم الإمام الغاضب إلى المصنع ليشكوه للشيخ رمضان، وقبل أن يؤذن للمغرب جاء رمضان ولحيته تقطر غضبا، وفى حدة طلب من أبيه أن يكتفى بالصلاة فى الدار ولا يذهب إلى المسجد، وحتى لا تشمت فيه فردوس أجاب ابنه بلهجة منتقمة:

- بل أنا الذى أطلب منك ألا تصلى يا ابن نعيمة، لا فى المسجد ولا فى الدار، فبماذا تنفعك صلاتك؟ أنت لص وبخيل وقاطع أرحام، وصلاتك لن تصعد لأبعد من أنفك

ثم ترحم على ذكرى جاره القديم الأستاذ عبد المطلب وقال:

- ليتنى سمعت كلامه

ولم يعد يذهب إلى المصنع بعد العصر.

صار يقصد إلى دار برسكال ويجلس أمامها صامتا، ويرى فى وجهها الطفلة التى كانت، ويشم عبير حبق البحر الذى لا تزال

تضعه فى الأركان، وفى بعض الأيام يذهب إلى مقهى عبد الستار فى موضع الشونة القديمة، ويظل جالسا هناك إلى ما قبل المغرب، ويجتمع الشباب من حوله ليحكى لهم نوادره، ونوادر القرية التى لم يسمعوا بها أبدا، لا يملون حديثه وسبابه، ولا مناداتهم بأسماء أمهاتهم، ويسأله أحدهم عن جنات فيشعل سيجارة ويأخذ منها نفسا عميقا ويضحك، ويشخشخ صدره، ثم يسعل إلى أن يطرد ما يعترض صوته ويحكى:

- المرأة بنت الحرام كانت تستيقظ على جلبة الفلاحين وهم يصطحبون أبقارهم ليلقحها ثور السعدى، فدار السعدى كما تعلمون كانت أمام الدار التى أقمتها لها، تكون قد أرسلت أبناءها إلى المدرسة فتجلس إلى النافذة وتتفرج على الثور وهو يصيد الأبقار واحدة بعد أخرى، بينها وبينهم عرض الشارع فقط، وبين كل طلعة وطلعة كان السعدى يقدم للثور ماء محلى بالسكر حتى يستعيد نشاطه، وذات يوم كنت عائدا من دار الحاجة برسكال ابنتى فوجدتها تقدم لى كوز ماء، لما تذوقته عرفت أنه ماء بسكر، وضحكت ساخرا، رفعت الكوب أمام عينى وقلت: أتظنين أن العبرة هى فى الماء "أبو" سكر يا بنت رية؟، العبرة هى فى تغيير البقرة، ودلقت الكوز فى وجهها وأسرعت بالخروج

أهل طنبارة يجمعون على أن البحراوية – هذا ما كانوا يلقبون به جنات - كانت آخر طلقة فى جراب العم عبد العاطى، والعامان اللذان قضاهما معها كانا الخاتمة، كان قد صار مرجعا لمن يقصده، فحك الجلد بكولحة يحدث إصابة تشبه التى يحدثها الضرب بالعصا، ومص الجلد يصنع بقعة دموية كأنها كدمة كبيرة، وذر الشطة فى العيون يعنى الاعتداء عليها، وحبس الدم فى مواضع بعينها يحدث ورما يثير الاشتباه فى وجود كسر، أما قطع السلامية الطرفية من أحد الأصابع فتكون كفيلة بزج الخصم إلى محكمة الجنايات.

ذات مرة أراد أن يتخلص من إلحاحهم فقال:
- كل نسائى كن يرمحن ولا تعلم أقدامهن على الأرض، ويلقين ما يكسبنه فى حجرى، إلا هى، سرقتنى بنت الكلب، وكنت أراها وأغمض عينى، وأدارى عن أولادى

لكن عينيه التمعتا بشىء من الحياة وهو يهز رأسه متحسرا:
- بنت الكلب كانت امرأة

ثم يتركهم وينخرط فى الضحك فيسمع الجميع شخشخة صدره، ويخرج من جيب صديريته صندوق الدخان ويطلب من أحدهم أن يلف له سيجارة، فيداه اللتان أصابتهما الرعشة لم تعودا تقدران.

عندما يهبط الليل تأخذه قدماه إلى الدار، رجل تتقدم والأخرى تتقهقر، فالليل بكل قسوته لا يدع له فرصة لالتقاط الأنفاس، وعمه قابع هناك فى انتظار عودته، ويراه الناس متوكئا على عصاه فيلقون عليه السلام، لكن ملامح الوجه الحزين تكون قد بدأت فى التحقق، حتى من قبل أن يضع رأسه فوق الوسادة، فلا شىء أكثر قسوة من ساعات الليل، إن كان نائما أو أخذ بخناقه الأرق، لم يعد هناك شىء يزاحمه، فقط هو والوجه الحزين، هو وجريمته.

برسكال ظلت محافظة على السر كعهدها معه، ونشب شجار بين رمضان ويونس عندما قال رمضان فى محفل من أتباعه إن يونس وأخويه يتكسبون من الربا، وكانوا قد أقاموا فوق نصيبهم فى الأرض معرضا لبيع السيارات وشركة صغيرة للنقل، وأراد العم عبد العاطى أن يستعين ببرسكال لتمنع اندلاع الحرب بين أخوتها لكنه أحجم فى اللحظة الأخيرة، وذهب ليواجه رمضان بنفسه، قال له أمام الجميع:
- أنت تغش العلف وتبيعه للناس نصفه جير وتراب، فهل تكلم أحد منهم فى حقك بكلمة، عيب على ذقنك

وهدده:

- إذا لم تكف عن محاربة أخوتك سأفضحك فى البلد كلها
عندما عاد إلى الدار جلس يحدق فى أيامه، وعلى غير توقع سمعته الحاجة فردوس يقول محدثا نفسه:
- كنا أفقر من الدبور لكننا عزوة، أبنائى وأبناء زوجاتى أخوة، نجمع القرش على القرش ونأكل العيش بحصوتى ملح، وكنا سعداء، والآن صار للحاج يونس والحاج مرعى والحاج يحيى تجارة واسعة، وصار للحاج عبد المغنى عمارة وتجارة، وللشيخ قرد مصنعا أكبر من أن يقدر أحد على منافسته، لكنهم متخاصمون
واعتراه الحزن وهو يقول:
- كأنهم ليسوا من صلبى
واغرورقت عيناه بالدموع:
- أشفقت على الحاجة برسكال فلم أدخلها فى خلافاتهم
ردت عليه الحاجة فردوس بصوت يحمل رائحة الزمن القديم:
- دع الملك للمالك يا رجل
تجاهل ما تقول وواصل حديثه:
- قلت يا واد يا عبد العاطى دعها لشئونها، الولد إبنها يفتح مكتبه الجديد للمحاماة فى عمارة العمدة إبراهيم "أبو" جبر فى السنبلاوين، ووقتها هى أولى به
وسمع فردوس تقول:
- إعطها مالها أولا ثم اشفق عليها كما تريد
استمر فى تجاهلها، وبعد طول صمت عن له أن يسألها:
- ألا تزال اللافتة موجودة حتى الآن يا أم سليمان؟
ردت مندهشة:
- أية لافتة يا رجل؟
فرد ذراعيه كأنه يأخذ الدنيا بينهما:
- طنبارة ترحب بكم

أشعل سيجارة:

- نقلت على عربتى طوب قاعدتها ورملها وزلطها وشكائر الأسمنت التى استخدموها فى بنائها، أيامها كان الرئيس راجعا لا أتذكر من أين . . .

سألها:

- من كان الرئيس وقتها يا فردوس؟

أجابته نافذة الصبر:

- هل مخى دفتر يا رجل؟

نهرته حتى لا يسترسل فى الحديث:

- ريح دماغك قليلا وقم لتمَشِّى رجليك فى البلد ثم تعال

بعد برهة أردفت:

- القعدة ستُعَجِّزَك

ضحك وصدره يشخشخ:

- يخرب أم شيطانك يا فردوس، وهل لا زلت لم أُعَجِّز يا امرأة؟

أخفى عن الجميع أحلام كل ليلة، لهذا لم تفهم فردوس سر عبوسه مع مجىء الليل، ومن أين لها أن تعرف أن الوجه الذى ينبثق فى ظلام أحلامه ويبحلق فيه لم يعد يكتفى بالظهور، صار يرى نفسه نائما ويد تهزه لتوقظه، وعندما ينهض يراه واقفا فى الركن أو مشعلقا فى الهواء والغضب يملأ ملامحه، ويرى يديه تحترقان فيدسهما فى الماء ولا تنطفئان، وقد يرى نفسه والنار تلتهمه حتى خصره، أو ديدان كبيرة تجرى فى عروقه وتخرق جلده برؤوسها، خروق كثيرة يرى من خلالها دمه وهو ينسرب، لكنه ظل يتظاهر بالمرح، ولا يكف عن إطلاق النكات، فبرغم كل شىء ها هو أمضى معظم عمره بعيدا عن رقابة عينى ضحيته الغاضبتين وملامحه القاسية، وما تبقى له من أيام سيقضيها على علاتها، وإذا

كان عمه يظهر فى أحلامه كل ليلة فعليه أن يعرف أنه لم يكن يريد سوى إبعاده عنه، ولما لم يستطع هداه خوفه إلى ما فعل.

عادت برسكال من عنده وهى واجمة، كانت متأثرة من حاله، فقد حكى لها عن أنه وفردوس اشتبكا فى عراك كبير، ولما سألها سليمان عما بها قالت:

- أبى

أدهشه كلامها فضرب بيده على صدره مازحا:

- ماذا؟ أيريد أن يتزوج من جديد؟

تصنعت الضحك وهى تقول:

- يا شيخ! كل ما هنالك أننى وأنا أزورهم اليوم وجدته ليس على ما يرام، ورأيت أن آخذ رأيك فيما أفكر فيه

- خير؟

قالت ووجهها ملؤه الأسف:

- أريد أن أحضرهما ليعيشا معنا، أجنب الحاجة مؤونة خدمته وأنظفه بنفسى وأطعمه بيدى، وأسهر على راحته، وإذا خطرف بشىء لا يكون عقابه الزعيق وعقابها السباب

نظرت إليه ووجهها يعتصره الألم:

- أنا ابنته الكبرى يا سليمان، أنا أولى به

سألها فى فتور:

- هل شكى من أمى؟

أسرعت تجيبه:

- هل أنتظر إلى أن يشكو؟ الذى لا يرى من الغربال أعمى يا حاج سليمان

وحتى يضع حدا للحديث قال:

- افعلى ما ترينه مناسبا

في اليوم التالي ذهبت لرؤيته كالمعتاد فاشتمت رائحة صنان في ملابسه، أخذته إلى الحمام وحممته، وبدلت ملابسه، وبحثت عن ملابسه الأخرى وملابس فردوس ووضعتها في صرة لتأخذها إلى دارها لتغسلها، ولأن المرأة لم تعد قادرة على صنع الكثير تركتها تأخذ ملابس أبيها، لكنها لم تسمح لها بأخذ ملابسها، وهجمت على الصرة وفتحتها، واستخلصت منها كل ما يخصها، حتى أنها أعادت تقليب الملابس مرة بعد مرة لتتأكد من أن لا شيء بقى هناك.

في هدأة الليل وضعت ملابس أبيها في الغسالة الكهربائية وجلست تفكر، وفي الصباح التالي ذهبت لتتفقد الأحوال فوجدته جالسا في الصالة، كان غاضبا وحزينا، وعلى ملامحه بوادر بكاء، وبدا أنه تشاجر مع فردوس، واحتضنته فاستراح رأسه فوق صدرها، وسمع قلبها يدق فقال يطمئنها:

- لا تخافي يا ابنتي، أبوك بخير، لكن هذه المرأة لا تكف عن مناكفتي عمال على بطال

رجته برسكال أن يهدئ نفسه، وإذ أراد أن يذهب معها إلى دارها ويمكث معها يوما أو يومين إلى أن تهدأ الأمور فهو عين العقل، وصور له غضبه أنه إذا قبل عرضها يكون قد وجه إلى فردوس ضربة تؤلمها، وتركته وتوجهت إلى فردوس في عقر الدار، كانت تفترش جوالا قديما وحولها كتاكيت صغيرة، ولما رأتها الحماة تفلت في عبها:

- الناس يقولون يا أهل الله يا أهل الدار وأنت تتسللين كالعرسة

ردت برسكال:

- كل ما يخرج من فمك سكر يا حماتي

أشاحت فردوس بوجهها تتظاهر بمتابعة الكتاكيت وأشارت بيدها إلى الصالة:

- أبوك هناك

- كنت معه، كان غاضبا
اعتدلت فردوس بعد مجاهدة لتحريك عجيزتها:
- من طلعة النهار لا حديث له إلا عن الزواج على ليؤدبنى، ولما قلت له إن كان فيك الله يخليك، ظل يضرب بكفه على ذراع المقعد ويقول: أتعايرينى يا بنت نعمان الحرامى
تهدج صوتها واغرورقت عيناها:
- أأبى حرامى؟ الحاج نعمان محمود سِليمان حرامى؟
ثم انخرطت فى البكاء:
- كله إلا أن يسب أبى
شعرت برسكال حيالها بالشفقة فقالت:
- دعينى آخذكما عندى يومين، بإذن الله ستهدا الأمور
انتفضت رافضة بكل جوارحها:
- لن أخرج من دارى إلا إلى الجبانة، أما أبوك فهو عندك، الباب يفوت جملا
بينما هى تساعد أباها فى ارتداء جلبابه وتضع على رأسه عمامته وتدس قدميه الهائلتين فى بلغته كانت فردوس تواصل من عقب الدار حديثها:
- أنا التى خاصمت أهلى وأهل المرحوم جودة وفعلت من أجله كل شىء، أنا التى لم أناده يوما إلا بسى عبده يكون جزائى أن يسبنى ويسب أبى؟ وبعد كل هذا يغضب ويترك الدار؟
عندما صارا مهيأين للخروج التفت صوب عقر الدار وقال:
- فُتّها لك مُخضَّرة يا بنت نعمان، إرمحى فيها أنت وبناتك
عنفته برسكال متعمدة أن يصل صوتها لحماتها:
- لايصح هذا يا أبى
بالكاد كانا قد وصلا إلى باب العمارة عندما سمعا فردوس تنتحب:
- يخونك العيش والملح يا سى عبده، وتخونك الأيام والليالى

حملهما التكتك إلى دارها، وهناك نظر فى صالة الدار وابتأس، وسأل نفسه عما فعل، وشعر بالحزن، فالمرأة لم تخطئ ذلك الخطأ الذى يستوجب مغادرته، وكان يمكن أن يخاصمها يوما أو بعض يوم ثم يعود للحديث معها، لا أن يترك الدار كلها ويرحل، لكن برسكال التى أطربها وجوده جلست عند قدميه وقالت:

- ما رأيك فى ديك شمورت أسلقه لك بفصي حبهان وبصلة صغيرة، وأنضجه حتى يصير فتاتا وتشربه؟

استدركت:

- لماذا ديك، ورحمة أمى لأصنعن لك زوجا من الحمام كما كانوا يصنعونه للملك فاروق، ألست أنت من أخبرتنى بذلك؟

نظرت فى عينيه الغائمتين أسفل زجاج نظارته وقالت:

- بذمتك، ألا تشتاق إلى فص أفيون؟

لما ومضت عيناه أقسمت:

- على بعد عشرة دقائق من هنا رجل يبيع أفيون سيناوى أصلى، وشرفك لأجلبن لك فصا تزن به دماغك

* * *

استيقظ من النوم فى الصباح وتمطى، لم يكن قد تمطى من زمن، وقال لبرسكال:

- على فكرة يا بنت يا برسكال، النوم فى دارك حلو، حتى الأحلام حلوة

صفقت بيديها:

- هى سنة الأفيون يا عبد العاطى، ريحت جسمك فنمت براحتك

قال وهو يتمطى من جديد:

- لم تسألينى عن الحلم

أجابته وهى تحشر قدميه الهائلتين فى شبشب منزلى:

- خير اللهم اجعله خيرا

نظر إلى داخله:

- أول مرة أرى فيها أمك منذ ماتت

استخفها الفرح فجلست عند قدميه تسأل:

- والنبى ياباً؟ إحك لى فهى تستعصى على منذ فترة ولا تزورنى

هرش رأسه:

- كل ما أتذكره أنها كانت تجلس فى شرفة دارها، ووجهها مضيء كالقمر، كانت كما رأيتها أول مرة

قبلت قدميه:

- أمى كانت تحبك

سرح ببصره إلى بعيد:

- هل الأموات يشعرون بنا يا برسكال

أجابته بحسم:

- طبعا يا شيخ عبد العاطى، ومن يشعر بنا غيرهم؟ إنهم ينتظروننا لنزوروهم فى مقابرهم، ويسعدون لزياراتنا، ويروننا ونحن لا نراهم، الشيخ قال هذا

قطب جبينه:
- إبن نعيمة كرهنى فى صنف المشايخ كلهم
ضحكت:
- فيهم ناس النور يخرج من وجوههم
بعد أن خرج من الحمام جلس فى الصالة وسأل عن سليمان، ولما أخبرته أنه خرج مبكرا إلى الغيط قال:
- أخبريه بما فعلنا أنا وأنت فى البنك، لا أحب أن يظن أننى عالة عليه
نظرت إليه فى حب:
- أول مرة أخفى عنه شيئا، بعد عودته أخبره أنت، وأخبره أنك من طلبت إخفاء الأمر
أومأ براسه موافقا، ثم صمت قليلا وقال:
- لكن النوم إلى جوار فردوس شيء آخر تماما، فبرغم أننى نمت ولم أشعر بنفسى إلا عندما استيقظت أفتقدها
وضحك متحرجا:
- لا تفهمى أباك خطأ، فأنا لم أعد أصلح للنساء، لكن النوم إلى جوارها متعة كبيرة، فعندما أأرق أو أتقلب أشعر بأنس كبير وهى إلى جوارى، ويا سلام لما تضع فخذها فوق خصرى وتروح فى النوم، ويوقظنى ألم عظامى من ثقله فأزيحه عنى وأنقلب وأضع رجلى فوقها
دعت له وهى تضحك:
- ربنا لا يحرمك منها، هى طيبة وبنت حلال
بادلها نظرة الحب:
- فقط لو لم تكن حنبلية، تهددنى برمضان، سببتها وسببته وكدت أرميها ببلغتى
كانت تدور من حوله وتعد له فطوره فضحكت كثيرا ثم سألته:

- أصحيح يا أبى ما قلت عن إمام الجامع؟
ضحك فبان فمه الخالى من الأسنان:
- إخص الله يقرفه، صد نفسى عن الجوامع كلها
كادت تسقط من فرط الضحك ثم قالت:
- لكنها محقة يا أبى، فأنت لا تصلى بانتظام
ارتفع صوته وهو يقول:
- تقولين مثلهم يا هبلة؟ ما الصلاة؟ أليست حديثا بين العبد وربه، دعاءً واستغفارا وما إلى ذلك؟ طوال اليوم أنا أتحدث إلى الله، أستعيذ به عندما أجزع، وأدعوه وأنا اقدم على شىء، وأحمده عندما يرزقنى، واستنصره عندما أكون محتاجا لنصرته، أنا أصلى طوال اليوم يا برسكال، ومع ذلك إذا تصادف واستيقظت مبكرا قد أصلى الفجر، أو أصلى الجمعة إذا لحقت بها

كان قد بحث عن عمه فى أحلام ليلته الأولى فى دارها فلم يجده، وعندما استيقظ كانت الشمس قد صعدت فى السماء، ومد يده ليتناول فطوره.

لكن فردوس لم تستسلم، من أول يوم استنجدت بعبد المغنى، وكان على وشك العودة فى أجازة فنصحها بالصبر حتى يعود، وبعد يوم من عودته وكان قد مر أكثر من شهر على ترك أبيه الدار ذهب إليه فى دار برسكال، وما أن رآه حتى شهق، فأبوه صغر فى شهر عشر سنوات على الأقل، وتأدبت برسكال فى الحديث:
- أنظر يا حاج عبد المغنى، أبوك كبر وأمسى فى حاجة إلى من يخدمه، وأمّه فردوس كبرت هى الأخرى ولم تعد قادرة على خدمة نفسها، فما بالك بخدمته، وأنت تعرف أباك، كثير الطلبات ولا يعجبه العجب، ولا أكون ابنته الكبرى إن أنا تركته مهملا، الناس لن يلوموا غيرى
هز عبد المغنى رأسه آسفا فقالت:

- عرضت عليها أن تجىء معه لكنها رفضت، إقنعها لتجىء فالدار دار ابنها، وإذا لم تحملها الأرض أحملها فوق رأسى
وتلاعبت بوادر بكاء بملامحها وهى تسأله:
- أتقبل أن يبول أبوك على نفسه فيشم صنانه الرائح والغادى؟
صمت عبد المغنى متأثرا، ورأى أن يقوم بمحاولة أخيرة:
- دعيه يعود إلى الدار وسأدبر لهما من يخدمهما
انتفضت برسكال مستنكرة:
- وتَطَّلِع امرأة غريبة على عورة أبى؟
اغرورقت عيناها بالدموع:
- لا عشت ولا كنت
رأت أن تهاجم فقالت:
- إذا كانت الحاجة فردوس تظن أننى طامعة فى فلوسه فلتطمئن، برسكال قادرة على أن تحفر الأرض وتسف التراب ليعيش أبوها أيامه الأخيرة مستورا
كان العم عبد العاطى جالسا تحت ظل شجرة التوت وهو يراهما يتحاوران ولا يسمع حديثهما، وأدرك أنهما يبكيان، وشعر بالحزن، فما تفعله برسكال من أجله لا يمكن الاستغناء عنه، وهو منذ حظى بسنة الأفيون اليومية لم يعد يشعر بتلك الآلام التى تستيقظ فى أماكن متفرقة من جسده، قام من فوق مقعده وخطا نحوهما متكئا على عصاه وقال لعبد المغنى:
- أنا لم آت إلى هنا لأنى أكره أمك، أو لأنى غاضب منها كما تظن، بالعكس يا عبد المغنى، أنا أفتقدها، ولازلت أحبها كما لم أحب واحدة من زوجاتى
تهدج صوته:
- هى التى رفضت أن تجىء إلى هنا، إلى دار ابنها، وقالت وأنا خارج إن الباب يفوت جملا، سمعتها بأذنى هاتين

ولما انتصر على رغبته فى البكاء قال:
- أمك لم تقصر فى خدمتى، لكنها لم تعد قادرة، كل ما له بداية له نهاية يا عبد المغنى، لديها بناتها يفعلن من أجلها ما تريد، أما أنا فليس لى بعد الله سوى برسكال
تمتم عبد المغنى:
- ونعم بالله
فأكمل العم عبد العاطى:
- إن استطعت أن تقنعها بالمجيء إلى هنا تكون قد فعلت لأبيك مكرمة كبيرة
كل محاولات إقناع فردوس بالقدوم إلى دار ابنها الأكبر ضاعت سدى، وعندما حان موعد السفر جاء بها عبد المغنى لترى أباه، كانت قد شاخت فى شهر بأكثر مما فعلت فى عشر سنوات خلت، حتى أن أحفادها حملوها لتصعد السلمات القليلة إلى الشرفة الأمامية، وبالكاد وصلت إلى الصالة فارتمت فوق أقرب مقعد وانهارت فى البكاء، وهوت برسكال على يدها تقبلها، لكنها سحبتها فى رفض معلن، ونظرت إلى زوجها تسأله:
- أهانت عليك العشرة يا حاج؟ تستكثر علىَّ أن نمضى معا ما تبقى لنا من أيام؟
مسح العم عبد العاطى دموعه من تحت نظارته ثم قال:
- كان على عينى يا حاجة، لا أنت قادرة على خدمتى ولا أنا قادر على خدمتك
انبرت برسكال وهى تمسح دموع التأثر:
- أنا أقدر، تعالى يا أمى وسأكون تحت قدميك
انصرفت فردوس بعد ساعة، ولما تأهبت لركوب السيارة مال عليها سليمان:

- زوجك لم يذهب بعيدا يا أمي، إنه في داري، فتعالى إلى هنا ليجتمع الشمل، هنا دارك وهناك دارك

نظرت إليه غاضبة:

- العوض على الله فيك، أو أقول لك، العوض على الله فيكم كلكم

انتحى عبد المغنى ببرسكال جانبا، ومد يده برزمة أوراق نقدية لكن برسكال رفضت في شمم، قالت في نفسها: "كنت أنا من يعطيك القروش وأنت طفل يا عبد المغني، وكنت أجلب لك الحلوى وأبتاع لك القمصان والسراويل، لم أفعل هذا لأنني كنت أريد منك أو من أمك شيئا، كنت أفعله عن حب، والآن تمد يدك إلى لأنني أرعى أباك، هيهات يا صغيري، أنا أعرف كيف أرعاه".

مر شهران آخران، وتحسنت صحة العم عبد العاطي فصار يتوكأ على عصاه ويمشي حول غيط سليمان في عصر كل يوم والسماعة الصغيرة تنشد في أذنيه حكايات بني هلال، ويعود من مشواره الصغير فيجلس تحت شجرة التوت ويحتسي فنجال القهوة، وتعمل سنة الأفيون بأقصى طاقتها فيرى الأشياء البعيدة التي لم يكن يراها، ويسمع أصوات أناس رحلوا، ويتذكر أشياء لم يكن يتذكرها، وفي الليل قد يطلب من حفيده عبد العاطي أن يتصل بخاله في السعودية عن طريق تلك الآلة التي يرى فيها المتحدثان كل منهما الآخر، ثم يذهب للقاء عمه في الحلم، فقد بدأ في الظهور من جديد، لكنه لم يعد غاضبا كما كان، صار يبكي.

جاء يونس وأخواه ليروه، وشكا من رمضان، قال إنه لم يكلف خاطره ويزره في مستقره الجديد، ثم أتبع شكايته بأن قال:

- أفوض الأمر فيه لله

بلغ رمضان ما قال فجاء لرؤيته، لكنه لم يقابله، جلست برسكال في مواجهته في حجرة الضيوف صامتة، وظل أبوه ملتزما حجرته، ولما مد إليها يده بمبلغ من المال جفلت كما تجفل بهيمة، ونظرت

إليه بعينين غاضبتين:"لى عندك حقوق لا تقدر بمال يا ابن أبى، لى عندك كسر الخاطر وقطع العشم واستحقار الشأن"، لم يقطع حديثها إلى نفسها إلا دخول ابنتها لتقدم لخالها الينسون.

لم تعد فى القرية دار لم يصلها خبر رفض عبد العاطى مقابلة الشيخ رمضان، ولا ما قاله فى حقه فى حضور يونس وأخويه، بُثَّ الخبر فى طنبارة كلها، من اللافتة القديمة وحتى حى الشونة، وصعد إلى الربوة مع الصاعدين إلى حيث ترقد الشيخة المحارزة فى مقامها القديم.

استيقظ العم عبد العاطى قرب الفجر على صوت بكاء عمه وهو يطارده، وشعرت به برسكال فنهضت من سريرها المواجه له وأسرعت لتأخذ بيده فسلمها ذراعه طائعا، كانت تخشى أن يقع فتتكسر قدمه أو ذراعه وهو في هذه السن وهو أيضا كان يخشى، وبعد أن توضأ وصلى الصبح جلس فوق المصلية مطرقا إلى الأرض ثم قال:

- الندم ليس كل شىء يا ابنتى

نظرت إليه وهو ينطوى على ألمه ثم قالت:

- دعنا نذهب إلى المحارزة وهناك قل ما تشاء

نظر إليها متشككا:

- وماذا ستفعل المحارزة يا ابنتى؟ هل ستحلنى من دَيْنِى؟

أسرعت تسأله:

- أى دين؟

تجاهل سؤالها، ولما لم يجبها قالت:

- لا تستهن بها يا أبى، لم أقصدها مرة وردتنى خائبة.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما حملهما تكتك إلى الجبانة وصعد بهما إلى هناك، وسألت برسكال أباها إن كان لا يزال على

وضوئه فأومأ برأسه أن نعم، ولما دفعت باب المقام انفتح فى يسر فقالت:

- أرأيت؟ الطريق سالك يا شيخ عبد العاطى، أدخل وصل ركعتين ثم حدثها فيما تريد، أما أنا فسأذهب لأقرأ الفاتحة على عزيزة ونعيمة

ظل واقفا أمام الباب لا يدرى أيدخل أم يظل كما هو، ثم تغلب على تردده ودخل، وخطا فى اتجاه الضريح فهبت نسمة أغلقت الباب، الآن صار هو والضريح وحدهما، ونظر إلى المقصورة فرآها تهتز، وارتجف وكاد يسقط من الرهبة، من الواقف فى حضرة السكون الآن؟ أهو عبد العاطى المرتجف؟ أم ذلك الرجل الذى قطع كل الطرق فوق عربته ذات الأربع عجلات يفرقع بالكرباج فوق آذان المهرتين ويرقع بالموال؟ لا، إنه عبد العاطى المرتجف، الذى يخاف من رفرفة كسوة المقصورة، كأن المحارزة ستخرج منها وتلقنه الدرس الذى لم يتعلمه، واستقبل القبلة ونوى صلاة ركعتين، وبينما هو يصلى رأى عمه فى الركن، لم يكن قد رآه من قبل على هذا النحو.

يا لبشاعة الموت، ما الذى يفعله بالناس هذا الكائن الغريب؟ كيف يجمد ملامح ضحاياه على هذا النحو؟ فالذى يقف فى ركن المقام رجل ضعيف، أضعف من أن يخطو فى اتجاهه خطوة واحدة، وعيناه تذرفان دموعا لم ير فى حياته مثلها، تنفرط كما ينفرط العقد، وتجرى فى كل مكان فوق أرضية المقام، وسكنت روح العم عبد العاطى حسرة عظيمة، وكاد يسقط من الجزع فصرخ بكل قوته:

- حرام عليك، إن كنت آلمتك مرة أنت آلمتنى عمرا بكامله

لكن الدموع ظلت تنفرط وتجرى تحت قدميه، ومعها تنفرط روحه حتى انهار فوق الأرض وغاب عن الوعى.

* * *

شقت خادمة المقام شارع القرية الرئيس وهى تبكى وتلطم خديها، واجتمع الناس حولها، لكنها ظلت ماضية فى طريقها إلى دارها، وعندما جلست على المصطبة أخذت شهيقا عميقا ثم قالت:

- لقد رحلت

سألوها:

- من؟

قالت:

- ستنا المحارزة

رأتها فى المنام ليلة أمس حاملة بين يديها صرة فيها كسوة الضريح، ولما اقتربت منها لتحمل عنها الصرة رفضت، وقالت لها: "أنا راحلة، فطنبارة لم تعد تحتاجنى، كثرت فيها الصلاة وقلت البركة، وزاد عدد الصُوَّام وتفشى الظلم، وزادت وفود الحجاج والمعتمرين وغطت النساء وجوهها، وأطلق الكثيرون اللحى وتقطعت الأرحام"، وعندما استيقظت ذهبت إلى المقام فإذا بالباب مفتوح والنافذة خالية من الشموع، والضريح ليس على مقصورته إلا قماش الدبلان، ولما نادتها على طريقتها لم تسمع شيئا ولم تر شيئا، فقط الريح يصفر فى المقام الخالى، بعد عشرات العقود رحلت المرأة القديمة التى لا يعرف أحد من أهل طنبارة من أين جاءت، كل ما يعرفوه أنها بعد طول ترحال حطت فى هذا المكان، وتجمع حولها الناس، بنوا دورهم ومسجدهم واستصلحوا الأرض، ولما حضرتها الوفاة اجتمعوا من حولها يسألون إن كانت توصيهم بشىء فقالت:

- من أنا لأوصيكم؟ أوصونى أنتم يا أهل طنبارة

لم يكونوا قد أعطوا بلدهم اسما فصار اسمها طنبارة، وبعد أن دفنوها فوق الربوة بنوا مقابرهم حولها، وفى ذكرى وفاتها الأولى

جاءت لكبيرهم فى المنام، كانت ملفوفة فى كفنها فحررت إحدى يديها وهزته ليستيقظ:

- قم وابن مقاما فوق قبرى، واجعل نافذته مفتوحة لا يغلقها أحد

استيقظ الرجل من نومه فدعا رؤوس العائلات وحكى لهم ما رأى، ولما بنوا المقام جاء الناس إليها دون دعوة، منهم من يجلس عند بابها ويبكي ومنهم من يقف ممسكا بحديدة النافذة ويبكى أيضا، وعندما جاءت برسكال مع أبيها إلى طنبارة كانت تذهب مع الأطفال إلى هناك، فى ليلة المولد أو فى الأعياد، عندها يفترش الباعة ساحة الجبانة، آتين من بلاد بعيدة، أصحاب المراجيح والزنانات ومنصات النيشان ومهرجى المسارح الصغيرة وصناديق الدنيا وأكشاك الأراجوز وبائعى الحلوى وعلب البخت.

فى البداية كان رجل من عائلة سليمان يفتح صندوق النذور ويصرف من عائده على المقام وخدمته، ويضىء كل ليلة خميس شموعا كثيرة فوق أرضية النافذة المفتوحة، وتقدمت امرأة مات عنها زوجها لتتولى خدمة الضريح فتركوا لها شؤون المقام كلها، كانت هى من تنظفه وتجدد ما يبلى منه وتعيد طلاءه كل عام قبل موعد المولد، وأورثت الأمر إلى إحدى بناتها إلى أن استقر عند حفيدة لها، هى التى شقت منذ قليل شارع طنبارة الكبير وهى تصوت وتلطم خديها.

كان العم عبد العاطى منذ زار المقام لا يقوم من النوم إلا لينام من جديد، ثلاثة أيام كاملة وبرسكال توقظه فلا يتناول من الطعام سوى لقمة ثم يعود للنوم، ولا يتحرك، تتركه مستلقيا على جانبه مقرفصا كأنه جنين فى بطن أمه ثم تعود لتجده كما هو، وفى صباح اليوم الرابع استيقظت فوجدته جالسا فى السرير، وعندما رآها تنهض سألها:

- منذ متى وأنا نائم يا برسكال؟

أجابته وهى تفرك عينيها:
- نوم العواف يا أبى
علقت الدهشة بملامحه وقال:
- طوال كل هذا النوم لم يزرنى
ظننت أنه يخرف فانزعجت، ولما سألته عمن هو الذى لم يزره قال:
- كان واقفا فى ركن المقام ودموعه تنفرط من عينيه حبات حبات، وصرخت فيه ولم أحتمل صرختى
سألته بإشفاق:
- عمن تتحدث يا أبى؟
أدار وجهه وقال:
- لا تأخذى فى بالك يا ابنتى، أبوك لم يعد يتقن القول
حتى تختبره قالت:
- أنت رجل طيب يا أبى، لحقنا بها قبل أن ترحل
تجاهل قولها وظل محدقا فى الفراغ كأنه يتذكر:
- أتعرفين يا بنت يا برسكال متى سَكَنْتِ قلبى، أنا أقول لك، عندما كنت ضائعا فوق الطريق إلى هنا فى تلك الليلة البعيدة سألت نفسى، لم لا تشعر بالخوف يا عبد العاطى وأنت كنت تخشى الطريق؟، وأجبت: لأن برسكال معى، أنفاسها إلى جوارى، أنا لست ضائعا فى هذا الخضم المظلم، إبنتى تؤنسنى، وقتها طرقت باب قلبى، كان غارقا تحت تلال من الهموم لا أول لها ولا آخر، لكنه سمع طرقاتك، وعندما بتنا أول ليلة فى حجرة الجارحى وتظاهرت بالنوم حتى لا أقلقك، ثم طوفت بحياتى كلها، كنت واثقا أنك مستيقظة، وأنك تفكرين فى، ولهذا اعتدلت على ظهرى وسألتك إن كنت قد تأكدت من ربط المهرتين فى حظيرة جارنا، وأجبتنى، بل وأجبت

على أسئلة أخرى كنت سأوجهها، فى تلك اللحظة قفزت إلى قلبى، وجلست فيه وتربعت

وبعد طول صمت نظر إلى عينيها المغرورقتين وقال:

- رأيتها فى المنام، كانت تجمع أشياءها، وكنت أبكى من الحزن، وأتوسل إليها ألا تفعل، لكنها لم تصغ إلى، وعندما وضعت الكسوة فى صرة كانت معها قالت: "لم أعد أقدر على المكوث هنا أكثر من هذا، هناك أناس ينتظروننى، ولكن تذكر، لا تخشَ الندم"

هوت على يدى أبيها تقبلهما، وذرفت فوقهما الدموع، إنه نفس حلم خادمة المقام الحزينة، وقبل أن تستغرق فى أفكارها قال:

- أتعرفين يا برسكال، أنا أحب حبق البحر، مثلك وأكثر، لم أعرف أبدا لماذا كنت أتعمد ألا أظهر حبى له أمامك، وكنت إذا تركتنى لشأن ما وغبت قليلا أقبض منه ملء كفى وأقربه إلى أنفى وأشم عبيره، ويا سلام لو أغمضت عينى وأنا أفعل، كأننى أحلق مع العنز فى السماء البعيدة

كانت مسندة رأسها إلى كتفه فقالت:

- كنت أراك وأتظاهر بالغفلة

سمعت ضحكته الصامتة وهى تدفن رأسها فى صدره، وبعد قليل رفعت رأسها ورأى عينيها تلمعان وهى تقول:

- الآن أنا أعرف أين سأقيم قبرك

سألها:

- أين؟

أجابت:

- فوق الربوة، ذهبت المحارزة وجاء عبد العاطى

نهرها:

- أنا أتكلم بجد

أحكمت قبضتها وهى تؤكد:

- ورحمة أمى أنا أتكلم بجد، وإذا لم أبن قبرك فوق قمة الربوة لا أكون ابنة عبد العاطى ملش وغاية المنى إبليس

سرى فى طنبارة أن الشيخ عبد العاطى رأى فى المنام أنه يموت، وأن وفدا من أهل الجنة جاء ليؤنس وحدته، بعضهم لما سمع ضحك، وبعضهم تعجب، وبعضهم قال إن الله هو صاحب المغفرة، ولم يكد يخبو الحديث حتى سرى حلم جديد، وتوالت الأحلام، فمرة رأى نعيمة فى الجنة ولم تكن خرساء، وتحدثت إليه وتحدث إليها، وقالت إنها لم تعرف قدره إلا عندما نادوها لتلج من باب الصِدّيِقِين، فلقد نادوها باسمه، نعيمة ابنة زينب زوجة عبد العاطى ابن آمنة، ووجدت نفسها تجيبهم، كأنها لم تكن يوما خرساء.

ومرة رأى أنه ساجد أمام العرش فطلب أن تلحق به عزيزة، فلقد أكرمت فى الدنيا نزله، وسمع صوتا يقول دعوها تدخل من باب الطاعة، وأخرى رأى أنه يمشى فى طرقات الجنة فحن لرؤية فردوس، ودعا الله عند مسقط ماء عذب أن تلحق به فى الجنة، وكان يقول لكل من يمرون به: أنا عبد العاطى ابن أمنة، أنا الذى لم تنكشف عورتى على امرأة أجنبية عنى، أنا العفيف العفيف العفيف، وأنا الذى نُشّئتُ يتيما وطال عمرى حتى مت فى قومى سيدا.

وضعت الأحلام المبثوثة قيودا لا سبيل لفضها حول رقاب الجميع، حتى رمضان، فإذا كان عقوقه لأبيه قد صار معلوما للقاصى والدانى فإنه إذا أراد أن يهاجم أحلامه سيكون لا يعق أباه فقط، وإنما يعق ذكرى أمه أيضا، وحيد حلم عزيزة يونس وأخويه، أما فردوس فلقد أفسد الغضب عليها حلمها.

لم تبث برسكال حلمه عن أمها، رغم أن أحلامه عنها لم تتوقف، فلكم رآها وهى تناديه بصوت بعيد، كأنه قادم من وراء الزمان، ورأى نفسه وهو يسبح فى الماء قاصدا جزيرة صغيرة تعيش فيها،

ورأى وحوشا تهجم عليه، تخرج من الماء وتختفى فيه، كل هذا رآه، وكل هذا رأته برسكال أيضا، كأنها وأباها صارا شخصا واحدا.

الآن هى على يقين من أنها لم تحب أحدا فى حياتها بقدر ما أحبت أبيها، حبها لأمها، حبها لسليمان، حبها لأبنائها، حبها القديم لعبد المغنى، كل هذا لا يساوى قطرة فى محيط حبها لأبيها، ولم تكن لتبث حلما من أحلامه عن أمها فينال الآخرون من صدق أحلامه، فيونس وأخواه كانوا يضحكون مما تبثه عن أحلام أبيها، لكنهم لم يتجاوزا الضحك، وشيئا فشيئا داخلهم الشك فكفوا عن الضحك، فقد يكون أبوهم قد حلم بهذا فعلا، وقالت فردوس لبناتها إنها لم تسمع فى حياتها أن أباهن يحلم، وإذا تصادف وسمعت خطرفته فى النوم فإنها لا تخرج عن سباب يكيله لأناس لا تعرفهم، لكن بناتها اعترضن، فأبوهن رجل لم يصبه الدنس، وعبر اسكايب سأل عبد المغنى عما يتداوله الناس فقص عليه عبد العاطى الصغير آخر الأحلام، وخجل عبد المغنى من ضحكة قصيرة ندت عنه، وسرعان ما لجمها ثم قال:

- من يدرى؟

رمضان ما كان ليدع أحلام أبيه تنبث بين الناس دون مواجهتها، متهما برسكال باختلاقها، وحمل ذقنه المتوترة وقصد إلى يونس، ما أن رآه يونس حتى تأهب كأنه سينازله، وبعد افتعال سعلتين قال رمضان إن ما تفعله برسكال زاد عن حده، فهى لا تهدف إلا للعودة إلى السحر الذى احترفته أمها قبل هلاكها، ونظر إليه يونس فى استنكار:

- ماذا يضيرك فيما تبثه عن أحلام أبيك يا ابن أبى؟

أجابه:

- لا شيء، فقط لا أريد أن يأخذ أحد علينا الاجتراء على الله

وتهكم يونس:

- أين الاجتراء على الله فى هذا؟ أخرج منها أنت وسيكون كل شيء على أتم حال

لم يكن يونس يدافع عن أحلام أبيه، فهو لا يعرف إن كانت حقيقية أم أن برسكال ابتدعتها ابتداعا، لكنه لا يرتاح لأى شيء يقوله ابن الخرساء كما يحب أن يسميه، وحتى لا يدع رمضان فرصة لأى تجديف آخر أوحى إلى مريديه فهدموا مقام المحارزة وجعلوه أثرا بعد عين، ومروا على القبور فهدموا كل شواهدها.

قبل أن يهدمه أعوان رمضان طلب العم عبد العاطى من برسكال أن تأخذه لزيارة المقام، قال إنه يعرف أن المحارزة لم تعد هناك، لكنه يحب أن يوجد فى المكان الذى عاشت فيه أعمارا بكاملها، وتعجبت برسكال من طلبه، وغرقت فى الحيرة، وراحت تقول لنفسها: " لك فى طنبارة أكثر من أربعين عاما لم تقف فيها عند نافذة المقام مرة، ولا أشعلت من أجلها شمعة، والآن تريد أن تذهب إلى هناك بعد أن غادرت، أى سر تخفيه عنى يا شيخ عبد العاطى؟".

وقفا أمام الباب المفتوح فرأيا المقصورة مجردة من كسوتها، بدا كأنها ستنقض، وتلاعب الهواء بالباب فراح وجاء كأنه سينغلق، ولما دخل العم عبد العاطى إلى المقام وقفت برسكال عند الباب، ورأته يخطو فى اتجاه الموضع الذى صلى فيه من قبل، ويقف مستقبلا القبلة، لما نوى للصلاة شعر بنور ينبعث من داخله، وسمع صوتا يقول: "حتى أطلال الأولياء تظل طيبة لأنهم كانوا هناك ذات يوم"، وهو يقرأ الفاتحة كان المقام خاويا، وركع فلم ير إلا نور نفسه، واستقام ثم هم بالسجود فرآه مطروحا أمامه يبكى، تسمر على وضعه، متهيئا للسجود ولا يسجد، وبكى وهو على هذا الوضع حتى ظنت برسكال أن به شيء، وهمت لنجدته فإذا به ينهار فوق الأرض ساجدا وصوت نحيبه يملأ المكان، وسمعته يقول:

- ليتنى مت ولم أفعل

أنهضته فانصاع ليديها، وجلست عند حافة الربوة وهو إلى جوارها:

- ألن تخبرنى ما بك؟

أجابها محتدا:

- ليس بى شىء يا بنت غايته، إنه دين قديم أسدده

ودت لو ألحت عليه فربما يحكى، لكن التصميم فى ملامحه أغناها عن المحاولة، وظلا جالسين فوق الربوة ينظران إلى القبور من تحتهما، وبعد صمت طال حتى اقتربت الشمس من المغيب قال:

- سمعت أحدهم يقول مرة إن مقامات الأولياء ليست هى التى نراها فوق الأرض، إنها فى قلوب المحبين

نظرت فى عينيه:

- إذن اجعل مقامها فى قلبك

أبدى شيئا من الرضا ثم قال:

- المكان هنا يشرح الصدر

من فوق منبر المسجد الكبير خطب رمضان فى الناس عن الرؤيا ومراتبها، وقال إن الكذب فى الرؤيا عن النبى جريمة كبرى، فما البال بالكذب على الله، وفهم الجميع أنه يعنى ما تتداوله الألسن عن رؤى أبيه التى تبثها برسكال، وبعد أن أم الناس فى الصلاة جلس يدرس للناس، قال إن الإسلام طرد من داره لأكثر من قرنين من الزمان وحان الوقت ليعود مظفرا، وعرج على السحر وعقاب السحرة، ولما هاجت اللحى تطالب ببيان عقاب السحرة فى الدنيا قال إن السحر كفر، والساحر يقتل بضرب عنقه بالسيف أو بالحرق فى النار أو بالرمى من فوق الجبل.

عادت برسكال من عملها فرآها سليمان مكفهرة، وصلها ما قال أخوها فعادت وهى لا تعرف إن كانت غاضبة أم خائفة، اقترب منها سليمان وأحاط كتفيها بذراعه وسألها:

- ما بك يا حبيبتى؟

منذ أبلغه العم عبد العاطى بأمر الحساب المشترك وهو يقول لنفسه إن برسكال هى من ربحت فى النهاية، ظلت تحت قدمى أبيها حتى اعتدل الميزان، وأخذت برسكال شهيقا عميقا:

- إين أبى يا سليمان

شعر بالخوف:

- من؟

أجابته:

- رمضان

- ماله؟

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين الضيقتين، ومن خلال الدموع المترقرقة قالت:

- أحل دمى

انتفض سليمان، لا يصدق ما يسمع، لكنه قال مهونا الأمر:

- يا شيخة سيَّبْتِ ركبى، إنه مجرد كلام يقولونه منذ مئات السنين

كانت لا تزال تراه بعينيها المغرورقتين:

- طلب من أتباعه قتلى

تظاهر بالاستهانة وضحك:

- إنهم أهل كلام لا أكثر

ولما وجدها لا تستجيب لمواساته قال:

- إن شئت نقدم بلاغا، ونأخذ التعهد عليه وعلى أتباعه

رَبِدَ وجهها:

- لا أفعل دون استشارة أبى

همس فيها سليمان:

- وما الذى يقدر عليه أبوك الآن يا حبيبتى؟

هزت رأسها رافضة:

- حتى لو صار كومة عظام فى قفة لن أفعل شيئا دون رأيه

فى حجرته استبطأ العم عبد العاطى مجيئها لتنام قبالته، أخبار ما جرى تسربت إليه عن طريق أبنائها، ولما غابت كثيرا غفا، واستيقظ ولم يجدها فخرج من الحجرة متوكئا على عصاه، وفى غبش الصالة سمع صوتها قادما من حجرتها، وانقبض قلبه، خطا نحو الحجرة وطرق الباب، وساد صمت قبل أن تسأل عن الطارق.

لم ينم إلا بعد أن عرف كل شىء، ومن شدة الحزن استيقظ على قلبه الضعيف تتسارع ضرباته، واجتمع عليه أهل الدار، وأمام الجميع أقسم ألا يترك رمضان إلا والعار يجلله، وانفرد سليمان ببرسكال:

- هدئى اللعب يا أم عبد العاطى، أبوك لن يتحمل، ورمضان ليس هينا

نظرت إليه مستفسرة فأردف:

- يقول إنه القرآن والسنة

نظرت إليه ساخرة:

- هى بضاعة واحدة يا زوجى، ولى فيها مثل ما له

رأى أن يكمل تحذيره:

- لسنا قدر أمن الدولة يا حبيبتى، وهو رجلهم

ضحكت فى توتر:

- مشكلتك يا سليمان أنك لا تعرف أبى، لو تعرفه كما أعرفه لما قلت هذا

وقال سليمان فى نفسه إنها جنت.

بعدها بأيام كانت فى عملها، وانشغل ابنها عبد العاطى بمحادثاته على الفيسبوك وترك جده فى حجرته، وعندما دخل ليطمئن عليه لم يجده، وخرج من الدار يبحث عنه فقال أحد الجيران إنه طلب أن

يستدعي له تكتك واستقله لا يعرف إلى أين، وخشى عبد العاطى أن يهاتف أمه حتى لا تثور فى وجهه فخرج يبحث عنه.

لم يجده عند جدته فردوس، وقصد إلى معرض أخواله فهاله ما رأى، التكتك الذى حمل جده إلى هناك واقف فيما جده الذى تجاوز عمره التسعين يقف أمام باب المصنع والناس يجتمعون من حوله، كان يهدر بكلمات غاضبة:

- أنت تغرى الخولات بقتل أختك لأنها أكرمتنى فى شيبتى يا ابن نعيمة؟ لولا أننى أعرف أن أمك كانت أشرف امرأة لقلت إنك ابن حرام

كلما يقترب منه أحد ليصرفه عن مواصلة الكلام يهوشه بعصاه، ويواصل حديثه، ولما رأى رمضان أن أباه لن يكف خرج إليه، وهم العم عبد العاطى بضربه فتعثر، وأسرع عبد العاطى الصغير ليمنعه من السقوط، لكنه دفعه بعيدا عنه وواصل الحديث، وحتى عندما قال رمضان:

- أنا لست قاتلا يا أبى، هى من تجدف فى حق الله وتقول إنه يتحدث إليك

هاج العم عبد العاطى هياجا عظيما:

- نعم يا شيخ قرد، هو يحدثنى وأنا أحدثه، كل يوم، كل يوم

فغر رمضان فاه، وتكسرت لحيته فوق بطنه العظيمة، وكان عبد العاطى الصغير قد عاد ليقف إلى جوار جده فتساند إليه وهو يلوح بعصاه ويردد:

- قلبى وربى غاضبان عليك إلى يوم الدين يا ابن نعيمة

وقبل أن ينصرف كان الهياج قد بلغ مبلغه فقال لجميع الحاضرين، كأنه يشهدهم:

- هذا الولد العاق لا يُغَسِّلْنى، ولا يحمل خشبتى، ولا يُشَيِّعْنى إلى قبرى، ولا يستقبل الناس فى مأتمى، ولا يجمعنى به قبر

ظل يردد هذا والتكتك يعود به وبحفيده إلى أن وضعه عبد العاطى الصغير فى فراشه، وحتى عندما استراح على جانبه ظل يردده حتى راح فى النوم.

* * *

الحب يصنع المعجزات، هكذا قالت برسكال، وأبوها معجزة في كل شيء، في يتمه، وصموده، ونسائه، وأحلامه، وفي حبه لها، وكل شيء فيه معجزة، وجهه، وشاربه، وعيناه، وحاجباه المعفران بتراب الطريق، وهيكله الضخم كقصر قديم، ونفسه التي لم تنطو أبدا على شر كبير، آه لو يعرف أبوها كم شعرت بالحب وهو يحكي لها عن متى دخلت قلبه، لحظتها راجعت نفسها، ووجدت أن حياتها معه هي كل حياتها، من يوم أن رفعها بيديه وضمها إلى صدره وأمها جالسة ترقبهما، وحتى يوم أن أبلغها بحاجته لأن تظل معه حتى النهاية، وأن روحه لم تتخل يوما عن التعلق بها، وهي لا تفعل الآن إلا ما يريد، لكن الذي لا يعرفه أنها هي الأخرى تعيش أجمل أوقاتها، كانت حتى وهي طفلة بانسة أما له، والأم لا تفارق ابنها بإرادتها، لذا فإن أمر عودته إلى دار فردوس لا بد أن يحسم نهائيا.

من يراهما ضائعين في قلب الليل البعيد لم يكن ليصدق أبدا أن ذلك الرجل الذي كان وتلك الطفلة التي كانت هما هي وهو، وإذا كانت قد قالت من قبل إنه ولي فهي الآن على يقين من هذا، والديون القديمة التي تشقيه ويجهد روحه ليسددها ليست إلا علامة الولاية، فالولي لا يجرؤ على مقابلة المولى وعاتقه محمل بدين، فما الضير إذا أقامت له القبر الذي يريد في المكان الذي يريد، ربما تكون هي من أوحت إليه بالمكان، لكنه تعلق به، وتعلق بالمقام وبالمحارزة، ومن لهفتها لتحقيق أمنيته رأت في خيالها قبره، كان يقوم فوق الربوة، وفوق المقام تتألق قبة مذهبة، ورأت الصواري والرايات ترفرف، ورأت نفسها خادمة مقام أبيها، ففي تلك الليلة البعيدة البعيدة لم يكونا على موعد مع طنبارة، طنبارة هي التي كانت على موعد معهما.

في دار فردوس جلس العم عبد العاطي ينظر في الأرجاء ويتذكر، كانت برسكال قد بدأت في أخذه إلى هناك لتقطع الطريق على فردوس، يقضي معها اليوم بطوله، في هذا اليوم تجمع ملابس حماتها وتغسلها، ولا تتركها فردوس لحظة، تقف لتراقب ما تفعل، وبعد أن تفرغ من الغسيل تطهو طعاما للغذاء، وترسل في طلب أخواتها ليتناولوه معا، وقرب المغرب تعود بأبيها إلى دارها وهو قرير العين، وحافظت على فعل هذا مرة كل أسبوع، ومع مطلع كل شهر تسافر إلى المنصورة حيث أودعا المبلغ فتسحب فوائده وتعود لتضعه في يده، ويستبقي منه مبلغا لحساب سجائره ثم يعطيها الباقي.

لما عزمت على بناء المقبرة أرسلت إلى يونس وأخويه، كما أشركت فردوس وبناتها، وتحدثت إلى عبد المغني عبر اسكايب، وراحوا جميعا يفاضلون بين المواقع، وعندما اقترحت أن يكون القبر فوق الربوة صمتوا، فمن يجرؤ على احتلال المقام حتى لو انهدم؟ قالت إن هذا هو بالضبط ما يجعلها تفكر في هذا المكان، فالكل زاهد فيه، وفي أحد الصباحات المبهجة فوجئت طنبارة بعربة نقل صغيرة تحمل الطوب، ويصعد برصاته عمال أغراب إلى قمة الربوة، واختلف الناس، هل يمنعوهم من إقامة القبر في موضع المقام؟ ثم تساءلوا، لماذا يمنعوهم؟ لقد هجرت المحارزة المكان ولن تعود، وحتى إذا لم ترحل وانبثت في فضاء الجبانة تطوف مع أسراب الطير كما يقول البعض فإنها اجدر بمنعهم، وترددوا في الاقتراب، لكن أحد الكبار صعد إليهم وسأل عما يفعلون، وانبرت برسكال ضاحكة:

- أبي عاش في طنبارة ما يقارب الخمسين سنة، كل عائلات القرية أخوال أبنائه أو هو جد أبنائهم، ألا يستحق أن تكون له في جبانة الكرام قبرا؟

تعمدت أن يكون القبر عاديا، لكنها بنته بشاهد قبر، غير عابئة برمضان وجماعته، ولما أتمت البناء وضعت على أحد جوانبه لوحا رخاميا صغيرا، كُتِبَ فوقه بالحفر: مقابر آل عبد العاطى، ولما انتهت من البناء ذهبت إليه مازحة:

- بودى لو ذهبت معى لترى القبر، بعد عمرين طوال ستكون هناك وكلنا معك

خلد إلى أفكاره قليلا ثم قال:

- لا أعرف ما الذى كان سيصير إليه حالى لو أنك لست إلى جوارى يا برسكال؟

ذات أصيل حملته إلى هناك، وأمرت سائق التكتك بالصعود به، ولما نظر ورأى القبر، ورأى حبق البحر ينبت من حوله، ورأى الجبانة ثاوية فوق جوانب الربوة وعند السفح، لما رأى كل هذا انفعل، وغلبته عاطفته فبكى، ثم قال لبرسكال:

- خذينى إلى فردوس لأقنعها بالمجيء وترى ما رأيت

وفى دار فردوس وضع يده فوق كتفيها السمينين وقال:

- لو أن لى أمنية أخيرة عندك يا أم سليمان هل تلبيها من أجلى؟

ودمعت عيناها:

- وهل طلبت منى شيئا من قبل ولم ألبه لك يا سى عبده؟ حتى روحى بذلتها من أجلك

فقال برجاء:

- تعالى لأريك القبر الذى أقمته لنا فى الجبانة فوق أعلى ربوة فيها

قامت متساندة إلى أذرع بناتها وحملها تكتك كان يئن وهو يصعد إلى الربوة، ولما رأت القبر ونظرت فإذا كل القبور ثاوية أسفله قالت:

- إنه يرد الروح يا سى عبده، النسيم يأتيه من كل مكان

ثم مالت على أذنه و همست:
- أنت رجوتنى لآتى معك لترينى القبر، وجئت، والآن جاء دورى، تعال لتبيت عندى الليلة فأشعر بأنفاسك إلى جوارى
ابتسم العم عبد العاطى متعجبا، يا لعقل النساء، إنه لا يكف أبدا عن طلب المستحيل، وعندما أوصلوا فردوس إلى الدار قال لبرسكال:
- دعينى أبيت هنا الليلة
لم تظهر اعتراضا، ابتسمت وهى ترنو إليه، وبعد انصراف الجميع نظر عبد العاطى بين يديه وقال لفردوس:
- لطالما ظلمنا هذه البنت يا فردوس، ظننا بها السوء وهى أرق من فرخ الحمام
صححت فردوس ما قال:
- عن نفسى أنا لم أظلمها، كنت أعاملها كبناتى
ولما لم يعقب أردفت:
- وأنت تجلس على خيرك أينما تذهب
فطن إلى ما تقصد فقال:
- إنها لا تمد يدها إلى فائدة البنك إلا إذا رجوتها أن تأخذ ما أعطيه لها منها
وحتى يدخل على قلبها السرور قال:
- أما سليمان فيا زين ما ربيت يا فردوس
تجاهلت محاولته، لكنها لم تكن لتكف عن مناكفته كطبع أصيل فيها:
- فردوس كانت بالأمس ابنة نعمان الحرامى، أو قدرت على أن تسىء إلى أبى كل هذه الإساءة يا سى عبده؟
ضحك متعجبا:

- لا تكونى سوداء القلب يا امرأة، وأنت عندما وصفتنى بالخرف، أكنت تقصدين؟

لما أشاحت بوجهها أردف:

- لم أضع فى ذهنى أبدا أنك تقصدين، وأنا عندما قلت ذلك لم أكن أقصد

تمنعت فى دلال:

- إهانة كبيرة يا سى عبده، ولن أصفو إلا إذا صالحتنى

أدخله الضحك فى نوبة سعال شديدة، وبين السعلة والسعلة راح يقول:

- الله يجازى شيطانك يا فردوس، من كان يصالحك مات وشبع موتا يا امرأة

ضربته على وركه ضربة خفيفة ثم قالت:

- آه منك، والنبى من يبحث يجدك تخطط للزواج من جديد، لن أأمن إلا إذا وضعتك فى القبر وأغلقت عليك بيدى

لما صارا فى الحجرة تجردت من ملابسها، ورأى لحمها القديم لا يزال شهيا، ارتدت ثوبا منزليا على السحو، وساعدته بقدر ما تستطيع، فخلع ملابسه وارتدى جلبابا منفردا، ولما صارا متجاورين سألته:

- بذمتك يا سى عبده، ألم تفتقدنى؟

استدار ليواجهها:

- أما وقد ذممتنى فأنا سأقول لك، لو أن الله سألنى عن آخر رغبة لى فى الحياة لوقفت أمامه وقلت: "أريد ليلة واحدة من ليالى فردوس، فى العصر أجلس على مقهى النبوى، وأضع فص الأفيون فوق ضرسى وأشرب كوب الشاى الثقيل، وبعد أن تهدأ القرية وتنام الدار أدخل عليها، وتواجهنى رائحتها من عند الباب وأنا أتسلل على أطراف أصابعى، وأمد يدى لأزود شريط اللمبة فأراها نائمة

والقميص محسور عن وركيها المصبوبين، وأضع يدى عليهما، وعندما تستدير أدس رأسى فى صدرها"، يااااااه يا فردوس، كأنى الآن أشمر عن ساعدى وآخذك بين ذراعى

ندت عنها تنهيدة، وسرحت عيناها فى خيال قديم، ولما ساد الصمت قال:

- أتعرفين يا فردوس؟ كثيرا ما أستيقظ فى قلب الليل وأمد يدى فى الظلام كأننى أتحسسك، وعندما تصطدم يدى بالمرتبة أحزن، وأظل أتقلب فى الفراش حتى يطلع على الصبح

مد يده ليحتضنها، ولما استراحت ذراعه بين طيات جسدها قال:

- أسأل نفسى: "لماذا لم يخلقنى الله كما خلق غيرى؟ كالأولاد الذين تربوا فى حجر آبائهم وأمهاتهم؟ والناس الذين يصومون ويصلون؟ والرجال الذين يكتفون بامرأة واحدة؟" وعندما أختنق بالرغبة فى البكاء أقول: "لابد أنه خلقنى هكذا لحكمة، وإلا لما صار لدى كل هؤلاء الأبناء والأحفاد، والرجل الذى جاء إلى هذه القرية قبل خمسين سنة وهو لا يملك من الدنيا إلا ذراعيه والعربة الكارو والمهرتين، كان بكثيره سينجح فى بناء دار صغيرة، ربما حتى لا تكفى لرجل وامرأته وطفل واحد، ويموت وهو على ظهر عربته فتأخذه المهرتان إلى الدار، ويشيعه بضعة رجال يعدون على أصابع اليد الواحدة

سرح ببصره فى فراغ سحيق ثم سألها:

- أترينه سيسامحنى يا فردوس؟ هل سيقبلنى عنده؟

أمسكت بذراعه تتشبث به:

- عندما أخذتك ابنتك من حضنى وذهبت بك جلست أبكى وأقول: "صحيح يا فردوس، الدنيا قالت يا فراق ولم تقل يا لَمَّة"

عندما هم بالحديث إليها بعد صمت قصير سمع صوت انتظام أنفاسها، وأراد أن يوقظها لكن شخيرها تعالى، كانت لا تزال قابضة

بكفها السمين على ذراعه، وبرفق رفع كفها عنه وسحبه من بين طيات جسدها، وانطرح على ظهره وغرق فى الذكريات البعيدة، ثم استدار وألقى رجله فوق اللحم الشهى وراح فى النوم.

عندما انطلقت مكبرات الصوت تعلن عن قدوم الفجر استيقظ على حلم غريب، رأى أنه طفل فى دارهم القديمة، لم يكن فى الدار سواه، ورأى رجلا مهيبا شعره بلون الثلج يقف عند الباب، لم يفكر فى الهرب، ظل واقفا ينظر إلى الرجل فى دهشة، وسأله الرجل:

- أأنت عبد العاطى ابن آمنة؟

ولما أومأ برأسه أشار الرجل بيده إلى براح قريب:

- قم إلى هذا البراح يا عبد العاطى، هناك سترى ما ينتظرك

وأخذه من يده وخرج به.

ظل مستلقيا على جانبه وفردوس فى مواجهته، تمضغ أحلامها وتتفقده بيديها، وفى إحدى نوبات تقلبها استيقظت، وشعرت به مستيقظا ففركت عينيها:

- أإلى الآن لم تنم يا سى عبده؟

كان شاردا، فى ملامح الرجل المهيب، وفى لمسة كفه التى لا تزال محسوسة فى يده، وبينما هى تتأهب للنهوض للحاق بصلاة الفجر مد يده لتساعده على النهوض:

- رأيت الليلة حلما غريبا

قالت وهى تتجه للخروج من الحجرة:

- خير إن شاء الله

- رجل شعره أبيض كالثلج أمسك بيدى وقادنى إلى براح لم أر فى مثل اتساعه، وقال وهو يصطحبنى إننى سأرى هناك ما ينتظرنى

صمتت لا تعرف بم تجيبه فسألها:

- أترانى سأموت قريبا يا فردوس؟

استغفرت:

- يا رجل تذكر شيئا طيبا

وبعد قليل من الصمت قال:

- أتعرفين يا فردوس، أنا لم أستيقظ مرة واحدة لصلاة الفجر، كنت أصليه عندما يدركني، ولا تضحكين مني، فأنا لم أعد أعرف كيف أصليه، خجلت أن أسأل برسكال وصليته كما أعتقد، أعرف أنه ركعتان، ولكن كيف أصليهما لا أعرف

ضحكت وهي تطرد آثار النوم:

- رجل الحلم يأخذك من يدك ليريك ما ينتظرك في البراح الكبير وأنت لم تستيقظ مرة لصلاة الفجر؟ يا بختك يا سي عبده

عندما جاءت برسكال لتأخذه في آخر اليوم بكت فردوس، وقالت وهو يسحب قدمه من الدار:

- اللقيا نصيب يا سي عبده

هم بالحديث فهجمت جيوش الكلام كلها، وهجمت الدموع فاحتبس صوته.

حتى عندما استقر في دار برسكال لم يفارق الرجل المهيب خياله، وبعد ليلتين ضرب بكفه المرتعشة على جبهته وقال:

- إنه هو، بالتأكيد هو، فردوس امرأة صالحة، وما قالت هو الحق

وظل يؤكد لنفسه:

- نعم هو، هو

سألته برسكل:

- من يا أبي؟

ولما حكى لها عن الحلم سألته بلهفة:

- هل أمسك بك

ارتجف قلبه وهو يجيب:

- أمسك بيدي

صمتت قليلا ثم قالت:

- إذن أمرك بيده يا أبى، ليس بيدك ولا بأيدينا

ثم أردفت:

- يقول لك لا تخف يا عبد العاطى، لن تمر على الصراط، ولن تحاسب، سآخذك بنفسي من يدك وأدخلك الجنة

لم يكذبها، فقط ظل ينظر إلى داخله ليرى ما هناك، ليته كان مصليا صواما، وأراد أن يتحسر على زيجاته الكثيرة فابتسم، إلا هذه يا رب، كانت أجمل هدية أهديتنى إياها، وبعد أن ضاعت كل ملامح الابتسامة رفع رأسه إلى برسكال وقال:

- أظن أن الوقت حان يا برسكال

سألته:

- وقت ماذا يا أبى؟

قلص ملامحه لتسمعه:

- فى الغد تذهبين إلى البنك لتلغى التوكيل الذى حررته لى، ولا تنسى أخواتك

فى نبراته ثقة لا حدود لها، وفى عينيه لمعة خوف حزينة، وأرادت أن تجادله فى طلبه لكنه كان مستغرقا فى أفكار بعيدة.

* * *

كل يوم كان العم عبد العاطى يكتشف فى رجل الحلم معان جديدة، ومع كل معنى تكبر الحسرة ويتضاعف الندم، وبعد أن عادت برسكال من المنصورة وقالت إنها فعلت كما أمر تمتم بكلمات غامضة، كان مستلقيا فوق السرير فأعطاها ظهره، لا يريد أن يواجهها، وظننت أنه نام، لكنه كان يحسم أمره، فلمن يفضى بسره إلا لشريكته، وقال بصوت خفيض وهو يعلم أنها تسمعه:

- طول عمرى وأنا مطارد يا ابنتى، عمى الأكبر يطاردنى، فى الأحلام وفى اليقظة، مرة أرانى لا زلت صبيا وأنا أفر منه، ومرة عجوزا، ومرات أرانى فى عنفوان شبابى، وكلما ظننت أنى صرت بمأمن من مطاردته أنظر ورائى وأراه، وأهب من النوم فكأنه لا يزال واقفا هناك، فى مكان ما

هز رأسه آسفا:

- لم أبح بالسر لأحد، حتى لأمى، لك فقط سأبوح بسرى

تذكر يوم أعطته أمه ظهرها لتعترف له بأسفها قبل أن تموت، وانهار باكيا وهو يقول:

- لا صلاة، ولا صوم، ولا زكاة، ولا حج، لا شىء من كل هذا يشفع لقاتل يا ابنتى، وأنا يا برسكال قتلت، وأخذ الندم عمرى كله، حتى وأنا آكل، وأنا أشرب، وأنا أغنى، وأنا اجامع زوجاتى، حتى وأنا نائم

سألته وهى ترتعد من الخوف:

- قتلت من؟

دفن وجهه فى كفيه كما فعلت أمه قديما ثم قال:

- قتلت عمى يا ابنتى

قامت لتحتضن رأسه وهى تقول:

- أكيد لم تكن تقصد، أكيد كنت مضطرا

أوقفتها يده المعترضة فتسمرت فى مكانها، كأنه رآها وهى قادمة فى اتجاهه، ومن موقعها فى منتصف الحجرة قالت:

- الآن وضح الطريق، أنت قلت إن الندم ليس كل شىء، وأنا أقول هو كل شىء

لم يسمع ما قالت، ولعله سمعه لكنه كان يواجه الخوف ويتساءل:

- الندم عقاب فظيع يا ابنتى، أفظع من الموت

لما سكنت حركته سألته إن كان يريد الذهاب إلى الحمام، لم يجبها، استلقت على سريرها المقابل لسريره واستعصى عليها النوم، بعد فترة سمعت زفرة أو زفرتين فنهضت وأضاءت المصباح، ووجدته مستلقيا على هيأة النائم، نادته فلم يجب، وقلبته ليستيقظ فلم يستجب، وبالكاد شعرت بنفسه يتردد، خرجت من الحجرة وأيقظت سليمان، ولما جاء الطبيب قال إنه يشك فى وجود نزيف فى المخ، ولهم أن يقرروا ما إذا كانوا سينقلونه إلى المستشفى أم يتركونه لقضاء الله.

قالت إنها ستنقله إلى المستشفى، فطالما فيه نفس لن تتركه مطروحا هكذا، واجتمعوا عليها يحاولون إثناءها، لكنها قاومتهم، فمن هم ليقرروا مصيره؟ هل كانوا هناك وهما يأخذان العربة فى قلب الليل ويتدحرجان فوق الطريق الوعرة؟ هل نام مرة فى وجود أحدهم تاركا أمره كله له؟ هل كانوا هناك وهو يبكى بين يديها ويفضى بسره وندمه؟ هى من كانت هناك، هى وهو ولا أحد غيرهما.

لما سقطت بينهم اجتمعوا عليها، وقال الطبيب إن ضغط دمها انخفض فأسرعوا إلى الصيدلية وجلبوا محاليل ليحقنوها فيها، وبعد قليل فتحت عينيها فرأتهم يحلقون فى وجهها، وقالت فردوس تهدئ روعها:

- دعينا فى باب واحد يا أم عبد العاطى، أصلبى حيلك وقومى لنرى ما الذى سنفعله

استدعوا الطبيب من جديد وسألوه، وأطرق الرجل إلى الأرض ثم قال:

- نسبة عودته إلى الوعى معدومة تقريبا

طوال غيابه لم تكف فردوس عن ترديد ما قاله لها فى تلك الليلة التى قضاها معها، وبإدراك جميل تجاوبت برسكال معها، وقالت على مسمع من الجميع إن أباها لم يكن يرى فى خياله إلا أَمَّه فردوس، كأنه لم يعرف زوجة غيرها، كانت ترى زوجة أبيها مندرجة فى قلب خطتها، وترى بناتها يتبعن خطاها حذو النعل بالنعل، فلماذا لا تسعدهن حتى تفعل لأبيها ما يستحقه؟، وفى النهاية هى لن تأمن إلا لعبد العاطى الصغير، أرسلته ليحرس قبر أبيها خشية العبث به، وساعتها سيقولون إنها اجترأت على موضع المقام فعاقبتها صاحبته، ولما تباطأت خطى أنفاس أبيها وبدا أنه يرحل أبلغت فردوس وبناتها أن أباها أوصى أن يرتدين عند تشييعه ملابس بيضاء، وأن يشيعوه بالزغاريد.

عقلها الجبار أخذ يعمل بكل طاقته، وراحت تخطو فى الدار وتصدر التكليفات، تحدثت إلى أخوالها من آل إبليس وإلى أبناء أعمامها، أخوة أبيها من أمه فى الريدانية، وأرسلت فى طلب يونس ومرعى ويحيى، واتصلوا بعبد المغنى فى السعودية، وظل معهم على اسكايب، ولما سأل إن كانوا قد أبلغوا رمضان قالت إنها لا تريد أن تعذب أباها بوجوده، فلقد حرمه على نفسه، وإذا أراد أحد أن يبلغه فليتحمل الوزر وحده.

لم يأت رمضان إلا بعد أن صارت الشمس عالية، وعندما هم بدخول الحجرة ليرى أباه وجد برسكال جالسة عند رأسه، اكتفى بإلقاء نظرة من عند الباب ورجع، وظل يتراجع حتى انتهى به

المجلس بين المجتمعين أمام الدار، كان يرزح تحت وطأة ما قاله أبوه عنه، وعادت الكلمات لترن فى سمعه، كأنه يسمعها من الفم الخالى من الحياة الذى رآه منذ لحظات، ولما خرجت برسكال لتعرف إلى أين ذهب ورأته جالسا هناك مالت على أذن مرعى، رجته أن يطلب منه الانصراف وإلا ستطرده على الملأ.

لا بد من الاعتراف بخسارته، إبنة إبليس حاربته بأبيها وكسبت الجولة، وها هو أبوه يرحل وما من فرصة لتدارك أى شيء، هكذا قال رمضان فى نفسه وهو يقلب وجهه فى السماء معاتبا: "أهذه الشيطانة تنتصر على أنا؟ أهذا جزاء المؤمنين؟" وقبل أن يصل إليه مرعى انصرف، ترك الناس دون أن يلقى عليهم التحية، كان يتوقى أى عائق يحرمه من أن يكون على رأس من يتلقون العزاء فى السرادق الذى سيقيمونه، وسقطت من عينيه دمعتان وهو يغادر، لكنه قال فى تحد: "هى مجرد جولة، وفى الغد سنرى يا ابنة الساحرة".

منذ أفاقت من سقوطها وهى هادئة، حتى وهى ترى كتفى رمضان المهزومين وهو يغادر لم يستخفها النصر، أدركت سر هدوئها، فأبوها فى الحقيقة لا يغادر، بل سيذهب إلى مكان قريب، وستكون إلى جواره حتى النهاية، سيكملان معا الطريق الذى بدآه فى أول الزمان، زمان عبد العاطى وبرسكال، ألم تكن تعرف ما يفكر فيه وهو صامت؟ ألم تحلم نفس أحلامه؟ وإذا كان الطبيب قد قال إنها مجرد ساعات فلا يجب الانشغال بما قال، فهو لا يعنيها بحديثه، بل يعنى الآخرين، ولحظة أن تغادر الروح الجسد ستكون قد أنجزت كل شيء، مكنت لولايته ورسخت مقامه فى القلوب، ونظرت إلى ملامحه وهو يواصل الانسحاب: "إهدأ بالا يا شيخ عبد العاطى، إهدأ بالا، نحن على ما بدأنا وسنظل معا".

معركتها ليس لها إلا واحد من حلين، إما تفرض على رمضان الصمت وإما القتال، وهى تتمنى ألا يكون الأخير، وراحت تبث فى جنبات طنبارة حلم أبيها الأخير، عن الرجل المهاب الذى أخذه من يده عبر البرزخ إلى براح الجنة، وعندما اصفرت الشمس سكن الجسد العجوز، بدا كحطام سفينة انحسر عنها الماء فانغرست فى رمال الشاطئ، بلا حول أو قوة، وجاءت الوفاة مع قدوم وفود الريدانية، حتى أحفاد عم أبيها الأكبر حضروا ومعهم نساؤهم، ووضعت برسكال رأسها فوق هيكله الضخم وطمأنته، وأطرقت فردوس وهى تبكى فى صمت، وندت عن إحدى بناتها صرخة:

- يا حبيبى يابا.

رفعت برسكال رأسها، ونظرت إليها نظرة أخرستها.

جاء موته مع ذهاب شمس الخميس، وتحيروا، أيدفنونه فى الليل أم ينتظرون إلى الغد؟، ورأت برسكال أن يدفنوه بعد صلاة الجمعة حتى يحوذ الحسنيين، الموت فى الخميس والدفن فى الجمعة، فبقاء الجثمان للغد سيمكنها من أن تكون الجنازة على الصورة التى تريد، وكان الجميع يعرفون أنها لن تهدأ إلا إذا جعلت من جنازة أبيها حدثا تتذكره طنبارة لأجيال، ولما قال عبد المغنى إنه لن يصل إلا فى الفجر انخرطت برسكال فى البكاء، فكل شىء يمضى فى الطريق الذى وضعت قدميها فوق بدايته.

فاجأتهم باستدعاء سيارة إسعاف لنقل جثمان أبيها إلى الدار التى عاش فيها مع فردوس أكثر من نصف عمره، دار عبد المغنى، وانطلقت السيارة تشيعها زغاريد فردوس وبناتها وزوجات الفرسان الثلاثة وبناتهن وهن يرفلن فى ملابس بيضاء، طوال الطريق كانوا يقرأون القرآن وطنبارة تقف على الجانبين، رجالها ونساؤها، يضعون أكفهم على أفواههم والدهشة تملؤهم، من فى تاريخ طنبارة حدث له ما يحدث للعم عبد العاطى؟ حتى صهره العمدة القديم لم

يحظ بعشر ما يحظى به، وعند منتصف الطريق رفعت برسكال يدها وقالت تخاطب أباها:

- أنت الآن ذاهب إلى حيث تحب يا العارف بالله، إلى حجر الزوجة التى لم تعدلها لديك زوجة، إلى كنف ابنك الذى ليس كمثله ابن، إهنأ بمقامك القصير هناك، ففى الغد ستكون فى المكان الذى روحك تهفوا إليه

لما أنزلوا الجثمان فى دار فردوس أداروه على القبلة، وكانت قد نثرت فوق السرير أعواد حبق البحر فعانق عبيره عبق البخور الجاوى، مصحوبين بهبات عنبر ورائحة تبغ قديمة، وعند الرأس جلس الأحفاد يقرأون القرآن، فيما برسكال تبث فى الجميع رؤاه التى لم تبثها من قبل، وبدأت بحلمه عن القبة التى رأى أنه ينام تحتها، والنور الساطع ورائحة المسك التى تملأ المكان، والحمام الأبيض الذى يرفرف بأجنحته ويدور حول الجبانة، يرفرف بأجنحته البيضاء ويحمل فى مناقيره أعواد نبات الجنة، ثم ألقى بالأعواد الطيبة حول المكان فاخضرت لتوها، وتكاثرت، وحط فوق القبة بعد اكتمال دورته السابعة، وكيف أنه سمع صوتا يقول: "فلتذهب فى سلام".

أوشك صبح الجمعة على الطلوع ووصل عبد المغنى، رأى الناس يتحلقون حول داره وينامون تحت الجدران، آخر شىء كان يتوقعه هو أن يخرج جثمان أبيه من داره، ودخل الدار فزغردت برسكال لقدومه، وانكب عبد المغنى على يدها يقبلها، كان ممتنا بقوة، ثم انفرد بالجثمان المهيب، وشم رائحة العنبر تنبعث من ملابسه، وكشف وجهه فرأى شبح ابتسامة تطوف بملامحه، وخيل إليه أن يرى أجنحة ترفرف فى المكان، لم يعرف إن كانت أطيارا أم هى دندنات التلاوة، ووجد أمه سيدة الجمع فعاد ليحمد لبرسكال

صنيعها، ولا يمل القول لكل من يراه إن اخته الكبرى تعرف فى الأصول أكثرمما يعرف الرجال.

مكبرات الصوت جابت أنحاء المركزمعلنة أن جنازة العارف بالله سيدى عبد العاطى ملش ستكون عقب صلاة الجمعة، واحتشد الكثيرون من أنحاء المركز، فجنازة كهذه ليست كأى جنازة، وقبل أن يؤذن لصلاة الجمعة سمع المجتمعون زغاريد تشق الفضاء، ورأوا الجثمان يخرج من دار فردوس محمولا على أكتاف الأبناء والأحفاد، ونساء آل عبد العاطى تتقدمهن فردوس وبرسكال يتبعن الجموع الغفيرة بملابسهن البيضاء فبدين كنوارس تهم بالطيران، ورأوا النعش كطائر ضخم يحلق فوق الرؤوس، وتعالت الصيحات. لما طلبوا من عبد العاطى الصغير إبطاء الخطو قال إنه لا يستطيع، فالنعش يجرهم ويكاد لا يستقر فوق الأكتاف، وهم يتشبثون به حتى لا يفلت من قبضاتهم، وفى غمرة الاندفاع سقط خلق كثير، وقال البعض إن الرجل الذى ظلموه كثيرا قرر أن يرد عليهم ويطير، وأحاط رجال الريدانية بالموكب ليمنعوا اقتراب المتطفلين.

عند أعتاب المسجد حط الطائر الغريب، وتهادى بعد عبور الباب، وسمع المشيعون قرآنا يتلى:

- ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم

من خارج المسجد انطلقت الزغاريد حاملة أفراحا لم يعرفها الناس من قبل فى جنازة.

عبر مكبرات الصوت تحدث الخطيب عن المشهد الذى عاينه الجميع، واستعصى على رمضان فهم ما يرى، كان محاطا بشباب الجمعية الشرعية، بجلابيبهم القصيرة وسراويلهم، ولحاهم التى تقطر عرقا، وحذرهم أحدهم:

- الساحرة تهزمنا

كانوا قد عزموا على تلقف النعش عقب الصلاة ليفسدوا على برسكال خطتها، لكن النساء كن قد اعتلين الأسطح ورحن يجاوبن الزغاريد بمثلها، وتحول المشهد إلى فرح عظيم، وقال شيخ المسجد:

- الأنبياء كانوا رعاة أغنام وحدادين ونساجين وملاحين وحمالين، وكذلك الأولياء

وصرخت برسكال خارج المسجد:

- هنيئا لمن تحصن بالعفة، هنيئا للقابض على اللجام، الضارب بالكرباج

ظلت تهدر بهذا إلى أن انتهت الخطبة، وضاق المسجد بالمصلين فافترشوا البراح الذى يطل عليه والشوارع المحيطة، ولما قضيت الصلاة حمل النعش إلى مقدمة الصفوف، وتقدم عبد المغنى ليؤم الجميع فى صلاة الجنازة، وطال صمته بعد التكبيرة الثالثة، وكاد سليمان يبتسم، تذكر كلمات زوجته عندما قالت ذات يوم وهو يحذرها من رمضان إنها بضاعة واحدة، ولها فيها مثل ما له، فالآن هى تملك فيها أكثر مما يملكه.

عقب صلاة الجنازة عادت الزغاريد، وصنع المشيعون ممرا للنعش لينطلق، ورمح الناس فى الشوارع، لم يستطع أحد من جماعة رمضان الاقتراب، فطوق آل إبليس حول النعش كان محكما، وهدرت التكبيرات، فلقد طار النعش من جديد، وطاف بالجبانة سبعة أشواط ثم حط عند شفير القبر، وانطلقت الأصوات تحذر من وطء نبات الجنة، حبق البحر الذى يشارك الجميع الترحيب بالقادم العزيز ويطلق عبيره فى هجير الظهيرة القاسية.

عندما صعر واحد من أتباع رمضان خده وقام من خلف الجموع يخطب فى المشيعين علا صوت برسكال:

- أسكتوه

في لمح البصر انتزعه آل أبليس ومضوا به بعيدا، وسمع المشيعون عشرات المقرئين يتلون سورة يس، وبعد أن انتهوا من قراءتها وقف أحدهم يلقن العم عبد العاطى حجته:

- عبد العاطى يا ابن أمة الله، وضعناك فى القبر وأغلقنا عليك بابه، تركناك بين يدى رحمته، ليغسلك بالثلج والماء والبرد، وينقيك من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، فإذا جاءك الملكان وسألاك: من ربك وما كتابك ومن نبيك، فقل لهما إن الله ربى، والقرآن كتابى، ومحمدا صلى الله عليه وسلم نبيى ورسولى

ورفع أحدهم يده وقال بصوت طغى فوق كل الأصوات:

- أدعوا للعفيف بالخير فهو الآن يحاسب، أدعوا أن يوسع الله فى قبره مد بصره، ويبدله دارا خيرا من داره، وزوجا خيرا من زوجه، وولدا خيرا من ولده

أقسم الكثيرون أن نسائم باردة مرت بوجوههم فى تلك اللحظات، وأطرق رمضان، وغير بعيد منه قال أحدهم:

- المرأة جعلت من أبيها أسطورة

انطلقت الجموع إلى السرادق المقام فوق ما تبقى من الشونة القديمة، وهناك رأوا أرتالا من المصورين ينقلون عبر الكاميرات مشاهد العزاء إلى شاشات كبيرة نصبت فى الخارج.

لم يغادر آل إبليس إلى السرادق، ظلوا إلى جوار برسكال التى لزمت القبر لتؤنس وحدة أبيها، وعند الغروب نظر المارون فإذا بالجبانة خالية من الناس إلا هى، تجلس عند رأس أبيها وعيناها الزرقاوان الضيقتان تضجان بالدهشة، كانت تسمع أباها وهو يقدم حجته، ويستخفها الطرب مما يقول فتغرورق عيناها: "ألله الله يا أبى، ألا ما أبلغ حجتك".

لما دخل الليل رأى المارون شموعا مضاءة فوق الربوة، برسكال هناك تضىء الشموع وتتحدث إلى أبيها، ويأتيها من بعيد صدى

قرآن آت من السرادق، وكان رمضان قد استغل غيابها فوقف يشارك فى تلقى العزاء، وقرب نهاية المأتم أخرج رزمة من النقود محاولا دسها فى جيب صديرية يونس وهو يهمس:

- مساهمتى فى المأتم

لكن يونس ردها إليه، قال إن برسكال تكفلت بكل شيء، وانفض العزاء فانصرف آل عبد العاطى إلى دار فردوس، وانصرف رمضان مع جماعته، كل هذا وبرسكال جالسة عند قبر أبيها، كلما ذابت شمعة تضيء ثلاثا، وتحكى له عما حدث طوال ليلة الأمس واليوم، حتى صارت الربوة بقعة ضوء كبيرة فى ليل الجبانة البهيم.

سأل أحد الأتباع الشيخ رمضان عما ينتوى فقال فى إصرار مفعم بالندم:

- إنه ابتلاء

وبعد قليل من الصمت أردف:

- كما ابتلى رسولنا الكريم ومن قبله أبو الأنبياء إبراهيم أنا ابتليت بأهلى، وسأكون مثلهما أول من يهدم بمعوله أصنامهم

ثم حد عينيه مؤكدا:

- الصنم الذى تقيمه الساحرة مجرد أحجار وأخشاب، والأحجار لا تبنى إلا لتهدم، أما الأخشاب فيلتهمها الحريق

اجتماع آل عبد العاطى فى دار فردوس كان لا يزال قائما، وكانوا يشعرون بالأسف لأن رمضان فضل أن ينصرف مع جماعته بدلا من التزام الأسرة، وعندما أوشك الاجتماع على الانفضاض ضبط عبد المغنى نبراته حتى لا يثير أحدا ثم قال:

- فعلنا لأبينا كل ما يريد، وهو الآن بين يدى ربه

اشتمت الخضرة ما يريد فقالت بصوت أوهنه البكاء:

- كرامات أبيك لا تعد يا حاج عبد المغنى، ليتك سمعته وهو يتحدث إلى الله ويحلم به

بعد أن فرضت عليه الصمت أردفت:

- رأيت بعينيك كيف طار نعشه

انخرطت الناعسة فى البكاء:

- ليس مثل أبى أحد، إنه ولى

وقالت الجازية:

- أنت رأيت قبره فوق قمة الربوة، ورأيت حبق البحر ينبت حوله، الأرض التى لا تنبت إلا الحلفاء ولا تنمو فيها إلا الأشواك أنبتت حبقا، كأن ستنا المحارزة هجرت ضريحها ليدفن هناك

لكن فردوس مطت شفتيها، فبرغم كل ما فعلته برسكال تشعر فى داخلها بغصة، ولم تستطع أن تسامحها، فعندما أخذت أباها من دارها وضمته إليها شعرت بإهانة كبيرة، ولا تزال آثارها تنخر فى داخلها، وهى إن لم تشأ أن تظهر هذا على الملأ إلا أن ما فى القلب سيظل فى القلب، لن يقدر أحد حتى بناتها على إخراجه.

ظلت برسكال تضىء لأبيها الشموع حتى انتصف الليل، ولما تراقصت ألسنة النار أدركت أنا أباها يأذن لها فى الانصراف، وانسحبت إلى دار عبد المغنى، كانوا على وشك الانصراف فجلست بينهم ساعة، وقبل أن تهم بالعودة إلى دارها سمعوا لغطا فى الشارع، وخرجوا، رأوا القرية كلها تجرى فى اتجاه الجبانة، وعند مشارفها رأوا الربوة مضاءة، وفوقها رجال يرتدون الأكفان ويلتفون حول نار صغيرة، وهم البعض بالاقتراب فحذرهم البعض الآخر:

- إنه حلمه القديم، هؤلاء هم أهل الجنة جاءوا ليؤنسوا وحدته

خرت برسكال ساجدة، فلقد صرفها أبوها عندما شعر بقرب مجىء أصدقائه، وجاء رمضان مع جماعته، لكن طنبارة كلها كانت هناك، لم يستطع أحد منهم اختراق الجمع للصعود إلى الربوة، تصدى لهم الناس، ووقعت مشاجرة سقط البعض فيها مصابا، من بينهم شاب كانت إصابته بالغة، طعنه أحد اتباع رمضان بخنجر، كل

هذا لم يصرف أهل الجنة عن مواصلة الالتفاف حول النار بأكفانهم، وأقسم أكثر من واحد أنه رأى العم عبد العاطى بهيأته الضخمة وعمامته العجيبة مرتديا كفنه ويقوم بين ضيوفه، ولا يكف عن رفع ذراعيه المتحررين بالتحية.

تسلل الصبح من وراء الأفق، نظر الناس فإذا بالربوة خالية والشموع تبعث بآخر ومضاتها، وأفلتت برسكال من بين الجموع وصعدت إلى هناك، وتبعها كثيرون، لم يجدوا أى أثر لرجال الجنة، ولا للنار التى شاهدوا بأعينهم ألسنتها تتراقص، وانطلقت صيحات تبشر طنبارة بالولى الجديد، الذى سيحرس جبانتها ويمنحها الستر الذى طال انتظاره.

* * *

بردائها الأبيض وشالها الذى تطيره النسمات وقفت الحاجة برسكال تباشرالعمال وهم يحفرون لوضع أساسات الجدران، ويتفادون فى مرواحهم ومجيئهم دهس نبات الجنة، عود الشمس لم يكن قد اشتد بعد، وقبل أن يتباحث المعترضون حول ما يجب فعله شرع البناءون فى رص الطوب، وعندما جاء الظهر كانوا قد أقاموا ثلث الارتفاع المطلوب، وحملت النساء صوانى الطعام فاجتمع البناءون والعمال لينالوا نصيبهم منه.

كانت تسابق الزمن لتكمل البناء قبل وصول الشرطة، مقدرة أن رمضان لن يقف مكتوف الأيدى أمام إصرارها، لكن البنائين رفضوا المضى فى البناء، قالوا إن الجدران لا تزال طرية، وإذا حملوها بأكثر مما يجب ستتنهار، ولما أصرت استمروا فى وضع الطوب ولكن فى حذر، لم يكن من بينهم بناء واحد من طنبارة، فلقد جلبهم أبناء أخوالها من نواحيهم البعيدة، ووقفوا بأجسادهم الطويلة وهيئاتهم الغريبة يحرسون المكان تحت مظلة بدائية.

أخبار ما يجرى فى أروقة البوليس كانت تصلها أولا بأول، حتى المخبر مرتضى جاء فى جوف الليل ليبلغها بأمر الشكوى التى قدمها أحدهم فى أمن الدولة، وكان الشاب المطعون بالخنجر قد نقل إلى مستشفى الطوارئ فى المنصورة، وتعالت الأصوات بحثا عمن يتبرعون له بالدم، وهجم الناس على دار رمضان فلم يستطيعوا أن يقتحموها، منعتهم الأسوار العالية والأبواب الحديدية الضخمة، لكنه كان قد فر هو أتباعه.

لم يعد فوق الربوة سوى رجال الريدانية، وعندما انتصف الليل أحالت الكشافات ليل الجبانة إلى قطعة من النهار، فلقد قررت برسكال أن يستمروا فى البناء حتى الارتفاع المطلوب، من أين جاءوا بالباب الذى ثبتوه بعد أكتمال البناء؟ ومن أين جاءوا بالنوافذ؟

وقبل أن ينبلج الصبح وضعوا عروق الخشب فوق الجدران، ثم فرشوها بالسدة وغطوها بالقش والتراب، واستيقظت طنبارة على البناء لا تنقصه سوى القبة.

أخيرا جاءت الشرطة، احتلت عربات الأمن المركزى مداخل القرية وانبث المخبرون فى كل مكان، ونزل بعضهم عند سور الجبانة وراحوا يدقون الأرض بأقدامهم ويطلقون صيحات عالية، وتقدم المخبر مرتضى يسأل عنها، ولما برزت إليه طلب أن تمضى معه فى هدوء.

لما استقرت فى صندوق السيارة راجعت مع مرتضى معلوماتها عن الرجل الذى ستقابله، ضابط برتبة رائد من فارسكور، التحق بأمن الدولة وهو برتبة نقيب، أبوه تاجر كبير وأمه تنتمى لعائلة قديمة، متزوج من ابنة خاله وله منها ولدان، الأكبر فى الإعدادية والأصغر فى الإبتدائية ومصاب بالصرع، سألته:

- أهناك ما يجب أن أعرفه غير هذا؟

ابتسم وهو يطمئنها:

- دم الشاب الذى أصيب صب فى مصلحتك

أجلسوها فى حجرة مغلقة فظلت تتحدث إلى الصمت ساعتين، وعندما دخلوا ليأخذوها لفت مسبحتها حول أصابعها وأحكمت شالها فوق رأسها وتبعتهم، ورآها الضابط فأصابته الدهشة، قال فى توقير:

- إجلسى يا حاجة

جلست قبالته والمسبحة تدور بين أصابعها، سألها:

- أريد أن أسمع الحكاية، من أولها إلى آخرها

فى يده مسبحة يعبث بحباتها فسألته:

- يسر؟

تحير:

- ماذا؟

قالت:
- المسبحة التى تضىء بين يديك
زالت حيرته فابتسم، لكنه سرعان ما تجهم فأعاد سؤالها، أجابته والحزن يرتسم فوق ملامحها:
- أعرف أول الحكاية، أما آخرها فالله وحده يعلم
وأشار بيده يتعجلها فصمتت قليلا حتى دمعت عيناها، ثم انطلقت تحكي بصوت مرتعش:
- أبى طوال عمره كان يحلم، وما من مرة حلم بشيء إلا وتحقق، حتى جلوسى فى مكتب حضرتك رآه فى أحلامه، رأى أننى أجلس أمام حاكم مهيب وأبكى، وذات يوم حلم بأنه مدفون فوق ربوة فى جبانة قديمة، فأقمت قبره الذى دفن فيه، أقمته على عينه، ورآه قبل رحيله
صمتت برهة ثم واصلت:
- أبى تبرأ من رمضان، ودعى عليه لأنه عاق، وتوترت العلاقة بينهما حتى أن رمضان منعه من ارتياد المسجد
دمعت عيناها من جديد:
- لا أريد منه شيئا، فقط يتركنى أوقر أبى
رفعت وجهها ونظرت إليه:
- أهذا كثير يا سيدى؟
ثم رأت أن تهاجم فقالت:
- واحد من أبنائى كان مريضا بالصرع
طافت سحابة بوجه الضابط:
- ذهبت به إلى كل الأطباء ولكن دون جدوى، وهدانى عقلى لأن أصنع له حجابا، صنعته بنفسى، كما كانت أمى تفعل لأحبائها، وشفى الولد، ليس بفضل الحجاب ولكن بفضل الله
وبدا أن الضابط قد تسرب إلى عقله شيء فأردفت:

- حاول رمضان نزع الحجاب عن طوق ابنى فمنعته، وقامت الدنيا ولم تقعد، صرت فى عرفه ساحرة ومشركة، وأغرى بى - تلاميذه فحاولوا قتلى، وفى فجر الأمس جمع تلاميذه وهجم على الجبانة ليهدموا قبر أبى، وتصدى له الناس وسقطت الدماء

أسهبت فى الحديث والضابط يتوه لحظات ويعود إليها لحظات، وفجأة التمعت عيناه فضغط على زر الجرس وطلب من الجندى الذى يقف عند الباب ألا يدخل عليهما أحد، ثم سألها:

- ما الذى وضعته فى حجاب ولدك يا حاجة؟

مسحت دموعها وابتسمت:

- وماذا سأضع يا سيدى؟ أسماء الله الحسنى وسورة الإخلاص والمعوذتين، وأمل أم فى شفاء ولدها، وثقة فى الله لا تنتهى

تمتم:

- ونعم بالله

قام من أمام المكتب وجلس أمامها:

- من يدرى؟ لعل الله ساقك إلى لأسباب هو وحده يعلمها

لما مالت بجزعها نحوه لتسمع رفع سبابته محذرا:

- ما سأقوله لا يخرج من هذه الحجرة

ابتسمت فى استكانة:

- الحاجة برسكال بئر يا سيدى، ما يدخل صدرها يموت هناك

حكى لها عن مرض ابنه، وعن الأطباء الذين عالجوه، والدواء الذى يرسل فى طلبه من أمريكا، ثم اضطربت قسماته وهو يطلب أن تصنع له حجابا كالذى صنعته لابنها، فربما يكتب له الشفاء على يديها، ووضعت سبابتها فوق عينيها.

قام من أمامها واتجه إلى مكتبه، وعاد لصرامته وهو يقول:

- أنت إذن لا تخططين لعمل مقام لأبيك كما يقولون؟

أجابته:

- مقام أبى فى قلوب الناس يا سيدى

أقلقته مراوغتها فعاد ليسأل:

- أتخططين لهذا؟

ابتسمت فى أسى:

- من أكون أنا لأخطط لشىء ألله وحده هو من يقيمه

وبعد قليل من الصمت قطعت عليه حيرته:

- مقامات الأولياء قدر من الله يا سيدى

فى طريق العودة إلى الدار صعدت إلى الربوة وجلست عند قبر أبيها ساعة، وحكت له كل شىء، وقبل انصرافها أضاءت الشموع على قبره والنهار ساطع.

انسحب الجنود وبعدها بساعة كان كل شىء معدا، البناءون صعدوا إلى الربوة وبدأو فى بناء أول سطر فى القبة، وعندما طلع الصبح وحمى وطيس الشمس وضعوا السطر الثانى، وقبل أن تغرب الشمس وضعوا الثالث، وسهر رجال الريدانية حتى الصباح يحرسون المكان، وفى اليوم الثانى وضعوا ثلاثة أسطر جديدة فظهرت بوادر القبة، وفى اليوم الثالث وضعوا أربعة أسطر، إلى أن كان اليوم السادس حيث التقت الأسطر عند صرة القبة واكتمل البناء، صار فوق الربوة مقام له قبة، وبعد أن اكتمل أخذوا برسكال إلى أمن الدولة من جديد.

عبرت إلى مكتب الضابط مباشرة فاستقبلها بترحاب، وعندما عاتبها فى أمر بناء القبة قالت:

- هل قال أحد إننى كنت هناك يا سيدى، أناس من نواحى الشرقية حلم كبيرهم أنه ذاهب إلى مقام أحد الأولياء، ورأى فى الحلم باب المقام مكتوبا عليه: "مقام العارف بالله سيدى عبد العاطى ملش"، ولما سألوا اهتدوا إلى المكان، ورأى كبيرهم أن المقام بلا قبة فعزموا على إقامتها، وأقاموها

ضحك الضابط حتى كاد يسقط على الأرض، ثم قال وهو يجاهد لاسترداد أنفاسه:

- قبة أقامها المحبون، يخرب بيت شيطانك، الآن أعرف لماذا يطلقون على أقاربك آل إبليس

جارته في الضحك وأخرجت الحجاب من جيب عباءتها فتلقفه منها، وقالت لتغير الموضوع:

- أنتم لا تعرفون نبات الرجلة، لهذا أحضرت ربطات منه

وأخرجتها ووضعتها أمامه ثم واصلت حديثها:

- ستنقع الرجلة في ماء ينزل عليه الندى ثلاثة أيام بلياليها، وفي صباح اليوم الرابع يستحم البك الصغير بالمنقوع، ثم يوضع الحجاب في ملابسه

راح الضابط يكتب التعليمات في ورقة:

- عندما يحين موعد حمومه تخلعون الحجاب ثم تضعوه من جديد

وسألها:

- والدواء؟

أجابته بحسم:

- لا تجرب الله يا سيدى، خذ بالأسباب وعليه الباقى

عادت لتجلس على المقعد المقابل:

- سبعة أصباح وسترى

لما لم يعرف ما الذى يتوجب عليه قوله أردفت:

- عندما يمن الله عليه بالشفاء لا تنس خدامتك الحاجة بر سكال

* * *

قبل أن تحل ذكرى الأربعين انفجر الوضع، جلست الحاجة فردوس بين بناتها تشنشن بشالها الأسود، وكلما اجتمع عليها نفر من أهل الشارع تقول:

- سرقتنا بنت إبليس، دخلت علينا بالحنجل والمنجل وأخذت الرجل وسرقت ماله

غمغمت إحدى الجارات:

- أمعقول هذا، المرحوم كان أوعى من الثعبان

سمعتها الحاجة فردوس فأمسكت بطرفى طرحتها وقالت:

- ماذا يفعل الثعبان مع الحية ذات الأجراس

كانت قد ذهبت إلى البنك لتقبض فائدة وديعتها ولتسأل عن حساب زوجها الراحل، قدمت شهادة الوفاة فاطلع الموظف عليها واستخرج البيانات على الكمبيوتر، قال إن الحساب به الخمسمائة ألف التى وضعها منذ أعوام، وسقطت مغشيا عليها.

حملها تكتك إلى محل تجارة يونس وأخويه، وأنهت إليهما ما قالوه فى البنك، وتحركوا فى اتجاه رمضان فلم يجدوه، كان لا يزال مختبئا، وتقدموا ببلاغ إلى الشرطة يتهمون برسكال بسرقة نقود أبيها، مليون جنيه بالتمام والكمال، واستدعتها الشرطة فقلبت الحاجة برسكال الطاولة على رؤوس أخوتها، وعرضت على النيابة فأخلت سبيلها لحين ورود التحريات، وطلبت موظفى البنك لسؤالهم.

فى غروب شمس كل يوم كانت الحاجة فردوس تجلس فى الشرفة الصغيرة لشقتها الصغيرة وتكشف رأسها وتدعوا على الجميع:

- برسكال بنت غايته، ورمضان ابن نعيمة، ويونس ومرعى ويحيى أبناء عزيزة

ولما لم يعرها أحد التفاتا صارت تضع نفسها فى تكتك وتمر أمام المصنع والمعرض، ثم تخرج رأسها من التكتك وتكشف شعرها

وتدعو، يسمعها عمال مصنع الأعلاف وزبائنه، ويسمعها يونس وأخواه وعمالهم، وعبثا حاول عبد المغني أن يثني أمه عن عزمها لكنها لم تسمع له، وحتى عندما عرض أن يعوضها ويعوض أخواته رفضت، فما ذنبه ليدفع لهن من كده وغربته، ولما أرادت أن تكرر الأمر أمام دار سليمان خرجت إليها الحاجة برسكال ووقفت تسمع دعاءها وترد عليها:

- على الظالم والمفترى

كعادة أهل طنبارة جمعوهم فى جلسة عرفية فى مقر الحزب الوطنى فى السنبلاوين، وغاب رمضان فانفض المجلس لإصرار الحاجة برسكال على حضوره، وكتب قضاة العرف محضرا انتهوا فيه إلى أن أطراف الخصومة لم يكتمل حضورهم، وخشى المأمور أن يتهم بالتقصير فهاتف مكتب أمن الدولة ليكلف رمضان بحضور جلسة التحقيق التى حددوا لها موعدا بعد أسبوعين.

فردوس لم تعرف كيف تدير الأزمة، فبناتها بلا حول أو قوة، وعبد المغنى قال عبر اسكايب إن كل محاولاتهم للبحث عن المبلغ المفقود ستبوء بالفشل، فأبوه قبضه بنفسه، وهو الذى ذهب به إلى السنبلاوين وحده، ولما بكت من أجل بناتها قال أن ما يخصها هو كفيل بتعويضها إياه، اما حقه وحق أخواته فسيكون بينه وبين الحاجة برسكال بشأنه حديث.

فى تحقيقات النيابة قال مدير البنك إن الرجل لم يودع لديهم مليما فوق ما أودعه قبل سنوات من الواقعة المزعومة، واستدعت النيابة الحاجة برسكال ففجرت فى وجوههم المفاجأة، وحكت عما كان بين أبيها وبينها، وقدمت عقدا يقر فيه أبوها بملكيتها لنصف الأرض التى أقام عليها أخوتها مصنعهم ومعرضهم، كما قدمت صورة من عقد البيع الذى باع بموجبه ابوها دارها فى الريدانية، وكان أخوالها وابناؤهم قد حصلوا عليها من المشترين، وقالت إن اباها أعطاها

نصيبها وقدره مليون جنيه وتبرع لأخوتها بنصيبه، وإنها وضعت الثمن فى حسابها في البنك فتبين أنه سابق على انتقال أبيها إلى دارها، وبقيت القضية فى انتظار التحريات.

مرت ذكرى الأربعين دون احتفال، وكان الشاب الجريح قد أفاق من غيبوبته فسألته النيابة، واتهم رمضان وجماعته بالشروع في قتله، وصدر الأمر بضبطهم، ولما جاء موعد الجلسة العرفية غاب رمضان من جديد، ولم يلب النداء إلا بعد تكليفه من أمن الدولة، تركوه يحضر الجلسة العرفية وأرجأوا عرضه على النيابة وانعقدت الجلسة العرفية.

بعد أن قرأوا الفاتحة طلب رئيس الجلسة عرض المشكلة، كانت الحاجة برسكال قد مرت بهم فى دورهم وشرحت لهم مظلمتها، لهذا أوجزت فى عرض المشكلة، وعندما ركز يونس والشيخ رمضان والحاجة فردوس على اتهامها بسرقة مال أبيها قال رئيس اللجنة إن هذا مما تختص به النيابة، وهم تقدموا ببلاغ ومآله إلى ما ينتهى إليه التحقيق، وتناثرت كلماتهم عن أمها فقبحوا سيرتها، وغضب القضاة.

أوغل الليل ولم يصل إلى طنبارة خبر، حتى الذين جلسوا على مرآة كوبرى الشوبك فى الانتظار طال بهم الوقت، وعندما انتصف الليل ولم يأت أحد من هناك ليبلغهم بما انتهى إليه التحقيق عادوا إلى دورهم يحملون ظمأهم فى الصدور.

فضل سليمان البقاء بعيدا حتى لا يواجه أمه وأخواته، وكذلك فعل عبد العاطى الصغير الذى انتمنته أمه على المقام ومعه أبناء أخوالها، كانوا يسمرون حول نار صغيرة وضعوا فيها براد شاى كبير، ودارت الجوزة بين آل إبليس، ولما لعب الحشيش بعقولهم انطرحوا هنا وهناك، وبقى عبد العاطى يغالب النوم.

ناموا لأكثر من ساعة، واستيقظ أحدهم على سكون مريب، كان الظلام يلف الجبانة كلها، لكز جاره برفق فاستيقظ، والثانى لكز الثالث والثالث لكز الرابع، واسيقظوا كلهم، لم يميزوا عبد العاطى من بينهم، كان قد دخل إلى المقام وأغلق الباب من دونه، وظل واقفا يرقب المكان من النافذة حتى غلبه النوم، ولما أسلموا آذانهم للصمت سمعوا خشخشة أقدام تدوس غير بعيد، وسمعوا هسهسات تقترب في حذر.

تسللوا الى داخل المقام ليتخذوا من الجدران سائرا ويتصدوا للمعتدين، وعثرت أقدامهم بعبد العاطى فهب من نومه مذعورا، من فرط الظلام هيئ لهم أن الجبانة مليئة بالمتسللين، وأنهم خلف كل قبر، وتسلل عبد العاطى ليوقظ القرية، وما أن وطأت قدماه أرض الشارع الكبير حتى أطلق عقيرته بالغوث، كان يعدو بأقصى سرعته وصراخه يقتلع الناس من نومهم، وعندما وصل إلى بطن القرية كان الناس قد بدأوا في الظهور، واتجهوا صوب الجبانة، وتنبه أحدهم الى أن قطع الكهرباء ربما يكون بفعل فاعل فرفع مفتاح الكهرباء فى المحول المجاور فاضاءت الجبانة، صارت كالظهر فى ظلام الليل، ورأوامجموعات من الناس تجرى وفي أيديهم مشاعل تنبعث من رؤوسها النار ويقذفون بها في اتجاه المقام، ومن نافذة المقام رأوا النار تخرج من فوهات بنادق صغيرة، وتمكن أحد المدافعين من اعتلاء سطح المقام وراح يطلق فى كل اتجاه.

القرية كلها جاءت، وصعد فوق المقام مدافع آخر وراح يطلق بندقيته، ورأى الناس أشخاصا ترفرف عماماتهم كأنهم يطيرون فوق القبة ويطلقون النار فى كل اتجاه، ولما هدأت الأمور تجاسر الناس على الاقتراب والصعود فى اتجاه الربوة، وعندما وصلوا لم يجدوا إلا عبد العاطى الصغير يغط فى النوم داخل المقام.

لا أثر لشيء، تماما كالمرة السابقة، وأمطروا عبد العاطى بالأسئلة، روانح البارود كانت تملأ المكان، وكرات اللهب تنفث دخانها وتزاحم رائحة البارود، وتطوع بعضهم فذهب يجوب طرقات الجبانة، وعثروا على صفيحة كيروسين وكرات كثيرة معدة للاعتداء، كما عثروا على دماء فوق أحد القبور، ورفع أحدهم يديه فى اتجاه المقام:

- يا قابض على اللجام بركاتك، يا صاحب الكرباج بركاتك

رجال الريدانية فروا فى أعقاب تراجع المهاجمين، هربوا من خلال دروب درسوها طوال أيام وجودهم فى الجبانة، وعندما عاد آل عبد العاطى من السنبلاوين مع الصباح عرفوا بالمعجزة، وأن جنود الله كان يطيرون حول القبة ويمطرون المهاجمين بطلقات كانت تخرج من فوهات أسلحتهم فى صورة آلاف الشرارات المندفعة، ومن لم يستيقظ على صياح ذلك المجهول الذى أيقظ القرية كلها ذهب إلى الجبانة ليرى آثار معجزة المقام الذى يتعهده الله بالحفظ وتطير حول قبته الملائكة، بسيوفها وطبنجاتها وبنادقها، وحتى بأدلاء الماء التى تصب على النيران، إذ عثروا على مواضع نار أريق فوقها الماء.

جلست الحاجة برسكال فى ملابسها البيضاء وشالها الحريرى فى الدار، ولما عرفت بفشل الهجوم على مقام أبيها صلت ركعتى شكر، فما تحقق على مدار الليلة من انتصارات كان يفوق أحلامها، استطاعت بسحر بيانها وقوة حجتها أن تجعل لجنة التحقيق العرفية تبحث فى كل شيء، حتى فى ثمن الأرض التى أقيم فوقها المصنع والمعرض، وكانت قد جمعت صور عقود بيع لأراض مماثلة مجاورة للأرض المبيعة لأخوتها، ومن فارق الأثمان عرف الجميع أن الأبناء ضغطوا على أبيهم حال حياته واشتروا منه الأرض بنصف ثمنها، وأن رمضان لم يعط أباه إلا شيئا يسيرا من ثمن الدار

التى ورثها عن أمه، ولم يعطه شيئا تقريبا من ميراثه فى الأرض، وانفضت الجلسة بعد أن كتبت تقريرا بعدم أحقية الشاكين فى شكواهم.

دخل الشتاء ولم تنعقد الجلسة الجديدة، وبعد أن أورت تحريات المباحث أن الحاجة برسكال لم تحصل من أبيها إلا على ثمن حقها فى الأرض المبيعة لأخوتها حررت النيابة مذكرة بحفظ القضية، ولما أنهى إليها سكرتير النيابة الخبر سمع الناس زغاريد تنطلق فى سماء القرية، وفوجئوا بأبناء الحاجة برسكال يطوفون الشوارع ويصبون للناس شربات الورد.

فى صباح اليوم التالى لحفظ القضية حملت الحاجة برسكال مائتين وخمسين سحبتها من البنك وهى تلغى توكيل أبيها وقصدت إلى دار عبد المغنى الذى وقف ليمنع أمه من طردها، وقبل أن تجلس قالت لأخواتها:

- فى هذا الكيس مائتان وخمسون ألفا هى نصيبكن، كما أوصانى أبى، أما حساب بنك السنبلاوين فهو بيننا جميعا

وهمت الجازية بالهجوم على الكيس لأخذه فالجمتها نظرة من أمها، ولما تهيأت الحاجة برسكال للمغادرة قال عبد المغنى:

- لكن هذا المبلغ أكثر من حق البنات ولا يكفى لحق أمى معهن، ناهيك عن حقى

وقفت عند باب الصالة وقالت:

- هذه وصية أبى، ولما سألته عن حق امه فردوس وحقك قال إنهما سيعرفان كيف سيحصلان عليه

انكبت البنات على الكيس وأخرجن النقود، ورحن يتفرجن على الرزم التى لم يرين مثلها من قبل، وقبل أن تغادر اتجهت الحاجة برسكال إلى حماتها وقبلت رأسها، لكن المرأة ظلت على حالها غاضبة، قالت:

- لن أسامحك، كان بإمكانك أن تعطى أخواتك النقود بعد رحيل أبيك وتجنبينا هذه المسخرة

أجابتها وهى تربت على كتفها:

- أردت أن أظهر للجميع أنهم أجبروا اباهم على البيع بثمن بخس، وبعدها نفرض عليهم إكمال أنصبتنا، فأنا أيضا لم أحصل على كامل حقى، وحقوقنا فى كروش رمضان ويونس ومرعى ويحيى

أخفت الحاجة فردوس الأمر عن الجميع، وفى غروب شمس كل يوم كانت تجلس فى الشرفة وتكشف رأسها وتدعو عليهم:

- رمضان ابن نعيمة، ويونس ابن عزيزة ومرعى ابن عزيزة ويحيى ابن عزيزة

رمضان كان قد أخلى سبيله وحبست النيابة أحد أعوانه، ولما استمرت فردوس فى التعريض بهم وصار الوضع مؤلما خطى فى اتجاه يونس وجلس إلى جواره وقال:

- ألن ينتهى هذا الأمر يا حاج يونس؟ الناس أكلت وجوهنا وصارت فضيحتنا بجلاجل

أطرق يونس إلى الأرض:

- قلت لك كلها مائة وخمسون ألفا ندفعها للحاجة فردوس وبناتها وننتهى من كل هذا

اعترض:

- إذا فعلنا هذا لن تتركنا الشيطانة، ستطالب هى الأخرى بنصيبها

أجابه يونس:

- دع الشيطانة لحالها، المهم إبعاد الحاجة فردوس

حك رمضان جذور لحيته وقال:

- لن أفتح على نفسى بابا لا أعرف كيف أغلقه

فكر يونس:

- والذى يغلقه لك بالضبة والمفتاح ماذا تكون جائزته؟

نظر إليه متشككا:
- كيف؟
أعتدل في مواجهته وقال:
- دعني أتحدث إليها، فخصامنا معها لن يطول إلى آخر العمر
بان القلق على ملامح رمضان وتوترت لحيته:
- قل لي ما في رأسك بالله عليك، دعني أزنها معك
- الشيطانة بعد أن وضعت يدها على مال أبينا لم تكن تتصرف بعشوائية، كانت تعد لكل شيء عدته، وهي الآن لا يعنيها أكثر من أن ندعها في حالها مع مقام أبيها
انتفض غاضبا:
- أتريد أن أقايض الكفر بديني يا حاج يونس؟
تهكم منه يونس:
- أي دين وأي كفر يا رمضان؟ أتظن أنكم تطبقون شرع الله كما تقول؟ أنتم لا تريدون إلا المال والنساء والحكم، لكم أربعون عاما وأنتم تعيشون في القرية فماذا فعلتم؟ غطيتم وجوه النساء وعريتم عوراتهن، اطلقتم لحى الرجال ومعها أيديهم، الزنا موجود، والسرقة عيني عينك، وأكل الحقوق له عندكم أسانيد، الفقراء ملأوا أركان البلد ولم تدعوا حارة إلا وأقمتم فيها مسجدا أو زاوية، وخربتم المساكن، أهذا ما تسميه مقايضة الكفر بالدين يا رمضان؟
لما رأى رمضان أن رده على أخيه سيبعدهما عن طريق الحل رفع كفه معترضا:
- صرت جدا ولم تتغير يا حاج يونس، تجترئ على أصول الدين كما كان أبوك، دعنا من كل هذا وأكمل، ما الذي تفكر فيه؟
- أنت تدفع نصف المبلغ، وأنا وأخواي النصف الآخر، أما برسكال فلندعها تنعم بمقام أبيها
اعترضه:

- لماذا ادفع النصف؟ ألست واحدا من اربعة رجال؟
أجابه يونس:
- لكنك حصلت على نصف الأرض يا قليل الذمة
بعد قليل من الصمت أردف:
- لم أحاسبك على بقية حق أبيك في دار أمك وغيطها، له الربع في كل شيء

أنجز يونس المهمة، أخذ الحاجة برسكال من يدها واتجها إلى دار الحاجة فردوس، وهناك وضع في حجر زوجة أبيه مائة وخمسين ألف جنيه، قال إنها من أبناء زوجها الأربعة، هو ومرعي ويحيى ورمضان، فهم لا يقبلون أن تخرج هي وبناتها من مولد سيدي عبد العاطي بلا حمص، وغضبت الحاجة برسكال من تهكمه وقالت:
- لا تجدف يا حاج يونس، اجعل الصلح خالصا لوجه الله

المرأة التي لم تصدق نفسها راحت تتأمل رزم الأوراق المالية وتنظر إلى بناتها، وحتى لا يتجمد الموقف قامت الحاجة برسكال وأخذت المال من حجرها وأعطته للخضرة:
- قومي واحفظي المال حتى لا يفاجئنا أحد ويراه

في طريق عودته قال يونس لنفسه إن في الأمر سر لا يعرفه، فالحاجة فردوس وبناتها لم يتفاجأن بقدوم برسكال معه، وعندما جلس عند باب المعرض يدير الأمر في رأسه أقبل عليه رمضان، فقال له يونس والسخرية تخنقه:
- أبوك انتقم منا كلنا يا رمضان، باعنا الأرض بنصف ثمنها وهو يعرف أننا سندفع الثمن كاملا في النهاية

راح يشرح شكوكه وعينا رمضان تطقان بالشرر ولحيته تهتز فوق بطنه العظيمة.

عندما اندلعت الثورة في بداية عام 2011 وقفت جماعة رمضان تحاول منعها، وعبر مكبرات الصوت قالوا إن الخروج على الحاكم

كبيرة لا تعدلها كبيرة، حتى ولو كان فاسقا، ومن مات وليس فى عنقه بيعه مات على الكفر، لكن الناس خرجوا، وظل السلفيون يدورون حول أنفسهم لا يدرون كيف سيتصرفون، فجهاز امن الدولة اختفى، ذاب ضباطه ومخبروه، واستباح البعض مقرهم فى السنبلاوين فعثروا على كثير من اوراقه، ولما بدا ان الاخوان هم من يحركون الأحداث امسك رمضان بميكروفون المسجد الكبير وقال:

- أنا ورفاقى نعتذر للثوار، كنا نحرم الخروج على الحاكم كأصل من أصول الدين، لكننا لم نكن مع فساده ولا جنودا لطغيانه، ومن اليوم كلنا مع الثورة

راح يعدد الجهات التابعة لهم التى تدعم الثورة، فى سبيل التمكين للإسلام فى أرض الكنانة، وخرجوا فى جماعات تحملهم سيارات نقل كبيرة ليشاركوا فى المظاهرات والاعتصامات، فى ميدان ام كلثوم فى المنصورة أو فى ميدان التحرير.

اختفت الشرطة، وانحل الحزب الوطنى، لزم أعضاؤه دورهم واكتفوا بسماع ما يجرى من خلف النوافذ، وفاجا المخبر مرتضى الحاجة برسكال بالطرق على بابها، طلب ان تساعده على الاختباء ريثما تتكشف الامور، وأخذه عبد العاطى الى المقام، وهناك نام خلف الضريح، وفى جوف الليل سمع المخبر لغطا خارج المقام فهمس لعبد العاطى يسأله، كان خائفا، ظن ان من يترصدونه جاءوا لقتله، لكن عبد العاطى طمأنه، قال إنهم أصدقاء جده، يجيئون كل ليلة ليسمروا معه قبل الفجر، وعندما تصفر مكبرات الصوت تمهيدا لأذان الفجر يختفون.

فى إحدى الليالى قال مرتضى المخبر لعبد العاطى:

- لم أكن أعرف أن الحاجة برسكال مظمطمة إلى هذا الحد

سأله عبد العاطى:

- كيف؟

أجابه:

- الرائد عصام جندية منذ قابلته الحاجة اختلف، فارق الغضب وجهه وصار إنسانا، سمعنا أن الحجاب الذى صنعته لابنه صنع المعجزات

أخرج عبد العاطى حجابه من تحت ملابسه وقال:

- هكذا هى أحجبة امى، وأنا أضع هذا الحجاب منذ كنت طفلا، لا أخلعه أبدا

استدار المخبر ليواجه عبد العاطى:

- أنا مخبر فى أمن الدولة منذ أكثر من عشر سنوات، قبلها كنت بالمباحث الجنائية، ومنذ عملت فى سلك المباحث وأنا أراهم يفعلون نفس الشىء، كلهم بلا استثناء، يبحثون عن أمانهم فى أهل الله، كالست الوالدة وكجدك، على هديهم يخطون فى اتجاه المستقبل

لما اندهش عبد العاطى مما يقول أردف مرتضى:

- لا تضع فى بالك، فبغير هذا لا يقدرون على مواجهة صعاب المهنة، الكبير يأكل الصغير، والخير يستأثر به صاحبه ولا يشارك فيه إلا رؤساءه، أما السيئة فتعم، إنها الشرطة كما أعرفها، حتى الوزير نفسه، ما سمعت عن أحد ممن تولوا الوزارة ليس له مساعد من أهل الله، يقرأ طالعه ويؤمن مستقبله ويقيه شر غضبة الكبار، وأمك بسرها الباتع وعلمها المكنون أجدر بأن تكون عين الوزير نفسه وبصيرته

قبل حلول الذكرى السنوية الأولى لوفاة أبيها كانت الحاجة برسكال قد جلبت عمالا وصعدت معهم إلى الربوة ليباشروا أعمال الجبس والبياض، وأحالوا المقام إلى لؤلؤة تتفرد فى سحرها، وصنعت مقصورة من الخشب علاها دائر خشبى نقرت فيه ملائكة يطيرون بأجنحتهم فى سماء مرصعة بالنجوم، ثم وضعت فوق

المقصورة كسوة من الحرير الأخضر ثبتت فيها أشرطة من الحرير الأبيض كتب عليها بالتطريز المقصب: هنا يرقد جثمان العار[illegible]
سيدي عبد العاطي ملش، القابض على اللجام الصد[illegible]
وتولت حبق البحر بالرعاية فازداد عبقه، ثم فاجا[illegible]
عن الاحتفال بذكرى أبيها، وقبل موعد الاحتفا[illegible]
غريبة تحط على القرية، وعندما حل الم[illegible]
بالقاصدين، ملأوا الشوارع والأحر[illegible]
الربوة، جاءوا بدفوفهم ومزامير[illegible]
الملونة، وراياتهم الخضراء، [illegible]

[illegible]



لا يعرفون كم هو جميل أبوها، لم يروه وهو يضمها إليه ويغنى فى وجه الليل، ولم يسمعوه وهو يلقى حكايات الليل الساحرة، ولم يشاهدوه وهو يعامل المهرتين كامرأتين، ولم يروه وهو خائف، ولم يروا دموعه، هى شريكته كما قال، حتى أرض الدار الجديدة هى شريكته فيها، أيكون هذا مجرد صدفة؟ وقلبها المسكون بهم لم يعد فيه متسع لشىء جديد، يكفيها حبها لرزق وتعلقها بشبان وغفرانها ليونس ومرعى ويحيى، وتسامحها مع عزيزة وفردوس وعينى نعيمة اللائمة.

من لمعة عينيه عرفت كل شىء، ابتسم وهو مطرق إلى الأرض، مدت نعيمة إليها أطراف أصابعها ثم اختفت داخل الدار، وسمعت برسكال حركة شبان فى الداخل فلم تتطفل عليهما، فلو أراد أن يخرج ويسلم عليها فهى فى الانتظار، أما إذا منعته أمه فليبق حتى تتحدث إلى أبيها وتنصرف.

لم تطل جلستهما، ضيّق عبد العاطى إحدى عينيه وهمس بأن تسبقه إلى دارها، كان يعرف أن مناجاته معها محل مراقبة، وبرغم أن نعيمة شعرت بأن وراء الجلسة مشكلة ما تتعلق بزوجته الجديدة إلا أنها لم تستطع أن ترحب بوجودها، ولما رأتها تنصرف انزاح كابوس من فوق صدرها، وشعر رمضان بأن الحصار المفروض عليه انفك.



الرسم لفنان فطري من على إحدى خرقيات قرية «تونس» بالفيوم ■ الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف: أحمد اللباد